منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الثانية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

جورج يرق

حارس الموتى

القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٦

رواية

جورج يرق
حارس الموتى
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

مكتبة
الفكر
الجديد

حارس الموتى

رواية

جورج يرق

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

مكتبة الفكر الجديد

هذه الرواية من نسج الخيال.

وإذا اتّفق أن شابهت حوادثُها وأشخاصُها وأمكنتُها أشخاصًا حقيقيّين وحوادث وأمكنة حقيقيّة فهذا محض مصادفة ومجرّد من أيّ قصد.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

1

المصادفة وحدها مسؤولة عمّا أعانيه الآن.

كنت أتصيّد في السهل. وكان الوقت غروبًا.

لدى مروري قرب مكبّ الزبالة التابع للضيعة، سمعتُ أنينًا متقطّعًا. أوّل وهلة، ظننتُ أنّي أتوهّم ذلك. لكن عند تكراره تأكّد لي أنّ ما أسمعه هو صوت بشريّ. فازدحمت الاحتمالات.

ربّما ابن أحد الرعاة جاء ليفتش عن بقايا ألعاب، ووقع وأصيب بجروح.

ربّما بدويّ من القبائل الرُّحَّل، تعثّر بتنكة وتأذّى.

ربّما صيّاد لاحق طريدةً صادها لكنّها بقيت قادرة على المناورة، وحصل له مكروه.

ربّما رآني أحدٌ آتيًا وشاء أن يمازحني، فاختبأ وراح يئنّ. كنت أتوقّع أن يُظهِر نفسه بين لحظة وأخرى، رافعًا يديه، صارخًا لإخافتي.

رجّحتُ الاحتمال الأخير.

لطالما حدث مثلُ هذه المسرحيّة التي يُراد منها بثّ الرعب. ثم رواية المقلب للأصحاب بعد أن يُضاف إليه ما يجعله جديرًا بالتداول. هنالك أناس مختصون بالحذف وبالزيادة حتّى يغدو الحدث الذي حصل في الواقع هو غيره على ألسنة الناس.

مكتبة الفكر الجديد

تقدّمتُ نحو الصوت موجّهًا فوّهة الجفت(*) إلى الأعلى كي لا يرتطم بشيء صلب، وهو لم يزل جديدًا، وقد جمعت ثمنه ليرةً فليرة.

كلّما خطوت خَفَتَ الأنين وتلاشى.

أقف. لا آتي بحركة، فينطلق مجدّدًا. لكن أقلّ ارتفاعًا ممّا كان قبل لحظات.

فيما أدنو من مصدر الصوت على مهل، لم أُسقط أيًّا من الاحتمالات الأربعة.

كنت ألمّيًا للمفاجأة متى اقتربت من كومة قد تخفي أحدًا وراءها، أو من برميل، أو من تلّة.

يلفتني دخان يصعد قرب رفّاص للسرير أكله الصدأ. أجد ثيابًا وثلاثة أزواج من الأحذية تحترق.

الأنين في تلك الأثناء، ارتفع. اجتهدت لتعيين النقطة التي ينبعث منها. عبثًا. الهواء الخفيف حال دون ذلك.

لم أكن خائفًا.

كنت حذرًا ومترقّبًا انتصاب أحدهم مولولاً ومقهقهًا في الحين نفسه.

استعدادي للمفاجأة قلّل قوّة وقعها. التقطتُ بضعة أحجار، ورشقت بها محيط المكان المتأتي منه الأنين لعلّ ذلك يدفع المختبئ إلى التحرّك، فأراه، وتُكتشف اللعبة.

لكن ما حصل بعد رمي الأحجار هو اختفاء الأنين.

(*) يختلف لفظها باختلاف لهجات المناطق: جُفُتْ، جَفَتْ، جَفِتْ. وهي اسم بندقيّة صيد من فوّهتين متجاورتين، أو فوّهة تعلو أخرى، تُلقّم بكل واحدة طلقة.

مكتبة الفكر الجديد

جمدتُ في موقعي دقيقة. دقيقتين.

ألتفتُ حولي منصتًا جيّدًا وقد تناهى إليّ دبيب الجرذان على صفائح التنك.

أمّا الأنين فكأنّه لم يكن.

تراجعتُ لعلّ صاحب اللعبة يظنّ أنّي على وشك الرحيل، فيكشف نفسه، أو يعاود الأنين.

ما إن استدرتُ حتّى سمعتُ حركة، وإذا برجل وجهه مغطّى بالدم يهجم عليّ وفي يده قضيب حديد.

أهرب.

يلحق بي غاضبًا: "هادا إنت يا ابن الشرموطة".

كان الجفت معلّقًا بكتفي. فمن المتعذّر أن أشهره عليه دفاعًا عن نفسي، أو لأهدّده به.

يبدو أنّه كان يراقبني. فأنا لم أضع الجفت في كتفي إلاّ حين تظاهرتُ بالتراجع.

لم يمرّ في بالي أنّ يثب رجل من بين النفايات مدمّى، ويطاردني كأنّي أضمر له شرًّا.

لو توقّعت ذلك لأبقيت الجفت على أهبة الاستعمال، ولرميت طلقةً في الجوّ أو بين رجليه لأوقفه عند حدّه، وأفهمه أنّ التمادي قد يكلّفه حياته.

أفعل ذلك من باب التهديد.

لكنّي لا أضمن ماذا قد أفعل إذ شعرت أنّي في خطر. لم يسبق أن مررتُ في مثل هذه التجربة. قد أقتله بخرطوشة واحدة. وبإمكاني أن أسدّد بين عينيه وأصيب الهدف. فالذين يعرفونني يعرفون أنّي

مكتبة الفكر الجديد

أذهب إلى الصيد بعشر خرطوشات فأعود ومعي تسعة طيور، والطير العاشر أكون قد أصبته فحمل جرحه وهوى في مطرح بعيد.

كان منظر الرجل مخيفًا. كاد الدم يغطّي وجهه. فما تبيّنتُ ملامحه.

لم يتمكّن من اللحاق بي. فأنا حائز جوائز وميداليّات في الركض السريع، وكذلك في رمي الكرة الحديد. عندما أركض أشعر بعد اجتياز مسافة معيّنة، بأنّي أعدو في الهواء.

كان لا يزال خلفي عندما راح يشتمني ويتوعّدني.

حين طمأنني الصوتُ إلى أنّ المسافة التي تفصلني عنه، تتيحُ لي أخْذَ نَفَسٍ، نظرتُ ورائي. رأيته يمشي مترنّحًا ثم ينهار على جانب الطريق.

هل مات؟

هل فقد وعيه من جراء النزف؟

هل يمثّل أنّه وقع كي يستدرجني إلى مساعدته ثم يقبض عليّ؟

من هو هذا الرجل الذي على ما يبدو، يعرفني شخصيًّا، وإلاّ فما المقصود من قوله "هادا إنت..."؟ وفي قوله هذا اتّهام مباشر لي باقتراف سوء لستُ أعرف ما هو.

ربّما الدم المنساب على وجهه مردّه إلى إصابة في رأسه. فالصيّادون كثرٌ في مثل هذا الموسم، موسم عبور طيور المَطْوَق، ومن الممكن أن يكون أحدهم أصابه خطأً.

حادثٌ كهذا ممكن حصوله.

أذكر أنّ صيّادًا بيروتيًّا أخطأ طائر الفرّي الذي انطلق على علو منخفض، فأصاب رفيقه في عنقه فقتله. وصيّاد آخر كان يرمي على

مكتبة الفكر الجديد

طائر من السمّان، فأخطأه لكنّ عاملاً سوريًا في كرم مجاور سـقط مقتولاً. وقد تبيّن أنّ الوفاة نتيجة إصابته في الرأس.

الرجل الذي كان يئن في مكبّ الزبالة، ربّما هو صيّاد أيضًـا، أُصيب من غير قصد، فظنّ أنّي مُطلق النار وقد جئت أتفقّده إذ لا بدّ من عودة المجرم إلى مكان الجريمة. لكنّ موقع المكبّ لـيس مربطًـا جيّدًا للصيد. فالرائحة المنبعثة منه، عدا أسراب البرغش والـذباب، تجعل الوقوف قربه، قصاصًا. لم أرَ مرة صـيّادًا يـرابط للطيـور في جواره.

محتمل أن واحدًا من الذين يتربّصون بالصيّادين الغرباء، وجد في الرجل صيدًا ثمينًا، فجرّده من بندقيّته ثم ضربه بكعبها أو بشيء ما على رأسه، وأخذها. لم يكتفِ بالبندقية بل سرق سيّارته أيضًا وتوارى. فلا أحد يقصد إلى هذا المكان مشيًا إلاّ إذا كان من أولاد الضيعة.

فالرجل المدمّى، على الأرجح، غريب، ولم أرَ سيّارة متوقّفة في محيط المكبّ.

ما يشغل بالي هو قوله "هادا إنتْ...".

إنّه يعرفني.

هل يعرفني من كاراج الحدادة والبويا الذي يملكه ابن خـالي، وأعمل فيه خلال عطلة الصيف؟

هل رآني في محل البليارد والفليبرز حيث أتسلّى أحيانًا؟

هل رآني أقرأ الجريدة في المقهى الذي يتحوّل ناديًا للقمار في الليل؟

لم أرَ وجهه. كان الدم يحجب القسم الأكبر منه. ثم إنّ المفاجأة والخوف منعاني من التحديق فيه. كذلك أبهرتني أشعة الشمس الـتي أوشكت أن تغيب، فجعلت الرؤية صعبة.

مكتبة الفكر الجديد

عندما التفتُّ وهو يعدو ورائي، رأيت رجلاً في الخمسين أو دونها بقليل، مربوعًا، كرشه صغيرة، له شاربان وسكسوكة.

كانت قدماه سليمتين إذ استطاع الركض مسافة ليست قصيرة. ومثلهما يداه وباقي جسمه. هذا دفعني إلى ترجيح الإصابة في الرأس.

حتّى صوته لم أسمعه. كان يخرج من فمه مغمّسًا بالدم.

لو كان الرجل من الضيعة لعرفته وإنْ يكن وجهه مستورًا. أعرف الجميع إمّا من طريقة مشيتهم، أو من أصواتهم، أو من لباسهم من دون أن أرى وجوههم. فحين ترى الرجل غير مرّة في اليوم الواحد، على مدى أعوام، يكفي أن ترى أيَّ شيء يمتّ إليه بصلة، حتّى تعرفه. مثلاً، إذا أريتني يدًا ما، وحجبت سائر أعضاء الجسم، أستطيع أن أقول لك إنّ هذه اليد هي يد فلان.

ربّما للرجل أقرباء في الضيعة يزورهم بين وقت وآخر، ورآني في إحدى المناسبات التي يقيمها نادينا الرياضيّ في الصيف.

وربّما وجد وجه شبه بيني وبين أحدهم. فالوجوه تتشابه.

ما يجعلني ميّالاً إلى هذا الاحتمال هو أنّه لم يناديني باسمي عندما لفظ تلك العبارة البذيئة. فلو كان يعرفني حقًّا لذكر اسمي كي يثبت لي أنّه عرفني، وأنّه لن يدعني أنجو بفعلتي.

ووارِدٌ أنّ يكون نسي اسمي في تلك اللحظات الحرجة.

حرجة له لظنّه أنّ الذي تسبب بأذيته رجع لكي يرى النتيجة، أو لكي يتأكد أنّ ما فعله لا يحتاج إلى تتمة، أو أنّه عاد لأسباب أخرى.

وحرجة لي لأنّي كنتُ أتوقّع أنّ دعابة تنتظرني وليس ظهور وجه تغطّيه الدماء، وهجوم صاحبه عليّ وتهديده إيّاي.

مكتبة الفكر الجديد

عندما عجز عن اللحاق بـي وسقط أرضًا، راودتني فكرة الذهاب إليه ومساعدته قبل أن يتدهور وضعه وينـزف دمه كلّه ويموت.

إذا حدث ذلك فستستبدّ بـي عقدة الشعور بالذنب وترافقني إلى أن ألاقي وجه ربّي. وهذا ما لا طاقة لي على تحمّلـه. أذهـب وأعرض عليه المساعدة وأبرّئ نفسي. أقول له إنّي كنت مـارًّا مـن هناك وسمعت أنينًا فتوقّفت، حاسبًا أن صديقًا لي يدبّر مقلبًا.

قد يقتنع ويبرئني. لكنّني عدلت عن الفكرة بعد تردّد.

خفتُ أن يظنّ أنّي عائد كي أكمل عليه أو أنّي كاذب.

خفتُ أيضًا أن أخبر أحدًا من المارّة. فإذا قلت لعـابر سـبيل إنّ هنالك رجلاً ينـزف وهو عُرضة للموت، فسيقول لي تعالَ سـاعدني، إذّاك سيكون الموقف دقيقًا. فإن ذهبت مشكلة. ومشكلة إن لم أذهب.

لستُ مستعدًّا للمبيت بين القبور ولا لرؤية منامات بشعة.

كذلك خفت أن أبلغ مخفر الدرك الذي لا يبعـد كـثيرًا مـن المكان. فمثل هذا الإبلاغ يقتضي إجراءات قانونية معيّنة.

وفي حالتي يجوز أن لا يمرّ الموضوع على خير.

افتراضًا أنّي أبلغتُ فذهبتْ دورية وأحضرت الرجل وحققـتْ معه. حتمًا سيتهمني بأنّي أنا الذي فعل به ما فعل، ولا إثبات لـديّ ينفي التهمة. والنتيجة يُزجّ بـي في الحبس، وخذْ علـى تحقيقـات يتخلّلها تعذيب كي أعترف.

بمَ أعترف؟

وإلى أن تظهر الحقيقة، هذا إذا ظهرت، مَنْ يردّ إليّ اعتبـاري، ويعوّض لي أيّام السجن بالإضافة إلى المهانة التي تلحق بـي طـوال مدّة التوقيف.

مكتبة الفكر الجديد

لم أغادر.

رحتُ أتمشى على الطريق العام الذي يطلّ على الفسحة حيث سقط الرجل.

العتمة التي هبطت في بطء جعلت الرؤية متعذّرة. لكنّ السيّارات العابرة كانت ترسل أنوارها الخاطفة إلى الفسحة، فألمح للحظات المكان، وأحاول أن أركّز جيّدًا لعلّي أرى الرجل قد نهض، أو زحف في حال عجزه عن الوقوف والسير. فوصوله إلى الطريق المجاور للفسحة قد ينقذه من الموت المحتّم.

استمررتُ في المراقبة.

لن أطمئن قبل معرفة مصيره. إذا تُوفّي، لا سمح الله، أشعر أنّي المسؤول عن وفاته. هذا الشعور يخامرني ويحفر في عقلي ووجداني.

لكن ليس في اليد حيلة.

لا أحد سواي يعرف ما ألّم به. باستثناء الفاعل الذي ربّما هو أيضًا يتابع المشهد من بعيد. لعلّه يطوف بسيّارته في المحيط لمعرفة ماذا حلّ بضحيّته. فإذا ذهب إلى المكبّ ولم يعثر على الجثّة فستنتابه شكوك تحثّه على التفتيش.

السيّارات التي مرّت، والتي لا تزال تمرّ، لم تُثر أيّ شبهة. راقبتها كلّها، فلم أرَ سائقًا، أو من يجلس إلى جانبه، كثير الالتفات في غير اتجاه. فهذه ستكون حال من يبحث عن أحد.

لو كان الاتّصال الهاتفي مُتاحًا لاتّصلتُ بأيّ رقم وأعلمت من يردّ عليّ بأنّ ثمّة جريحًا في حاجة إلى مساعدة، فأعطيه العنوان وأقفل الخطّ.

مكتبة الفكر الجديد

أكرر المحاولة مع غير شخص. لعلّ أحدهم يأخذ الاتّصال على محمل الجدّ فتدبّ فيه المروءة ويرتدي ثيابه ويأتي للمساعدة. الدنيا لم تخلُ من فاعلي الخير.

لكنّ الهاتف معطّل. وإذا كان صالحًا للاستعمال وجب الانتظار قرابة نصف ساعة كي يأتي الخطّ.

هذه الفكرة مستبعدة.

سنترال الضيعة يبعد ربع ساعة مشيًا، وغيابي هذه المدّة عن المراقبة، يترك ثغرة في جدار المتابعة. قد يخرج خلالها الرجلُ من غيبوبته ويمشي وصولاً إلى الطريق فيستقلّ أوّل سيّارة ويتّجه إلى أقرب مستشفى. عندئذ أفقد أثره فلا أعود عارفًا هل بقي حيث هوى بعد مطاردته إيّاي أم استطاع الوقوف والنجاة.

من الحكمة ألاّ أغادر ما دمتُ حريصًا على دوام الإمساك بخيوط اللعبة.

فالسّاعة الآن العاشرة ليلاً.

في مثل هذا الوقت يلفتُ حملُ الجفت، وإنْ منكّسًا رأسه، ومعلقًا بكتفي، النظرَ ويرسم علامات استفهام لدى من يراني، خصوصًا إذا كان غريبًا عن القرية وصودف مروره بها.

لكنّ العلاّقة المدلاّة على فخذي، وفيها نحو اثنتي عشرة مَطوَقَة توحي أنّي صيّاد ولستُ مسلّحًا ميليشويًا.

أجهل لماذا خُيّل إليّ أنّ الرجل لا يزال حيًّا، وأنّه وجد طريقة للخروج ممّا هو فيه. توارى و لم ألحظ ذلك. تخيّلتُ ما أتمنّى حدوثه، لأستريح ويستريح ضميري وينتهي الكابوس الذي أعيشه منذ ست ساعات.

مكتبة الفكر الجديد

بات وجودي على الطريق في منتصف الليل مثيرًا للأسئلة.

أدنو من الفسحة حيث من المفترض أن يكون الرجل، وألقـــي نظرة أخيرة.

أنصت جيّدًا فالصوت في الليل ممكن سماعه، وإنْ لم يكن قويًّا.

المكان هادىء. وحدها أصوات الزيزان وتساقط أوراق الشجر والسيارات العابرة تخدش سكينته.

أذهب إلى البيت. أبـــي وأمّي نائمان. أتعشّى، أفرشي أسناني، أرتدي البيجاما، أستلقي على السرير.

لم أستطع النوم.

كنت أرى وجه الرجل المدمّى وأنا مغمض العيـــنين. وأسمـــع صوته.

حاولت أن أفكّر في شيء آخر يتيح لي الغفو بعد يـــوم غـــير اعتيادي. لكن عبارة "هادا إنت..." بقيت تتردد في رأســـي حـــتى طلوع الضوء.

في تلك الليلة، عرفت قيمة الطمأنينة وراحة البال اللـــتين همـــا أفضل طريقين إلى نوم هانئ وأحلام لطيفة.

مكتبة الفكر الجديد

2

فيما كنتُ أربط لأسراب المطْوَق التي ندر عبورها صباح يوم أمس، كان ثلاثة من حزب "السيادة" مجتمعين في بيت أحدهم بالضيعة.

هدف الاجتماع خطف مدرّس وتلقينه درسًا يكون عبرة له ولأمثاله.

والسبب أنّه يشتم الحزب على مسامع تلاميذه في الصفّ، وزملائه في قاعة الاجتماعات، ويتّهمه بالتخلّف والتعصّب وضيق الأفق. ويصف زعيمه بالعميل.

والمدرّس هذا ينتمي إلى حزب مناوىء. فُصل إلى مدرسة الضيعة لقربها من ضيعته، بعد وساطة مرجع عالٍ في السلطة.

عيّن المجتمعون الثلاثة الساعة الصفر للعمليّة لدى انتهاء دوام التدريس، أي الرابعة ما بعد الظهر. والمكان الساحة المجاورة للمدرسة، والتي لا بدّ من المرور بها في حالتَيْ الدخول إلى المدرسة والخروج منها.

في تلك الساعة، تغصّ الساحة بالأهالي الذين ينتظرون أبناءهم لاصطحابهم إلى البيوت، وبالأوتوكارات التي تنقل التلاميذ إلى البلدات القريبة.

مكتبة الفكر الجديد

اختيار ذلك التوقيت، وتلك الساحة، مقصود.

فالشباب الثلاثة، والرأس المدبّر الذي يديرهم، شاؤوا أن تصحب عملية الخطف ضجّة تتردّد أصداؤها في الضيعة والضواحي. ولو لم تكن هذه غايتهم لاختاروا توقيتًا آخر للخطف ومكانًا مختلفًا. كأنّهم أرادوا من وراء هذه العمليّة توجيه رسالة ذات بعدين.

البعد الأول داخليّ يتّصل بردّ الحزب على وجهاء الضيعة الذين يرفضون هيمنته ويسعون إلى إبقاء الضيعة خارج الصراعات، خصوصًا أنّها مُحاطة بقرى غالبيّة سكانّها من طائفة أخرى، وينتسبون إلى أحزاب لا يجمعها وحزب "السيادة" سوى التحدّي والضغينة. أرادوا أن يقولوا للوجهاء، ولا سيّما لرئيس البلدية، أنّ الكلمة في الضيعة لنا، ونحن من يقرّر مصيرها لا أنت ولا الذين يقفون وراءك.

والبعد الثاني خارجي موجّه إلى الجوار ومفاده أنّ هنالك خطوطًا حُمرًا فمن يقفز فوقها يلقَ المصير الذي لقيه الأستاذ. وينطوي هذا البعد أيضًا على شقّ ثانٍ هو أننا، وإنْ كنّا قلّة، لا نخافكم، ولا نخاف تهديداتكم المبطّنة، ومستعدّون للدفاع عن أنفسنا، ولن نترك بيوتنا إلاّ إلى المقابر.

والثلاثة هم البحّار وبو مَسنّ والديك.

البحّار رفيق طفولتي. تقول أمّي إنّها أرضعته طفلاً وتحبّه تمامًا مثلما تحبّني. وتقول أمّه عني كما تقول أمّي عنه. الفرق بيني وبينه هو حبّه الشديد للسلاح الحربيّ وكرهي لهذا النوع من السلاح. كان يعشق أن تُلتقط له الصور وهو على وشك نزع الصمّام من رمّانة يدويّة، أو يحمل الرشّاش في أوضاع مختلفة، أو يصوّب المسدس نحو رأسه.

مكتبة الفكر الجديد

دوره في العمليّة البقاء وراء مقود السيّارة خلال الخطف وقيادتها بالسرعة الممكنة لدى إدخال الضحيّة إليها.

بو مسنّ البالغ من العمر ثلاثين عامًا مطرودٌ من الجيش لأسباب مسلكيّة. يقولون إنّ شقيقته التي أشيع أنّها ماتت غرقًا، قتلها هو ورمى جثتها في النهر بعدما اكتشف أنّها لا تعمل في التمريض في أحد مستشفيات بيروت كما ادّعت بل في بيت للدعارة. يحمل الزنّار الأسود في الكونغ فو. يتباهى بجسمه الرياضيّ وعضلاته المفتولة. ولطالما ارتدى في عزّ البرد، قميصًا بكمّين قصيرين كي يظهر زنديه المنتفخين.

دوره في العملية الانقضاض على الأستاذ وجرّه إلى داخل السيّارة ووضع كيس أسود في رأسه كي لا يعرف المكان الذي سيؤخذ إليه، ولا الخاطفين.

الديك، وقد لقّب بهذا الاسم لوجه الشبه بينه وبين أنطوان كرباج الذي حمل الاسم نفسه في برنامج "من يوم ليوم". عمره خمسة وعشرون عامًا. وهو على خلاف دائم مع أبيه المالك نصف أراضي الضيعة، والمقرّب من رئيس البلديّة. وقد انتسب إلى الحزب من باب النكاية وليقهره.

دوره حراسة بو مسنّ خلال العمليّة وإبعاد من يحاول الدفاع عن الأستاذ أو لأيّ غاية أخرى.

أمّا الرأس المدبّر فلم يُعرف مع أنّ الشكوك دارت على اثنين.

أحدهما بو ليلى الذي يُنسب إليه، في العادة، كلّ ما يخلّ بأمن الضيعة، وإنْ يكن هو منه براء.

مكتبة الفكر الجديد

والثاني الكولونيل الذي كان أوّل من وقف في وجه رئيس البلدية وأعضاء مجلسها عندما قرّروا استعادة سلطتهم التي تلاشت بعد تمدّد سلطة الحزب.

ولمّا كنتُ أنا الحقُ مَطوقةً أصبتُ جناحها فهوت في العلّيقة، كان الثلاثة في سيّارة سُرقت قبل ساعات من أحد الصيّادين الآتين من بيروت. ورُكنت على مقربة من السّاحة في موقع منزوٍ. عندما أبلغهم المخبرون، وهم من التلاميذ، أنّ الأستاذ في الطريق إلى السّاحة، أنزلوا الأقنعة في رؤوسهم، وانطلقوا. أوقفوا السيّارة في منتصف السّاحة، ترجّل منها الديك الذي أمّن الحماية وشهر الرشّاش وأطلق من غير داعٍ بضعة أعيرة ناريّة، وبو مسن الذي هجم على الأستاذ ولكمه ثم حمله وزجّ به في السيّارة. وتواروا وسط ذهول الناس والذعر الذي دبّ في صفوف الطلاّب.

كان مشهد الخطف مشهدًا سينمائيًا بامتياز.

هذا ما أجمع عليه الذين رأوا التفاصيل.

في السيّارة راح المخطوف يسأل: "مين انتو؟ شو بدكن مني؟ لوين آخديني؟".

بعد كلّ سؤال، يوجّه إليه بو مسنّ لكمة لإسكاته. وكان قد أوثق يديه وراء ظهره بمرسة مصيص كي يشلّ حركته.

طوال الطريق من السّاحة مرورًا بحيّ الزعرور وصولاً إلى البيادر ظلّ الثلاثة محتفظين بالأقنعة على وجوههم ولم يخلعوها إلاّ حين باتوا في السهل.

خافوا أن يتبعهم أحدٌ إذ توقّعوا أن يصل خبر الخطف إلى ثكنة الجيش، أو إلى المخفر.

مكتبة الفكر الجديد

لذا كان عامل السرعة مهمًا.

لامَ البحّارُ بو مسنّ لأنّه لم يكن ضروريًا أن يطلق الرصاص فوق الرؤوس، ولأنّ ذلك قد يستدعي دوريّة فتلحق هم. ومن الممكن أن يشتبكوا مع عناصرها إذا لزم الأمر.

أخطأ بو مسنّ، ومع ذلك، لا تزال الأمور تحت السيطرة.

قال البحّار إنّ قلبه في تلك اللحظات كان يدقّ دقّات سريعة ليس خوفًا بل لسبب يجهله. وقال إنّه اختبر شعورًا لم يسبق أن عاشه، شعورًا لا يخامر إلاّ من يقوم في مثل هذا النوع من المغامرات.

أمّا لماذا اختاروا مكبّ الزبالة لتصفية الحساب مع الأستاذ، فلكي يبعثوا برسالة إلى من يعنيهم الموضوع فحواها أن نهاية كل من يغلط مع أحد أبناء الضيعة هي في المزبلة.

وفي الوقت الذي كنت أستريح تحت شجرة الصفصاف أقرأ فصلاً جديدًا من رواية "الشاهد الأخرس" لأغاتا كريستي، كان الثلاثة ينهالون بالضرب على الأستاذ وهم يشتمونه ويشتمون حزبه وزعيم الحزب.

لم ينووا قتله.

أرادوا تأديبه كي يلتزم حدّه فيكتفي بالتدريس ويقلع عن الإرشاد السياسيّ وسبّ الحزب الذي ينتمون إليه.

الضربة التي تسبّبت بفجّ رأسه مصدرُها كعب مسدس الديك الذي ما إن رأى الدم يصعد من جمجمة الأستاذ حتّى اقترح رميه في وسط المكبّ، والرحيل. فكّوا الرباط عن يديه كي لا يحرموه فرصة النجاة. فمع بقاء الرباط، قد يستحيل عليه النهوض فينزف إلى أن تطلع روحه.

مكتبة الفكر الجديد

ثم استبدلوا بالثياب والأحذية المستعملة في العملية ثيابًا وأحذية أخرى، بعدما أفرغوا عليها قنينة من الكاز وأحرقوها. هي الثياب والأحذية نفسها التي كنت رأيتها وقد لفتني الدخان الطالع منها.

فكّروا في كلّ شيء، ونفّذوا ما خطّطوا له.

حتّى إنّهم رسموا الخطّة باء في حال فشل الخطّة ألف.

هذا التدبير انتشر في صفوف بعض الأهالي، فدفع أبي وآخرين إلى أن يرجّحوا أن وراء العمليّة ليس بو ليلى بل الكولونيل الذي درس أربع سنوات في الجامعة اللبنانية مادّة الرياضيّات، وعلّمها لصفوف المرحلة المتوسّطة في تكميليّة الضيعة. (رسوبه أربع مرّات في مادّة الطوبولوجي (علم المساحة) حالَ دون نيله شهادة الإجازة. أرسل إلى إدارة الكلية طلب استرحام يتيح له التقدّم مرّة خامسة أخيرة إلى الامتحان في هذه المادّة، واصطدم الطلب برفض عميد كلّيّة العلوم).

لدى العودة، تخلّصوا من الأقنعة. أوقفوا السيّارة المسروقة في أوّل الضيعة وتفرّقوا، كلٌّ في اتجاه بعدما قرّروا أن يلتقوا ليلاً في مقرّ الحزب.

هذا كلّه أسرّ لي به، البحّارُ في اليوم التالي، بعدما استحلفني الاحتفاظ بالسرّ.

وقد حاولت ربطَ كلّ فصل من فصول عملية الخطف بما كنت أفعله أنا في الوقت نفسه تقريبًا خلال وجودي في السهل.

عندما رأيتُ الأستاذ، أو الأحرى عندما رآني هو وحاول الانقضاض عليّ، كان البحّار يشرب القهوة عند بيت عمّته، حيث كانت عمليّة الخطف حديث المجتمعين، وهم، إلى العمّة وزوجها،

مكتبة الفكر الجديد

عدد من الجيران وبضعة شهود عيان من الشبّان الذين كانوا، لحظة الخطف، يلاحقون التلميذات العابرات بعيونهم الجائعة. لم يشارك البحّار في الحديث إلاّ قليلاً. فضّل الاستماع. كان بينه وبين نفسه يتباهى متى روى أحدهم شيئًا عن العمليّة، مضفيًا على الحكاية بعض البطولة. ولاحظ أن الحاضرين استنتجوا أنّ الفاعلين من الضيعة، وليسوا غرباء. وراح بعضهم يخمّن أسماء المشاركين في الخطف، بالاستناد إلى قاماتهم وحركتهم وأحجام رؤوسهم. سُرَّ البحّار أنّ قائمة الأسماء لم تتضمّن اسمه واسمَي شريكيه. وهذا دليل على أنّهم أجادوا التنكّر، وعلى نجاح العمليّة.

وفي وقت كان البحّار في بيت عمّته، جلس بو مَسنّ في الدكّانة المطلّة على الساحة، قنينة البيرة في يده وكيس الفستق بين فخذيه.

الديك ذهب إلى البيت. خلع ثيابه. ارتدى البيجاما. ونام. لحسن حظّه أنّ البيت كان خاليًا. أمّه عند الجيران. وأبوه في المقهى، وشقيقته تمارس تمرينات اليوغا في الحديقة. شاء أن يستريح كي يستطيع الصمود حتّى الصباح. فقد كان دوره في السهر وفي تنظيم الحراسة.

في الوقت الذي كنتُ أراقب ليلاً البورة حيث سقط الأستاذ، التقى الثلاثة في مقرّ الحزب.

وفيما كانوا يستمعون إلى تعليقات الرفاق على العمليّة، كان منزل رئيس البلدية يغصّ بالمستنكرين الذين أبدوا خشيتهم من النتائج التي ستخلّفها عمليّة الخطف، خصوصًا بعدما وُجّهت أصابع الاتّهام إلى عناصر حزبيّة متطرّفة، وقد ورد اسم البحّار دون الاسمين الأخيرين، على بعض الألسنة. لكن ليس ثمّة إثبات واحد يؤكد

مكتبة الفكر الجديد

اشتراكه في العمليّة. ودبّجوا بيانًا وزّعوه في صباح اليوم التالي بـــرّأوا فيه الضيعة من الاعتداء على "المربّي الذي يعلّم أبناءنا الحبّ والخــير والجمال، ولا يستحقّ سوى الشكر والتقدير"، ونـــدّدوا "بالعمـــل الأخرق الذي قام به أعداء العلم والسلام" وخُتم البيان بالاعتذار إلى الأستاذ وإلى إدارة المدرسة، وبالتمنّي أن لا يأخذ الحادث المؤســـف أبعادًا تؤثّر في الوئام القائم بين القرية وجوارها وتخدم أهداف زارعي الفتنة".

في المقابل، أصدر الحزب بيانًا استنكر فيه الحادث واتّهم أيـــديًا خارجيّة بافتعاله من أجل إحداث فتنة بين أهالي الضـــيعة أنفســـهم، وبين الضيعة والقرى المجاورة"، وناشد الجميع "التـــروّي والتحلّـــي بالحكمة في هذه الظروف الدقيقة التي تمرّ بها البلاد".

كان من الطبيعي أن يُصدر الحزب بيانًا كهذا، خصوصًا بعدما وجد نفسه في قفص الاتّهام. كذلك توقّع العقلاء فيه ألاّ يمضي الأمر على خير. فالأستاذ الذي خُطف ناشط حزبيّ معروف وابن عائلـــة كبيرة. فإذا لم يتحرّك الحزب لردّ الاعتبار إليه، فإنّ عائلته ســـتنتقم ولن تنام على الضيم.

كان الصباحُ صباحًا أسود. وكانت وجوه الأهالي قلقة كأنّهـــا تتهيّأ لغدٍ لا يدري أحدٌ ماذا يخبّىء للضيعة.

وكنتُ أنا أكثرهم قلقًا. فلا أحدَ منهم، ما عدا البحّار، عـــرف ما جرى لي.

مكتبة الفكر الجديد

3

ضائعًا كنت لا أعرف ماذا أفعل.

عند الظهيرة، اتّجهتُ إلى الطريق المشرفة على البـورة لعلّـي أكتشف شيئًا يدلّني على أنّ الأستاذ نجا، ورجع سالمًا إلى أهله.

كان المكان هادئًا. جرّار زراعيّ يقف على جانـب الطريـق المحاذي للبورة، والسائق يلتفت بين الحين والآخر إلى الوراء التفـات مَن ينتظر أحدًا. وصيّادان متّجهان إلى السهل وكلب يعدو أمامهمـا ووراءهما كأنّه لم يحظَ بنـزهة منذ بضعة أيّام.

تخيّلتُ الكلب يقصد البورة بعد أن يشتمّ رائحة غير اعتيادية، ثم يقف في محلّ معيّن، فيدور حوله رافضًا أمر الصيّاد باللحاق بـه. أو يروح يعوي عواءً يريد منه الإيحاء لصاحبه أنّه عثر على شـيء مـا، ويدعوه إلى الاطّلاع عليه. فيلبّي الصيّاد ورفيقـه دعـوة الكلـب فيجدان جثّة. وتكون الجثة جثّة الأسـتاذ. أتخيّلـهما مـذهولَيْن ثم راكضَيْن إلى إعلام المخفر بعد أن يرميا الصوت على المـارّة وعلـى البيوت القريبة.

وتهدر الأفكار في رأسي.

لم أهدأ إلاّ حين اجتاز الكلب البورة مكتفيًـا بتشـمّم الأرض والجري خلف الصيادَيْن.

مكتبة الفكر الجديد

وأستنتجُ أنّ لا ميت في البورة. فلو كانت هنالك جثّة لجذبت رائحتُها الكلب. فالجثّة بدأت بالتحلّل بعد مضي نحو اثنتي عشرة ساعة. وهي منذ قرابة سبع ساعات تحت أشعّة شمس الخريف. وهذا يسرّع التحلّل فتخرج من البدن إفرازات ذات رائحة غير محتملة.

هذا الاستنتاج أفرحني. وما أكد صحّته هو الخبرُ الذي أشيع في المساء، وهزّ الضيعة. مجهولون خطفوا ابن رئيس البلدية من بيته، وشقيق بو مسنّ من المزرعة حيث يعمل حارسًا.

بمقدار ما أفرحني أن الأستاذ حيّ بالمقدار نفسه أحزنني الخبر.

تُرى متى غادر البورة؟

سهرتُ أمس حتّى منتصف الليل، مراقبًا كلّ حركة في البورة ومحيطها، ولم ألاحظ شيئًا. ربّما زحف مسافة طويلة حتّى وصل إلى طريق فرعية تفضي إلى الطريق العام نفسه الذي أطوف فيه أنا الآن، لكنّ المنعطف الموصل إلى السهل يحول دون رؤية الطريق على امتداده.

افتراضًا، وصل إلى الطريق، فما من سائق سيجرؤ على التوقّف لرجل جريح، ثيابه مُشبعة بالدماء.

محتمل أن ينتصب الأستاذ في وسط الطريق مجبرًا السيّارة العابرة على التوقّف. لكنّ ذلك خَطِر جدًّا. فالطريق غير مُضاءة، والعتمة كثيفة، ونور السيّارة قد لا يرصده من بُعد، فتصدمه.

ومحتمل أن يكون قد ذهب مشيًا إلى بيته في الضيعة المجاورة. وهي تبعد سبعة كيلومترات لا غير.

وإمّا ذهب إلى المستشفى الذي يبعد نحو خمسة كيلومترات. فحاله تستدعي العلاج والعناية الطبيّة.

مكتبة الفكر الجديد

المرجّح أنّه لم يقصد البيت بل المستشفى. فإنْ راح إلى البيت فلا بدّ من نقله إلى المستشفى.

وهو يعرف ذلك.

لذا يقصد المستشفى مشيًا أو بالسيّارة، يدخل الطوارىء، تُجرى له الإسعافات الأوليّة، يطلب أن يتّصلوا تلفونيًّا بزوجته أو بأحد إخوته، فإن تعذّر ذلك تمنّى على الممرّض أن يبلغ زوجته أو أخاه بعد أن يزوّده عنوان المنزل.

دبّ الخوف فيّ. فالرجل على ما يبدو يعرفني شخصيًّا. ولأفترض أنّه لا يعرفني فهو رآني. رأى وجهي ورأى الثياب التي أرتديها ورأى الجفت والطيور المدلاّة على فخذي. وهذه أدلّة قد يُستفاد منها لدى التفتيش عليّ.

أجزم أنّهم يبحثون عني.

لا بدّ أنّه أعطاهم اسمي إذا كان حقًّا يعرفني، أو أوصافي إذا كان لا يعرف اسمي.

أمشي وألتفت في غير اتّجاه ويتملّكني شعور كمن ينتظر انقضاض بضعة أشخاص عليه وضربه ثم وضعه في صندوق السيّارة وخطفه إلى مكان مجهول. تمامًا مثلما حدث مع الأستاذ.

اللعنة على الصيد.

لو لم أذهب إلى السهل لما كنت الآن مضطربًا وتعسًا.

فخطف رجلين لا علاقة لهما مباشرة بما حدث، ينمّ عن نيّة تصعيديّة. ولا أعلم أيّة نهاية تنتظرهما.

هذه الليلة، لن أنام في البيت، ولا في بيت جدّي، ولا في بيت أحد من أقربائي.

مكتبة الفكر الجديد

قد يكون بيتنا مراقبًا، وهو ليس آمنًا لوقوعه على طرف الضيعة. فمن السهل اقتيادي منه.

يجب أن أخبر أبي.

عندما عدت أمس وجدته نائمًا فلم أشأ إزعاجه. وعندما أفقت اليوم كان قد خرج.

تفاديت إخبار أمّي كي لا توبّخني: "كم مرّة قلتلك، الله يسترنا من مشاوير الصيد هالايام".

اتّجهتُ إلى الساحة. بعض الشباب على السطوح، ووراء النوافذ بأسلحتهم غير المرئية.

كلّما عبرتْ سيّارة شعرت بأنّ قلبي على وشك الخروج من صدري. أسمع دقّاته كأنّه ترك مكانه وأقام قرب أذنيَ.

المقهى شبه خال في المساء على غير عادته.

كنت أتوقّع أن أجد أبي هناك.

صاحب المقهى الذي كان مسندًا كتفه إلى الباب وهو يدخّن سيجارة، قال لي حالما رآني إنّ أبي يبحث عني، وإنّه كان هنا قبل قليل. وتوقّع أن يكون ذهب إلى البيت.

تردّدتُ في الذهاب إلى البيت. قلت لأحد الفتيان المتجمّعين في محلّ الفليبيرز أن يذهب ويعلم أبي أنّي أنتظره في المقهى.

جاء أبي مسرعًا. أخبرته بكلّ شيء. ارتأى هو أيضًا ألاّ أنام في البيت. قال إنّ الأستاذ الذي خُطف هو زميله في التعليم، لم يمضِ على نقله إلى مدرسة الضيعة سوى قرابة الشهر. وقال إنّه تعرّف به، وقد أراه، كعادته مع أصحابه، صورًا لي.

مكتبة الفكر الجديد

وروى أنّه ذات يوم كان واقفًا وإيّاه يتحادثان على إحدى شرفات المدرسة المطلّة على السّاحة. وصودف مروري بالمكان فدلّه عليّ.

أعرف العبارة التي أتبعت إشارته إليّ "هادا ابني. شـــايف شـــو بيشبهني". هي العبارة نفسها التي يردّدها في غيابـــي عندما يتحدّث عني، وعلى مسمعي، متى شاء أنّ يقدّمني إلى أحدهم.

الآن تأكّد لي أنّ الأستاذ يعرفني، وهو طبعًا أعطى من يعنـــيهم الأمر اسمي وعدّد لهم أوصافي. فأنا في نظره أحد المشاركين في خطفه وضربه، وإنْ لم أكن كذلك، وهذا احتمال ضعيف بناء على ردّ فعله في المكبّ، فقد أكون رأس الخيط الذي سيقود جماعته إلى معرفة بقية أفراد العصابة، فإلى اكتشاف الرأس المدبّر. وإذا كنتُ بريئًا، فلربّمـــا رأيت الجناة أو رأيت السيّارة التي استقلّوها.

هكذا سيظنّون.

ولن يصدّقوني إن قلت لهم لم أرَ لا الخـــاطفين ولا ســـيّارتهم. سيعدّونني متواطئًا وكاذبًا لن يشي بأولاد ضيعته.

عندئذ قد يخطفونني. ويضربونني. ولـــن يخلـــوا ســـبيلي إن لم أعترف بكل ما أعرفه.

ليت البحّار لم يخبرني. لو لم يفعل لبقيت متصالحًا مع نفســـي. المعلومات التي في حوزتي جعلتني شريكًا. وقد أفصح عنها، في لحظة ضعف، تحت التعذيب.

لعلّهم يراقبونني.

لكنّهم لن يجرأوا على خطفي من مكان عام ما داموا قـــادرين عليه في أمكنة أخرى، في الطريق إلى منـــزلي وهو غالبًا معتم، وليس ثمّة مكان أفضل منه لتنفيذ عمليّة كهذه.

مكتبة الفكر الجديد

من يدري قد يكونون متربّصين بـــي هناك في هذه الأثناء.

اقترح أبـــي أن أبيت في المدرسة. فالصفوف مفتوحة الأبواب. ومن السهل أن أتسلّل من كوّة غرفة الزبالة إلى الملعب، فإلى أحـــد الصفوف. ولطالما اتّبعتُ هذه الطريقة عندما كنتُ تلميذًا فيها، لكن على نحو معكوس، إذ كنت أهرب من المدرسة عبر تلـــك الغرفـــة وأذهب إلى الصيد. أو إلى السباحة في البركة الموحلة في أحد أطراف القرية.

قال أبـــي إنّ غرفة الزبالة تُفرغ عند الغروب، فيُتيح لي ذلـــك دخولاً هيّنًا من دون أن تتسخ ثيابـــي.

وقال إنّه سيجد وسيلة آمنة يستطيع بها تزويدي بعض الطعـــام وبطانيّة.

وبكلمات قطعتها الغصّة المكتومة قال لي همسًا، مع أنّ لا أحد يسمعنا، إنّ بقائي في الضيعة بات خطرًا عليّ، وإنّ مغادرتي ضروريّة ريثما تهدأ الخواطر.

في المساء، تسلّلتُ إلى المدرسة، وأمضـــيت الليـــل صـــاحيًا في الصفّ الذي يشرف على السّاحة، وعلى قسم من الطريق المفضي إلى حيّ الزعرور.

لم يتمكّن أبـــي من جلب الطعام والبطانية.

ربّما لاحظ أنّه مُراقب فخشي أن يقـــودهم إليّ، وفضّـــل ألاّ يجازف.

ألصقت أربع طاولات بعضها ببعض حتّى غدت أشبه بســـرير، ثم صففتها قرب الحائط.

لكنّي لم أستطع أن أغفو.

مكتبة الفكر الجديد

فالخوف وحده يطرد النوم فكيف إذا تحالف هو والجوع والبرد.

أوشكت عيناي التعبتان أن تغمضا عندما هـدرت محركـات الأوتوكارات التي تستعدّ لجولتها الصباحيّة في القرى المجاورة ونقـل التلاميذ منها إلى المدرسة. وحالما غادرتُ وجدتني أتدلّى من نافـذة الصفّ، وهو في الطبقة الأولى، وأقفز إلى الطريق، فتخونني ركبتـاي فأقع على مرفقيّ. فعلت ذلك لأنّ خروجي من حيث تسلّلتُ لـيلاً ليس مضمونًا، إذ عليّ أن أقطع قسمًا من الملعب كي أصل إلى غرفة الزبالة، ومن الممكن أن يراني أحد المسؤولين، أو الناظر الذي يـأتي باكرًا ليمارس رياضة المشي في الملعب.

كانت القرية تتثاءب في هذا الصباح البارد. كأنّها هي أيضًا لم تنم. فخطفُ اثنين من أبنائها ليس حادثًا عاديًا. ويبدو أنّ المسـاعي التي بذلها رئيس البلدية للافراج عن ابنه وعن شقيق بو مسنّ لم تثمر.

الجرّارات الزراعيّة وحدها تصفع السكينة السائدة.

لم أصدّق أنّي وصلتُ إلى البيت.

لم أكد أبلغ العتبة حتّى فتحت أمّي الباب. كأنّها تنتظـرني، أو كأنّ قلبها أنبأها بعودتي. غمرتني وبكت. كان أبـي جالسًا قـرب الصوبيا. قال إنّه لم يستطع أخذ الطعام والبطانيّة إليّ لشعوره أنّه كان مُراقبًا. خشي أن يدلّهم على المكان الذي أبيت فيه إذا جلـب مـا وعدني به. صحّ ما توقّعته. لن يجرأوا على الإتيان بأي عمل مريـب داخل الضيعة لأنّهم يعرفون أن الحراسة تدوم طوال الليل.

فيما كنتُ أتروّق بعد ليلة لم يدخل إلى فمي خلالها سوى الماء الذي شربته من حنفيات المدرسة، وأبـي يحمّص الخبز ويغمّسـه في صحن اللبنة، وأمّي تنظر إليّ والقلق في عينيها، طرق أحدهم علـى

مكتبة الفكر الجديد

الباب. فتحتُ. كان جارنا الوحيد، وفي فمه خبرٌ عكّر صباحنا. قال إنّهم قتلوا ابن رئيس البلدية ورموا جثّته على طريق السهل، وإن مصير المخطوف الآخر لم يزل مجهولاً.

ارتدى أبي ثيابه. وقال لي يجب أن تغادر اليوم.

هيّأتْ لي أمّي بعض الثياب والحاجات ووضعتها في كيس. لم يكن لدينا حقيبة، إذ لا أحد منّا سبق أن غادر القرية.

صحبني أبي إلى المدينة المجاورة، وتمنّى على صديق له من أيّام دار المعلّمين، استضافتي في بيته بضعة أيّام بعدما أخبره بالسبب.

رحّب بي الصديقُ الذي بدا متعاطفًا.

شرب أبي فنجان قهوته سريعًا. ثم عانقني وودّعني ومشى.

بقيتُ واقفًا على الشرفة متأمّلاً سيره المنكسر.

وقبل أن يتوارى في المنعطف، استدار، رفع يده ثم كوّر أصابعه، وهزّ قبضته وغاب.

مكتبة الفكر الجديد

4

هذه أول مرّة أنام على سرير غير سريري.

نمتُ وابن صديق والدي في الغرفة نفسها.

أفكار قاتمة راودتني.

خفتُ أن يأذوا أبــي إن لم يجدوني. تخيّلــتُ أنّهــم خطفــوه وهدّدوا بقتله إذا لم أسلّم نفسي. عمره يشفع به. كما أنّــه مســالم وعلاقاته طيّبة مع الجميع. وصداقاته في القرى المجاورة معروفة. ولطالما ذهب إليها بغية تقديم واجب العزاء أو التهنئة. صحيح أنّه ملتزم حزبيًّا، ويجهر بآرائه السياسية، لكنّه، ضدّ العنف. في بدء الحرب، اشترى من المختار رشّاشًا بالتقسيط بعد انتشار خبر يفيد أنّ هجومًا سيُشنّ علــى ضعيتنا. ثم ندم، وقال إنّه لا يحبّ السلاح في البيــت، وإنّــه، هــو المحسوب على الفئة التي تعدّ نفسها مثقّفة، يؤمن بالحوار لا بالرصاص. دفن الرشّاش في التراب خلف البيت بعدما رفض المختار استرجاعه مع أنّ أبــي سامحه بالقسط الأول الذي دفعه لدى شرائه. وبمرور الوقت، اكتشف أنّ خبر الهجوم شائعة روّج لها رئيس البلديّة والمختــار كــي يستطيعا بيع أسلحة اشترياها من أحد نوّاب المنطقة.

لم أغفُ إلاّ فجرًا. كثيرًا ما استرجعتُ مشهد الرجل المغطّــى وجهه بالدم، والهاجم عليّ، وصوته الذي لم يفارقني.

مكتبة الفكر الجديد

كنت مرهقًا.

ليلتان مضتا. لم أنم فيهما سوى دقائق مسروقة.

لدى تناول الفطور، لاحظ مضيفي وزوجته وابنتاهما وابنهما مدى الإرهاق الذي خلّفته فيّ قلّة النوم، مع أنّي حاولت إخفاءه.

حين ذهب الزوج إلى العمل، والابنتان والابن إلى المدرسة، ذهبت أنا أيضًا.

ليس مستحبًّا أن أبقى ولا أحد في البيت سوى الزوجة.

ادّعيتُ أنّي سأزور صديقًا يقيم في أحد أحياء المدينة.

أمضيتُ النهار في السوق.

كنت أقصد الحديقة العامّة عندما أتعب من المشي. أستريح قليلاً تحت شجرة الصفصاف. أستلّ صحيفة وجدتها قرب برميل الزبالة من جيب سترتي، وأتصفّحها كي أتسلّى. لم تكن جريدة اليوم. أقرأ عن الاشتباكات على خطوط التماسّ التي قسمت العاصمة شرقيّة وغربيّة. الأولى ذات غالبيّة مسيحيّة. والثانية ذات غالبيّة مسلمة.

طوال عمري البالغ عشرين عامًا لم أزر بيروت. لكنّي سمعت ببعض أسماء شوارعها في نشرات الأخبار. حفظتها لفرط تكرارها على ألسنة الناس، وفي الراديو والتلفزيون. كنت أشعر أنّي بتّ أعرفها مع أنّي لم أمرّ بها. أحيانًا تمنّيت لو أنّي ولدت فيها وليس في الضيعة. ما يجذبني إليها هو البحر.

صُور المقاتلين المنشورة في الجريدة، تلفتني. أتأمّلها. أنظر إليها بعينَيْ البحّار المولّع بالسّلاح، فأراه بينهم يحمل الكلاشينكوف أو الـ "أم سكستين"، رابطًا مثلهم عُصابة سوداء على جبينه، ومتّخذًا وضعًا قتاليًّا من أجل الصورة.

مكتبة الفكر الجديد

مرّات، أتخيّلني أنا أيضًا بينهم، ولكن سرعان ما أنسحب من المشهد مفضّلاً التفرّج على السلاح لا حمله.

منذ البدء قرّرت أن أكون متفرّجًا.

في الضيعة، لم أشارك في التدريب على استعمال السلاح، وغالبًا جرى سرًّا في البيوت، وفي مزرعة دجاج مهجورة في السهل.

كذلك رفضتُ الحراسة. قلت لهم أحرس لكن بلا بندقية. سخروا منّي. ولو لم يكن أبي مُعلّم معظمهم في المدرسة لنبذوني.

ثم أنا وحيد. وقد أُعفيت من خدمة الاحتياط في الجيش. رفاقي في الثانويّة ذهبوا كلّهم إلى الخدمة ما عداني.

في مثل هذا الوقت، الثانية عشرة ما بعد الظهر، يُدفن ابن رئيس البلدية في مأتم مهيب تشارك فيه القرية على بكرة أبيها.

عودتي إلى القرية مستحيلة. والبقاء ضيفًا لدى صديق أبي مستحيل أيضًا.

لم أعتد ما أنا فيه.

أرغب في الذهاب إلى بيروت حيث لا يعرفني أحدٌ، ولا أعرف أحدًا. أدبّر شؤوني هناك بالتي هي أحسن.

مجازفة؟ فلتكن.

في الأقل، أكون مسؤولاً عن نفسي فلا أضطرّ إلى طلب الإذن من والدي، أو من صديقه، لدى كلّ خطوة أنوي القيام بها.

ماذا سأفعل هنا في هذه المدينة الصغيرة؟

لا شيء سوى انتظار انفراج الوضع في الضيعة.

وإذا بقي الوضع على حاله، أو ازداد توتّرًا، والاحتمال الثاني هو المرجّح، فما مصيري؟

مكتبة الفكر الجديد

في بيروت، أبحث عن عمل. أيّ عمل.

أعلم أنّ الأمر لن يكون سهلاً. لكنّه أفضل من البقاء هنا. أنام. آكل. أمشي في الشوارع وأستريح في الحديقة. والأصعب شعوري بأنّي ضيف، والضيف بعد ثلاثة أيام، تفوح رائحته. هكذا كان يقول أبي كلّما أطال خالي مكوثه عندنا.

المبلغ الصغير الذي لديّ يكفي بضعة آيام إذا بالغتُ في الاقتصاد.

ثم الله هو المدبّر. إنّه لا يترك محتاجًا.

كتبتُ رسالة لأبي شارحًا أسباب قراري، أودعتها صديقه الذي حاول ثنيي عن الرحيل. ولّما وجدني مصرًّا دعا لي بالتوفيق. على العتبة، جرّب أن يضع بعض المال في جيب قميصي، رفضتُ مدّعيًا أنّي لستُ في حاجة إليه.

ثم شكرتُ له ولأفراد أسرته حسن الضيافة.

وغادرتُ.

مكتبة الفكر الجديد

5

في موقف سيّارات التاكسي العاملة على خطّ بيروت، كانت سيّارة المرسيدس البيضاء تنتظر شخصًا كي يكتمل عدد الركّاب.
حين علم السائق أنّي هو هذا الراكب، أسرع إليّ، أخذ الكيس مني، وضعه على ظهر السيّارة، فوق فرشة اسفنج وحقائب وأغراض أخرى.

صعدتُ إلى المقعد الخلفيّ. وانطلقت السيّارة.

كنا خمسة ركّاب قبل أن ينحرف السائق إلى شارع متفرّع من الطريق العام. ويعتذر قائلاً إنّ هنالك راكبَيْن ينتظرانه.

احتجّ راكب: "وين بدك تحطّن".

وتبعته أنا: "كنتْ قول قبل هلّق".

لكنّ السائق لم يبالِ: "ما بتْوَفّي معي أمشي بخمس ركّاب. مبارح نطرت ساعتين حتّى حصلت ع تنكة بنـزين. والتنكة بعشرة آلاف".

جلس الراكب الأوّل في المقعد الخلفيّ ورفيقه في المقعد الأماميّ بعدما ساعدا السائق على رصف ما يحملانه في ظهر السيّارة.

الأوتوستراد شبه خالٍ عند الغروب.

ثمّة رتل من الشاحنات السوريّة خلّف وراءه سحبًا من الدّخان الأسود. كانت الشاحنة الأخيرة تقطر بوسطة ملأى بصور الممثلاّت

مكتبة الفكر الجديد

المصريّات بالإضافة إلى صورة كبيرة لحافظ الأسد في مقدّم البوسطة.

لم يجرؤ السائق على تجاوز الرتل مع أن الطريق المعاكسة مفتوحة. خفتُ أن تفلت البوسطة فتصطدم بالسيّارة التي أنا فيها، وتدفعها فتسقطا معًا في المنحدر العميق. إذّاك لن يبقى أحدٌ منّا ليخبّر بما جرى. وكنت قرأتُ في الجريدة أن بوسطة سوريّة أفلتت من الشاحنة التي كانت تقطرها على طريق ضهر البيدر-المديرج فاصطدمت بسيّارة صاعدة فعلكتها علكًا. وأسفر الحادث عن مقتل رجل وزوجته كانا عائدين إلى بيروت بعد مشاركتهما في مأتم أحد الأقارب. عزّى المسكينان وفي اليوم التالي كان أهلهما يتقبّلون التعازي بهما.

لم أصدّق أن الرتل بات وراءنا.

كان السائق يدخّن وينفض سيجارته إلى خارج النافذة فيحمل الهواء بعضًا من رمادها إلى الداخل. لفته الراكب الجالس قربي إلى ذلك. فاعتذر، لكنه بدا منزعجًا من الملاحظة. قال إنّه سمع في الأخبار أنّ الاشتباكات تجدّدت في بيروت. وراح يسأل كلاً منا عن المكان الذي سينزل فيه. وهو طوال الطريق لم يسكت. قال إنّه كان عسكريًا. وإنّه بعد التقاعد اشترى نمرة حمراء وهذه السيّارة كي يشتغل، فهو ما زال قادرًا على العمل. وحين يعجز يستريح. وقال إنّ تحمّل متاعب الشغل أفضل من بقاء الرجل في البيت.

كانت لحظة سوداء عندما طلبتُ إليه أن يرفع صوت الراديو كي نستمع إلى نشرة الأخبار. فما إن عدّد المذيع المناطق التي تدكّها المدافع، حتّى طلب الراكب القاعد أمامي تغيير المحطّة بعدما اتّهم

مكتبة الفكر الجديد

الحزب الذي يقف وراءها بالكذب والعمالة. فهبّ الراكب القاعد خلف السائق إلى الردّ، مصرًّا على عدم تبديل المحطّة. وكادا يتلاسنان لو لم أتدخّل أنا والآخرون لوضع حدّ للجدال الذي أوشك أن يتحوّل عراكًا بالأيدي في داخل السيّارة. ولإرضاء الطرفين، وضع السائق شريطًا زجليًّا. مباراة بين جوقة زغلول الدامور وجوقة خليل روكز جرت قبل نحو سبع سنوات، عام 1971 في قلعة بيت مري. كان التحدّي جذّابًا. استرعى انتباه جميع الركّاب، بدليل أنّهم التزموا الصمت. حتّى السائق ما فتح فمه إلاّ ليسبق الزجّال إلى آخر كلمة من البيت. يظهر أنّه يجيد قول الزجل. فبعدما انتهى الشريط، راح يرتجل أبياتًا ويؤدّيها ملحّنة. كلّما شاهد شيئًا علّق عليه بقرّاديّة. أخبرنا أنّه نشر قصائد عدّة في مجلّة "الجندي" التي كانت تصدر عن المؤسسة العسكريّة. وقال إنّه متأثّر بخليل روكز الذي مات باكراً، ويعدّه أبا الزجّالين وأهمهم. وحكى أنّه حضر مباراة له وحنّا موسى في المتين عام 1959، وفي خاتمتها صعد سعيد عقل إلى المنبر وقبّل روكز وهنّأه.

كنتُ أستمع إلى كلام السائق، وأنتظر تعليقاته الزجليّة اللمّاحة. بدا طريفًا. الناس مخبّأة في ثيابها. في السائق زجّال. قد يكون في الجالس قربي قاتلٌ، وفي جاره عازفُ عود، وفي الرابع مهرّب. وفي الخامس داعية من شهود يهوه. وفي السادس لاعب بوكر. وفي السابع قوّاد.

سكتنا كلّنا عندما دنونا من الحاجز السوريّ. الجنديّ الذي يقف داخل كابين من التنك، تحوطه أكياس الرمل، أومأ إلى السائق أن يوقف السيّارة إلى جانب الطريق حيث يربض ثلاثة من رفاقه.

مكتبة الفكر الجديد

امتثل السائق وهو يقول "الله يستر". طلب أحد الجنود منه فتح الصندوق، فأطاع. أمرنا الثاني بالنزول من السيّارة فنزلنا. فتّش هو ورفيقه الثالث المقاعد، تحتها، رفعاها، أعاداهـا إلى مكانهـا. ثم برأس الرشاش راح يتفقّد الأغراض على سطح السيّارة. وبعد التفتيش الدقيق، طلب الجندي الرابع رؤية هويّاتنا. فرفع كلّ منّا هويّته وأدناها إليه. طرح علينا الأسئلة نفسها التي تتكرّر في الحواجز: شو بتشتغل؟ من وين جايي؟ لوين رايح؟

"راحت علي" قلتُ في نفسي لّما أخذ الجندي هويّتي وحدها، وذهب إلى المقرّ القريب من الحاجز.

لعلّ أحدهم توقّع هروبي فعمّم اسمي على الحواجز.

أو لعلّ مخبرًا كتب تقريرًا ملفّقًا للإيقاع بي انتقامًا من أبي.

صعد الركاب إلى السيّارة وبقيتُ واقفًا في انتظار عودة الجنديّ.

إذا عاد والهوية ليست في يده فهذا مؤشر شؤم. قد يستبقيني ويستدعيني إلى المقرّ. لكن بأيّ تهمة؟ فأنا غير مكترث للسياسة. ولا فرق عندي من يتولّى الحكم، هؤلاء أو أولئك. ففي الحالتين، لن يتغيّر شيء عليّ. صحيح أنّي أوّل مرّة، أغترب. لكنّني أؤمن بأنّ العالم كلّه بلادي. وكثيرًا ما ردّدت قول الإمام عليّ، الذي يستشهد أبي به دومًا: "الفقر في الوطن غربة. والغنى في الغربة وطن".

تأخّر الجندي، وراح الركّاب يتذمّرون. يتمنّون أن ينتهي الأمر سلبًا أم إيجابًا كي يذهب كلٌ منهم في حال سبيله. فالعتمة أوشكت أن تحلّ. ومن المستحسن الوصول إلى المدينة قبل الليل.

الجالسون في المقعد الخلفي يتمنّون أن يُقبض عليّ ليكملوا الرحلة مستريحين. هذا ما قرأته في عيونهم عندما رأيتهم ينظرون إليّ

مكتبة الفكر الجديد

معاتبين. لكنّهم لن يهنأوا إذا شاء حظّي العاثر أن أُعتَقل. فالراكب الثالث الذي يجلس في المقعد الأماميّ سيقعد مكاني متيحًا للسائق فسحة ضرورية له كي يتحكّم جيّدًا في المقود.

اعتقالي يفيد الذين في المقعد الأماميّ لا الذين في المقعد الخلفيّ.

أنظرُ إلى الباب الذي دخل العسكري منه. كلّما عكس ضوء الغرفة ظلاً اضطربتُ. كنت أظنّ أنّ الجنديّ هو صاحب الظلّ وقد أنجز المهمّة ورجع.

تأخّره طمأنني. فلو وجد شيئًا ضدّي لعاد سريعًا. ربّما يحادث أحد زملائه. أو يقضي حاجته أو يشرب فنجانًا من الشاي. استفاد من أخذ الهويّة ليقوم بما لا يستطيع أن يقوم به وهو على الحاجز. البحث عن اسم شخص مطلوب لا يحتاج إلى هذا الوقت كله.

كان ظنّي في محلّه.

عندما أطلّ، وقد سبقه ظلّه، لمحتُ الهويّة في يده. استرحتُ. سلّمها إليّ وأمر السائق بالذهاب.

صعدتُ إلى السيّارة واعتذرتُ إلى الركّاب.

حالما ابتعدنا، قال السائق: "لو عطينا واحد منن علبة دخان ما وقّفونا كل هالوقت". وسرعان ما تراجع عمّا تفوّه به لربّما أحدٌ من الركّاب بعثي، أو ينتمي إلى حزب متحالف مع الجيش السوريّ. قال وهو يشعل سيجارته: "أقلّ شي منعملوا، نضيّفن. الجماعة عم يحرسونا. لولا منن الله بيعرف شو صار فينا".

لم يردّ أحد. كأنّ الشكّ الذي راود السائق وجعله يغيّر وجهة كلامه، هو نفسه كمّم أفواه الآخرين.

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ أفكّر في المكان الذي سأنزل فيه. فأنا لا أعرف من بيروت سوى أسماء المناطق المتداولة في نشرات الأخبار: الشيّاح، عين الرمانة، الأشرفية، طريق الشام، المتحف، السوديكو، هوليداي إن، جسر فؤاد شهاب، الصيفي...

تردّدتُ في فتح حديث مع الجالس إلى جانبي تمهيدًا لسؤاله أين سينزل هو. فربّما أنزلُ في المحلّة نفسها. خشيتُ أن يطرح عليّ أسئلة قد لا أجد أجوبة عنها. فضّلتُ السكوت وترك الأمور تجري على هواها. وخشيتُ أيضًا أن يعلم أنّي أزور بيروت للمرّة الأولى، وأن لا أقرباء لي ولا أصدقاء، ولا بيت. لستُ مجبرًا على إخباره بقصّة حياتي كي أعلّل سبب مجيئي إلى العاصمة. ربّما سيقول لي إذ ذاك تمامًا مثلما قال صديق أبي عندما أطلعته على قراري: "الناس عم تهرب من بيروت، وانت رايح عليها".

مَن يعرف أن الخوف وراء مغادرتي الضيعة يقدّر موقفي.

ومَن يعرف رفضي الإقامة في بيوت الناس لشعوري أنّي أثقل عليهم، سيؤيّد أيضًا القرار الذي اتخذته لدى مغادرتي بيت صديق أبي.

لو لم أذهب إلى الصيد في ذلك اليوم المشؤوم، لما كنتُ الآن محشورًا في سيّارة لا يُسمع في هذا المساء، سوى هدير محرّكها المرهق.

لا أجهل ما ينتظرني. تهيّأت نفسيًا لكل شيء. كان مستحسنًا أن آتي في النهار.

غريبٌ يجيء ليلاً إلى مدينة لم يسبق أن داس ترابها، مغامرةٌ لا تخلو من بعض المجازفة، خصوصًا أنّ الوضع الأمني ليس مطمئنًا.

مكتبة الفكر الجديد

لكنّ الندم غير مفيد. والتراجع مستبعد.

توقّفت السيّارة. ترجّل السائق متيحًا للراكب القاعد جواره النزول. رأيتُ الراكب يجتاز الطريق وهو يحمل نصف عفش بيته على ظهره. يبدو أنّه عامل بناء، ينام في الورشة حيث يشتغل. حسدته أنا الذي لا شيء يغريه مع أنّه لا يملك شيئًا. حسدته لأنّه يعرف إلى أين يذهب، ولأنّ هنالك مكانًا يؤويه.

خطرت في بالي قصيدة لميخائيل نعيمة ما زلتُ أحفظ مطلعها من أيّام المرحلة الابتدائيّة: "سقف بيتي حديد/ ركن بيتي حجر. فاعصفي يا رياح/ وانتحب يا شجر".

الآن، وأنا على مشارف المدينة، فهمت مغزى هذه القصيدة. بل أكاد اسمع صفير الريح التي تهزّ الأغصان وتذكّرها بعريها. لا طمأنينة بدون بيت. فمن ليس لديه سقف يحميه، يبقى رهين الأرصفة ومداخل البنايات والأمكنة المهجورة.

بعد دقائق، نزل راكبان يجلسان لصق القاعد إلى جانبي، فابتسم هذا فرِحًا باتساع الفسحة بعد ضيق، وانتقل ناحية الباب. ولمّا وصل إلى المكان الذي يقصده، نزل. وفيما كان يأخذ أغراضه بمساعدة السائق هبط أحد الجالسين في المقعد الأماميّ وجلس في المقعد الخلفيّ.

بتنا ثلاثة ركّاب.

على مستديرة ترابط في وسطها دبّابة للجيش، ترجّل راكبان فبقيت وحدي. انتقلت إلى قرب السائق من باب اللياقة لئلاّ أبدو، في حال بقائي بالمقعد الخلفيّ، مستأجرًا السيّارة "تاكسي".

تصرّفي هذا أثّر في السائق. مدّ يده معرّفًا بنفسه:

مكتبة الفكر الجديد

- بو وليد.

فصافحته:

- عابر ليطاني.

ثم ضيّفني سيجارة فأخذتها شاكرًا.

لا أدري كيف عرف أنّي إمّا أضعت الطريق الذي يأخذني إلى حيث أريد الذهاب، وإمّا ليس من مكان معيّن أقصده.

الذين هم مثله، يقوى لديهم الحدس وحسّ الفراسة لكثرة ما يلتقون أجناسًا من الناس.

لم أخفِ عنه. لعلّه يساعدني أو يرشدني إلى مكان أنام فيه.

نظر إليّ ثم غاص في تفكيره، وبادرني: "شو بقدر ساعدك؟".

أجبت: "دلّني ع محل نام فيه هالليلي. والصباح رباح".

أخبرني بأنّه هو أيضًا لا بيت له هنا، وبأنّه ينام في منزل ابنته المتزوّجة، وهي تسكن في محلّة لا تبعد كثيرًا عن خطوط التماسّ. قال إنّه ينام عندها كلّما نقل ركابًا في الليل. وفي الصباح، يتّجه إلى موقف التاكسيّات، ينتظر دوره، وحين يكتمل عدد الركّاب، ينطلق إلى الجبل. وقد يعود في اليوم عينه إذا ما يسّرها الله بركّاب آتين إلى بيروت.

أبدى تعاطفًا واضحًا بعدما رأى فيّ ابن حلال. "من وجوهن بتعرفوهن" قال، واقترح أن أنام في السيّارة: "ما في غير هالحلّ. معي بالصندوق بطانيّة إعاشي دبّر حالك فيها".

رحّبتُ بالاقتراح. المهمّ أن يكون فوق رأسي سقف. لا فرق، في هذا الليل، بين سقف من الحديد وسقف من الباطون.

أوقفَ بو وليد السيّارة في الشارع الموازي للشارع حيث بيت ابنته. جلب البطانيّة ووضعها في المقعد الخلفي. ترجّلتُ كي أنزل

مكتبة الفكر الجديد

الكيس عن ظهر السيّارة، فوجدته ممزّقًا، و لم يبقَ فيه سوى بنطلون الجينز، ومشّاية كاوتشوك، وحزام جلد أسود ورواية "كلب الموت" لأغاثا كريستي.

رآني مرتبكًا وأنا أنظر إلى الكيس وأتفقّد محتوياته. لكني سرعان ما تماسكت، وتجاهلت الموضوع. طويت الكيس ورميت به إلى داخل السيّارة. وطلبت إليه أن ينتظرني كي أشتري قنينة ماء وشيئًا أتعشّاه.

قال نذهب معًا إلى الدكّان الذي كان صاحبه يتهيّأ لإغلاقه. فذهبنا.

اشتريت قنينة ماء وربطة خبز وعلبة جبنة"بيكون" وعلبة لبنة قال البائع إنّها بلديّة مئة في المئة.

وعدنا. اتّجه هو إلى بيت ابنته. ورجعت أنا إلى السيّارة، وتعشّيت.

حزنتُ على ضياع الثياب التي وضّبتها أمّي في الكيس. لعلّ العسكري السوري الذي راح يفتّش الأمتعة، مزّق الكيس بفوّهة الرشّاش، وعلى الطريق تناثرت محتوياته من دون أن يلاحظ أحد ذلك.

برغم الهواء البارد، تمشّيت قليلاً. بقيت السيّارة في مجال نظري. هذه أولّ مرة أسير في شوارع مدينة لم يمرّ ببالي يومًا أن أقيم فيها. أتأمّل المباني التي غالبية شققها مطفأة مع أنّ الوقت قبل منتصف الليل بقليل.

هل ينام الناس هنا باكرًا كي يستفيقوا ويذهبوا إلى أعمالهم وهم في منتهى النشاط؟

مكتبة الفكر الجديد

رشق من الرصاص انطلق من مطرح ليس ببعيد، ثم تبعه رشق من الرصاص الخطّاط. وما هي إلا دقائق حتّى دوّت قذيفة آر بي جي. عرفت السبب الذي جعل هذه المنطقة شبه مهجورة. فالذين بقوا في بيوتهم إمّا هم متعلّقون بالبقاء فيها مفضّلين الموت في أسرّتهم، وإمّا ليس لديهم أمكنة آمنة ينتقلون إليها.

رحت أصلّي كي لا تكون هذه الطلقات مُقدّمة للاشتباكات، فأُحرم النوم الذي بدأ ارتخاء أجفاني وترنّح جسمي يمهّدان له.

تمدّدت على المقعد الخلفي بعدما ثنيت رجليّ ورفعت ركبتيّ نحو بطني. تغطّيت بالبطانية ونمت. تقلّبت كثيرًا. وأيقظني غير مرّة وقع المطر على سطح السيّارة. تكتكة الرذاذ أعذب موسيقى قد يسمعها المرء، لكن ليس عندما يكون تعبًا ويرى النوم سعادته الوحيدة. إذّاك تتحوّل إزعاجًا يفوق الإزعاج الذي يتسبب به طنين برغشة في أوّل الغفو.

أفقتُ. ومضيت أنتظر توقّف هطل المطر كي أعاود النوم. في إغفاءتي القصيرة، بصرتُ أبي يقود السيّارة، بدلاً من بو وليد، في طريق جبلية، والثلج على جانبيها، وأنا نائم في المقعد الخلفي.

رؤية البياض في الحلم جعلتني أتفاءل، وكذلك رؤية أبي سعيدًا يرندح أغنية عاطفية.

تُرى كيف ستكون ردّ فعله عندما يعرف أنّي تركت بيت صديقه وجئت إلى بيروت؟ سيقرأ الرسالة ويعلم السبب. ويقدّر موقفي.

فأنا لستُ ولدًا. أستطيع تدبّر أموري. حتّى هو طالما ردّد، لدى حديثه عني: "كيف ما رميتو بيجي واقف".

مكتبة الفكر الجديد

لن أخيّب ظنّه مع أنّ "الوقوف" في هذه المدينة الغريبة ليس سهلاً.

فلو كانت الأيام أيام سلام وأمن لهانت المتاعب.

في الحرب، كل حركة مجازفة.

من يضمن ألاّ يقتلك قنّاص وأنت تعبر الطريق؟

ومن يضمن ألاّ تقع قربك قذيفة، خلال هدنة، وأنت مطمئن إلى جوّ الهدوء، فتمزّقك أشلاء؟

ومن يضمن ألاّ تثقب رصاصة طائشة سقف السيّارة وتستقرّ في راسي؟

الأعمار مُلك صاحبها تعالى. ولا أحد يموت قبل ساعته. قولان أكرّرهما على غرار كثير من الناس. خصوصًا أولئك الذين يرفضون الحرب والقتل، لكنهم مرغمون على العيش في ظلالهما على قاعدة مُكرهٌ أخوك لا بطل.

كنت غافيًا عندما سمعت نقرًا على نافذة السيّارة، وصوت بو وليد: "صباح الخير. انشالله قدرتْ تنام".

لم يأتِ ويداه فارغتان. حسب حسابي بمنقوشة صعتر، وقليل من الشايّ في كباية بلاستيك.

أكلنا واقفَين قرب السيّارة. جدّدت شكري داعيًا له بدوام العافية وطول العمر.

وفيما كان يتفقّد محرّك السيّارة، ذكّرني بعنوان موقف التاكسيّات، الذي يأخذ منه الركّاب، ودعاني إلى أن أزوره متى شئت.

ودّعني وهو يقول: "انتبه لنفسك".

مكتبة الفكر الجديد

6

الليل عدو الغرباء.

اكتشفتُ ذلك منذ وطئت أرض هذه المدينة.

في النهار، تضجّ الشوارع بالحركة خصوصًا متى كان الوضع الأمني هادئًا. كأن ثمّة تواطؤًا بين المقاتلين على وقف إطلاق النار والقصف ريثما يُتاح للناس ممارسة حياتهم على نحو اعتيادي. لكن فترة ما بعد الظهر عرضة للاهتزاز أحيانًا.

في الليل، غالبًا، تفتح المدافع النار وتدكّ المناطق المأهولة، فينزل الذين يقيمون في الطبقات العليا إلى الملاجيء والطبقات السفلى الآمنة.

أحببتُ التجوّل في الشوارع.

عالم الأرصفة جذّاب ومسلٍّ. عالم مزيج من المتناقضات الصارخة.

بائع الساعات المقلّدة يهجم عليك مطوّقًا أصابعه بثلاث ساعات وينادي أن الساعة الواحدة بخمس ليرات والثلاث بعشرة. وعلى الجهة المقابلة، محلّ للساعات الأصلية يتأفف صاحبه من الفضوليّين والمساومين ويصرّ على السعر المدوّن على الساعات المعروضة في الواجهة.

مكتبة الفكر الجديد

وبائع العطور المغشوشة والمغلّفة بماركات مشـــهورة، يلـــحّ أن تبسط يدك ليرشّ عليها قليلاً من القارورة لعلك تخجل وتشتري. في حين أن صاحب محل العطور في الشارع المقابل مشغول بلفّ القوارير هدايا لبضعة منتظرين.

وباسط الكتب قرب صالون الحلاقة مستعدّ ليبيعك بنصف ليرة كتابًا مستعملاً من كتب جبران ونعيمة والريحـــاني. واذا اشـــتريت كتابين فهديتك محفوظة، كتاب من اختياره. عليـــك أن تقبلـــه وإلاّ خسرت الهدية. أمّا المكتبة المجاورة فإذا تكرّم مالكها، أو الموظّف، ردّ تحيّتك بمثلها.

وماسح الأحذية تراه لدى عبورك، يلعب بالفرشاة في حركات بهلوانيّة كي يبهرك بمهارته، فتمدّ قدمك إلى صندوقه ليمسح الحـــذاء ويجدّد شبابه. وقبالته محلّ للأحذية حجب واجهته مـــارّة يتـــأمّلون البضاعة الجديدة.

والعجوز المقطوعة يده من المرفق، يمدّ لك اليد السليمة لترمـــي فيها ما تجود به مروءتك، والأدعية كثيرة على لسانه متى تكرّمـــت عليه، والشتائم الصامتة إن عبرتَ و لم تلتفت.

ومحاذاته، عجوز ينـــزّه كلبه ونظارته الشمسيّة تطعم بثمنـــها العجوز الفقير شهرًا، ثلاث وجبات يومية.

وهنالك، في زواية الشارع فتى يسرق مال الناس بخفّـــة يديـــه وهما تلعبان بالثلاث أوراق. وقربه رجل يبيع الترمس، ثم آخر يبيـــع القهوة من الإبريق النحاس وهو يطقطق بفنجـــانين علـــى إيقـــاع واحد، وآخر يبيع البرازق والكعك، ورابع يبيـــع الجـــوز ويكســـر على مرأى منك جوزة ويقدّمها إليـــك. وخـــامس يـــرى بختـــك

مكتبة الفكر الجديد

ويقرأ كفّك وهو ينظر إلى جيوبك وليس في راحة يدك.

ووراء هؤلاء تصطف المتاجر والمحالّ التي أوشكت أن تغلق أبوابها في أوّل المساء مكتفية بما رُزقت، في حين لا يزال أهل الرصيف كأنّ نهارهم لم يبدأ.

لا أذكر من قال، أو أين قرأت، أنّ الأرصفة مرايا المدن. وبإمكانك أن تكتشف من أحوال هذه الأرصفة رقيّ رجال الشرطة أو انحطاطهم.

ولا أذكر من قال، أو أين قرأت، أن في نيودلهي عالم أرصفة لا يجاريه أيّ مكان آخر في الكون. إذ يقيم فيه الملايين، آكلين وشاربين ونائمين.

لا تستهن بسكّان الرصيف. إنّهم كسائقي التاكسي. يعرفون العابر الجديد من العابر الأليف، ويميّزون الذي سيشتري من المكتفي بالفرجة. لذا تراهم يهجمون على هذا، ولا يقربون من ذاك. إنها الفراسة العفوية يكتسبونها بمرور الأيّام والوجوه.

كنت قرأت في الروايات (ورأيت في الأفلام) أن شوارع كهذه الشوارع التي أزورها يوميًا، تستضيف موسيقيّين يعزفون للمارّة أو لأنفسهم على أمل الفوز بمكافآت قليلة لشراء الخبز والطعام لهم ولأولادهم. لكنّني لم أر عازفًا واحدًا في أرصفة بيروت. كأنّ هذه المدينة اكتفت بعزف الرصاص ودويّ المدافع وصراخ الأولاد لدى الهروب إلى المخابىء.

بعدما ألِفَ أهل الرصيف وجهي، نشأت بيني وبين معظمهم مودّة. ولا سيّما منهم بائع الكتب المستعملة، الذي قَبِل إعارتي الكتب من دون مقابل، بشرط أن أردّ الكتاب المستعار حتّى يسمح

مكتبة الفكر الجديد

لي بأخذ كتاب جديد. كانت ذاكرته مخيفة. يعرف جميع الكتب التي استعرتها. كان بائعًا مثقفًا. قالوا إنّه يشتري الكتب بأكياس الخيش من مقاتلين حصلوا عليها من القرى والمناطق التي هجّروا أهلها منها. كان يشتريها بالكيلوغرام ويبيعها بأسعار زهيدة.

لولا أهل الأرصفة لكانت بيروت مدينة مملّة.

كان الوقت في النهار يمرّ سريعًا. وما إن يحين الغروب وتخلو الشوارع حتّى يتبدّل مزاجي. فأغدو كئيبًا كأنّ الليل لا يحلّ إلاّ عليّ وحدي.

أظلّ أمشي إلى حيث تأخذني قدماي. عندما أتعب أجلس على حافة أحد الأرصفة. لا أطيل الجلوس مخافة أن تمرّ دوريّة تابعة لإحدى الميليشيات. من الممكن أن تزجّ بي في السجن بتهمة ما. قد تتهمني بأنّي أتجسّس على مواقعها، أو أعمل لحساب ميليشيا مناوئة، أو أخطط لسرقة أحد المحالّ. عندئذ قد يختفي أثري تحت تاسع أرض.

ليلة أوّل من أمس، نمت في المقعد الخلفي لسيّارة متوقّفة قرب معمل للأحذية. طاب لي النوم في السيّارات بعدما جرّبته في سيّارة بو وليد. مدّدت شريطاً من إحدى نوافذها المفتوحة قليلاً، ورفعت الكبسة التي تقفل الباب. خشيت أن أسترسل في النوم لئلاّ يضبطني صاحب السيّارة غافياً. وإذا حصل ذلك فسيلمّ الناس على صوته: "حرامي... حرامي". وإنْ كان مسلّحاً وقتلني فلن يمسّه القانون أو يغبّر أحد على حذائه. شريعة الغاب سائدة. القويّ يأكل الضعيف. يكفي أن يزعم أنّه قبض عليّ في الجرم المشهود، أسرق سيارته أو شيئاً منها، حتّى يخلّص نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

أمّا عشيّة البارحة فاستجاب الله صلاتي. وهذا قلّما يحدث. فقد شهدت المنطقة قصفاً عنيفاً. دخلتُ بناية للاحتماء ريثما يستقرّ الوضع. ثم أصرّ أحد الساكنين فيها على مرافقته إلى الملجأ.

لحسن حظّي أنّ القصف استمرّ متقطّعاً. عندما يهدأ أوحي لمن لا يزالون صاحين رغبتي في الانصراف، فيلحّون أن أبقى. يقول أحدهم: "أخوت. الدنيي قايمي قاعدي، ولوين رايح. خلّيك". ويمسكني آخر من يدي: "اقعد لنتسلى بلعب الورق". تعشّيتُ لقمة لبنة وحبة زيتون ورأس بندورة. وعلى فرشة إسفنج نمت نوماً عميقاً. لم أعرف هل استونِف القصف أم لا. إنّ نومي ثقيل جداً في الأيّام العادية، فكيف في هذه الأيام التي ما نمت خلالها النوم الكافي؟

الليلة أين سأنام؟

أمشي وامشي. تحت إبطي كيسي الصغير أو في يدي. ولطالما استعملته مخدّة. أوحي وأنا حامله، أنّي أنقل شيئاً للأكل إلى منزلي، فلا يستوقفني المسلّحون ويمطرونني بالأسئلة. صحيح أن لا منزل لي، لكن ليس من أحد سواي يعرف هذا. أحياناً، أعتقد العكس. أظنّ الناس جميعاً يعرفون أنّي متشرّد بلا بيت. وكأنّ ذلك مكتوب في ورقة معلّقة على ظهري. أكثر من ذلك، أعتقد أنّهم مطّلعون على تفاصيل حياتي.

ليلاً، تتشابه الشوارع والمباني تشابهاً كبيراً. لا حصر للشوارع التي قطعتها غير مرّة، وظننتُ لدى عبوري في أحدها، أنّي أجتازه للمرّة الأولى.

نهاراً، الأمر مختلف.

مكتبة الفكر الجديد

ثمّة أحياء يجب أن تبري نعليك في زواريبها لكي تعرف كيف تخرج منها متى دخلتها.

لكي تحفظ الطرق ينبغي لك أن تقطعها سيراً. فالمشي أستاذ الجغرافيا بامتياز.

أمشي.

أقف.

أجلس.

انقطاع التيار الكهربائيّ جعل الليل أشدّ ظلمة. أنوار السيارات تفتح في العتمة ثقوباً من الضوء المبهر. السماء ملبّدة بغيم أسود. رويداً رويداً يتحوّل الهواء الهادىء ريحاً قويّة. أحني رأسي وأمخر عبابها. أرى زوبعة في أوّل دورانها تنفث من أطراف جسمها غباراً كثيفاً. بُعيد استكانة الريح، تمادى الرذاذ. أشعر به على وجهي لطيفاً ناعماً. صدق بائع اليانصيب الكهل الذي سمعته عند الظهيرة يقول لزميله وهو ينظر إلى السماء: "في شتي. الغيم اللي بيجي من صوب البحر بيحمل الشتي دايمن".

أمطرت. أرسل الله الخير غزيراً.

كغابة من الخيوط البلّور يبدو المطر المنهمر في مواجهة ضوء سيّارة عبرت للتوّ.

تحت سقف أحد الدكاكين، أترقّب عبور سيّارة أخرى لأستمتع ثانيةً بالمشهد نفسه. أطبع المشهد في ذاكرتي لأسترجعه عندما أشاء.

في الضيعة، تمطر السماء ولكن ليس بمثل هذه الغزارة.

حتّى المطر في القرية أكثر رحمة منه في المدينة.

مكتبة الفكر الجديد

عدتُ لا أشعر بقدميَّ من شدّة البرد. تسرّبت إليهما المياه وغدا سَيْري مترنّحاً. حمدت الله على هدايته لي فلم أرمِ الكيس. قعدت على حافّة باب الدكّان. وجففتُ رجليّ. أبدلت بالجوربين المبتلّين جوربين نظيفين. استعنت بمشايّة الكاوتشوك. بسبب المياه، بات حذائي المتهرّىء يشبه أيّ شيء إلاّ الحذاء. تخلّصت منه. رميت فردة في جوار مستوعب الزبالة والأخرى في منتصف الطريق، فطفت على صدر السيل الذي مضى بها إلى مجرى للصرف الصحّي. تخيّلتها تبدي غضبها: لم يخلعني من قدمه منذ خمسة أيّام، إلاّ ساعات قليلة. أرهقني بالسير ليل نهار. حتّى أصابع قدمه الخمس علّمت في صدري، وكلساته التصقت بي. لو أني ما زلت صالحة للاستعمال لما تخلّى عني. أنقذتني رثاثتي من رائحة عرق رجليه غير المحتملة. كثيراً ما شعرت بحقارتي متى أطال النظر إلى شبيهاتي في واجهات المتاجر. وقد حسدتها. هي جديدة لمّاعة وأنا عتيقة قذرة. هي مستريحة محترمة وأنا تعبة منبوذة. لا أعرف ماذا حلّ برفيقتي. أذكر أنّي رأيت صاحبنا يقذف بنا معاً. ربّما ملّت صداقتي واختارت أن تستأنف الحياة وحدها. أو ربّما بعدما تخلّص منها ومني، ندم والتقطها على أمل أن يعثر عليّ. أحببت الإقامة في مياه المجارير كلّما تذكّرت رائحة رجليه. بعدما طاب لي العيش تحت الأرض ندمتُ على الأيام التي أمضيتها عليها.

توقّف هطل المطر.

لكنّ السيل لبث جارفاً كل ما يصادفه. تحوّلت الطريق سواقي. ليس بإمكاني أن أفعل شيئاً. خلعت جوربيّ ورددتهما إلى الكيس.

مكتبة الفكر الجديد

رفعت البنطلون إلى ما فوق الركبة. وشققتُ المياه التي يبلغ ارتفاعها الكاحل. المشّاية حمت قدميَّ من الحصى والأشياء المؤذية. دبّت في جسمي حرارة ناتجة من الحركة.

سرّني السير عكس السيل المُنحدر.

دخلتُ بناية جميلة. ضوء القدّاحة قادني إلى ملجأها. بابه مقفل بقفل ضخم. البرد يقرص عظامي. الألم الناجم عن الجوع أو عن انقطاعي عن التدخين لنفاد سجائري، يضرب رأسي. فتّشتُ عن عقب سيجارة على الدرج. صعدت حتّى الطبقة الأخيرة و لم أجد عقباً واحداً. ثمّة صحون من الكرتون قرب أبواب الشقق. لولاها لظننتُ البناية مهجورة. لا أتصوّر مكاناً مأهولاً ليس فيه عقب سيجارة.

قعدتُ على درج الملجأ.

اتكأت على بابه وتكوّرت. من شدّة التعب وقلّة النوم، غفوت.

فتحت عينيَّ على حذاء أسود يهزّني هزّاً خفيفاً. رفعت رأسي فرأيت فماً مفتوحاً تحت نظارتين سوداوين يطردني ويتوعّدني.

حملت الكيس وغادرت.

عندما ابتعدتُ وقفتُ قبالة صاحب الفم المفتوح وشتمته بإشارة رسمتها بيدي. غضب وراح يلمّ أحجاراً ويرشقني بها وهو يجري خلفي.

اليوم هو يومي الرابع وحيداً متشرّداً. لا أحد ارتضى أن يشغّلني عنده بطعامي ومبيتي.

ظهرًا، أخذتُ قرصين من الفلافل من دون أن ينتبه لي صاحب المطعم. ما إن أكلتهما حتّى ازداد جوعي. قرّرت معاودة المحاولة.

مكتبة الفكر الجديد

نظرات البائع المتشككة حثّتني على العدول. تمنّيت أن تنفجر عبوة قرب المطعم فيهرب الناس ويخلو المكان، فأسرق من الطعام ما أشتهي. وأظلّ آكل إلى أن أموت من التخمة.

على وجه برميل النفايات قرب المطعم، رأيت نصف سندويش فلافل ملفوفاً بورقة بيضاء يحطّ عليه سربٌ من الذباب.

تقدّمت نحو البرميل تقدّمَ من يريد أن يرمي شيئاً لا يحتاج إليه.

أخذت السندويش. تفحّصته تفحّصاً خاطفاً. التهمته وفكّرت أنّ عشرة مثله لن تشبعني.

أحسستُ أنّ معدتي امتلأت. عنّت على بالي السيجارة. ليس من لذة تفوق لذّة التدخين بعد الأكل. أعطاني بائع العلكة العجوز سيجارة. كاد يحرق وجهي وهو يشعلها بقدّاحة مكبحُ نارها شبه معطّل.

دخّنتُ السيجارة واجتاحني دوار لطيف. دوار أشعر به لدى تدخين السيجارة الأولى بعد انقطاع يومًا أو يومين.

ليس بوسعي أن استمرّ هكذا. العودة إلى الضيعة خيار ساقط من حسابي.

الالتحاق بإحدى الميليشيات هو الخيار الوحيد. في الأقلّ، يوفّر لي ذلك فرشةً وطعامًا.

وفي المقابل، أنفّذ المهمّات المطلوبة من حراسة ومشاركة في المعارك وأعمال أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

7

جهّزتُ أجوبة مفحمة عن كلّ الأسئلة التي قد تُطرح عليّ في الثكنة.

الحارس الذي كان يجلس على كرسيّ قشّ صغير في زاوية المدخل، ردّ على التحيّة بصوت مخنوق. مرارًا نظر إليّ من رأسي إلى قدميّ نظرةً فهمتُ منها أن أفصح عمّا أريده بالسرعة الممكنة.

قلت له أريد مقابلة قائد الثكنة لأمر مهمّ.

حاول معرفة ما هو هذا الأمر المهمّ. فأجبت أنّي لا أستطيع الإفصاح عنه إلاّ للقائد.

طبعًا لم يكن لديّ سرٌّ. زعمت ذلك كي لا يعاملني الحارس بخفّة. فطلبُ مقابلة قائده قد يجعله يتريّث قبل الإتيان بتصرّف غير لائق.

هذا الموقف ارتجلته. ليس واردًا في الأجوبة التي استعددتُ لها. ارتجلته حين راح الحارس يتأمّلني كأنّي نازل من كوكب آخر. شئتُ أن أحذّره تحذيرًا غير مباشر بأنّ يفتح عينيه على وسعهما متى نظر إليّ. فبإمكانه أن يعرقل خطّتي ويحرمني الدخول إنْ لم يعجبه شكلي، أو إذا رغب في ممارسة سلطته عليّ. لذا كان لا بدّ من نجاح الخطوة الأولى المتمثّلة في كسب رضاه. وقد كسبتها منذ راح يدلّني، بعد

مكتبة الفكر الجديد

دويّ جدار الصوت، إلى الخطّين الرفيعين اللذين أحدثتهما طائرتـــان إسرائيليّتان تحلّقان على علو مرتفع. قال بشيء من السخرية: "لـــولا الطيران الإسرائيليّ لنسينا لون السما".

لم أردّ. ابتسمت تعاطفًا مع تعليقه الطريف. خشيت أن يكون في التعليق فخّ. يريد أن يعلم ردّ فعلي ليعيّن مـــن خلالـــه تـــوجّهي السياسيّ. فهنالك فريق يعدّ إسرائيل عدوًا وينبغي محاربتـــها هـــي وداعمتها أميركا. على حين يرى فريق آخـــر أن الدولـــة العبريّـــة حليفة.

لم يأخذ الحارس مني لا حقًا ولا بـــاطلاً. ابتســـم ثمّ عـــاد إلى عبوسه، محافظًا على الحدود التي يرفعها عادةً من كان مثله مسلّحًا في وجه أعزل، مثلي.

حتّى إنّه ليس مضطرًّا إلى تفتيشي. فالقميص اللاصق بجمســـي والموضوع أسفله تحت البنطلون يكشف أنّي لا أحمل مسدسًا. ومـــع ذلك، سألني: "معك سلاح؟".

طلب أن أنتظر ريثما يبلغ أحدًا من رفاقه أن هنالـــك شخصًـــا يبغي مقابلة الريّس. والريّس واحدة من المفردات التي عمّقت كرهي للحزب في الضيعة. إضافة إلى جلسات الشحن الطائفي المبطّن الذي يخرج المرء بعده بشعور أنّه على أهبة قتل كل من ينتمي إلى الطائفـــة الأخرى، أو إلى الأحزاب المناوئة، إذا التقاه في الطريق.

فيما كنت واقفًا إلى جانب الحارس الذي راح يتثاءب على نحو جعلني أفعل مثله، توقّفتْ سيّارة جيب عســـكريّة مكشـــوفة فيهـــا مقاتلان في ثياب الميدان، وعلى متنها رشّاش خمسمئة مثبّت جيّـــدًا، ولا أحد وراءه. طلب إليهما الحارس أن يصحباني إلى الريّس. فرحّبا.

مكتبة الفكر الجديد

صعدتُ إلى سيّارة الجيب وسلّمت على الشابين اللذين ردّا السلام بكثير من الودّ. ربّما ظنّا أنّي قريب للريّس، أو تجمعني به صلة ما.

الثكنة رحبة. لا تبدو كذلك للناظر اليها من الطريق العام حيث مدخلها. رأيت ملالات وناقلات جند ومدفع هاون 120 معطّلاً، ربّما هو من الغنائم.

لفتتني فتاة بشورت أخضر وبلوزة سوداء تطلّ من إحدى الشرفات. ماذا تفعل صبيّة جميلة في الثكنة، بين الرجال؟

سؤال عبر في راسي سريعًا. و لم أتوقّف عليه.

كنت أفكّر في أمور أخرى أكثر اهميّة.

ظللتُ صامتًا. وهما لم يسألاني شيئًا. كانا أيضًا صامتين. أنزلاني قرب مبنى من طبقتين، وأرشدني أحدهما إلى مقرّ القائد.

ترجّلتُ، وراجعتُ الكلام الذي قرّرت قوله للريّس. سأقول له إنّ أبي حزبي عتيق، وإن جريدة الحزب كانت تصله دوريًّا، وإنّي لستُ محازبًا لكنّي صديق للحزب، وجميع أصدقائي منتسبون إليه. وسأخبره بالسبب الذي دفعني إلى مغادرة الضيعة والمجيء إلى بيروت. لا موجب للكتمان أو لتحريف الوقائع أو للكذب. فللحزب عيون وآذان في كلّ مكان.

لِمَ أخاطر وأترك حولي علامات استفهام؟ الصدق في هذا المقام من حسن الفِطن والكذب لعب بالنار. أصارحه بأنّ لا أقرباء لي في بيروت ولا أصدقاء، وبأنّي جئت إليه لعلّه يؤمّن لي مكانًا للنوم، بالإضافة إلى الطعام، وبأنّي مستعدّ للقيام بالحراسة وبسواها من المهمّات، حتّى أشغال الكلفة من جمع الزبالة ورميها في المكبّ وتنظيف المراحيض.

مكتبة الفكر الجديد

هذه الأفكار تبددتْ حين رأيته. كان يرتدي بذلة القتال، رافعًا كمّيها إلى ما فوق المرفق كي يُظهر على زنده الأيمن الوشم الذي لم أتبيّن شكله جيّدًا.

لم يقف عندما دخلت. بقي جالسًا على كرسيّ دوّار. يتكلّم ويحرّك الكرسيّ بجسمه، ويداه على الطاولة تتسلّيان بسيجار في مظروف شفّاف. تصرّفٌ أعطاني فكرة سلبيّة عنه. لكنّي لم أُحبط. متكبّرًا بدا حين رمقني كأنّي شحّاذ. ندمت على اختياري هذه الثكنة، ولعنتُ الحظّ الذي جعلني أقابل مسؤولاً كهذا.

لم يكن وحده. كان في الغرفة شخص آخر يبحث عن شيء ما في خزانة الحديد ورائي تمامًا. وهذا ما تسبّب لي ببعض الحرج. كنت أفضّل خلو المكان إلاّ منّا نحن الاثنين.

ما إن لفظتُ كنيتي حتّى عرف اسم ضيعتي، وصودف أنّه يعرف بعض الشباب الذين هم أكبر مني. قال إنّه تعرّف إليهم في إحدى دورات التدريب، وإنّه أحبّهم لشجاعتهم وعصبيّتهم الحزبيّة. وصفهم بـ "الرجال" الذين يحاربون لنصرة القضية لا لمنافع شخصيّة. ثم سألني عن بعضهم، وعن الوضع في الضيعة وجوارها. قال أنتم أبطال لأنكم ما زلتم صامدين في منطقة غالبية سكّانها من الطائفة الأخرى.

عندما أخبرته بما أنا آتٍ من أجله، لم يُفاجأ. لستُ، على ما يبدو، الوحيد الذي أُرغم على ترك أهله والالتجاء إلى الثكنة. قال إذهب واسأل عن عزيزي، هو يهتمّ بك.

سألت عن عزيزي. دلّوني عليه. وهو سُمّي بهذا الاسم لأنّه لا ينادي رفيقًا باسمه، بل بـ "عزيزي". وقد لاحظتُ ذلك منذ كرّر

مكتبة الفكر الجديد

كلمة "عزيزي" بين جملة وجملة. قادني إلى غرفة هي واحدة من مجموعة غرف متشابهة. دفع بابها الذي لم يكن مغلقًا، فرأيت أربعة أسِرَّة، كلّ سرير من ثلاث طبقات. وطاولة ملأى ببقايا طعام وعلب تونا وسردين، وخزانة بلاستيك للملابس. وعلى الحائط صورة لرئيس الحزب يخطب في الحشود. لمّا رأيت الصورة، تذكّرت أبي الذي طالما قال إن لرئيس حزبه كاريزما ساحقة تجعله الأوّل بين الزعماء.

أشار عزيزي إلى سرير يعلوه سريران. وعليه مخدّة وبطانيّتان غير مستعملتين.

أعجزُ عن وصف الشعور الذي ساورني حين قال: "هيدا تختك". شعرتُ كأنّي امتلكت نصف الدنيا. وسرعان ما وجدتني أجلس عليه، وأتفحّص الفراش.

كان عرشًا لا سريرًا.

استحيت أن أسأل هل السريران اللذان يعلوان سريري شاغران أم مسكونان. المهمّ أنّي وجدتُ مطرحًا أقضي الليل فيه. ليس الليل فقط بل النهار أيضًا متى شئت.

ثم خرجنا إلى الشرفة ودلّني على مخزن الأسلحة.

لم أفصح له عن كرهي للسلاح. أخبرته بأنّي لا أجيد استعمال إلاّ بندقيّة الصيد. قال إن جميع العناصر في الثكنة مسلّحون، وليس مأنوسًا أن أبقى وحدي بلا سلاح. ثم أنزل رشّاشه من كتفه ومضى يعلّمني طريقة استخدامه. في عشر دقائق، لقنّني كيف أفكّه، وكيف أضع الرصاص في الممشط. وأعلمني أنّ هنالك دورات تدريب متواصلة، يجب أن أختار الاختصاص الذي أريده على حسب

مكتبة الفكر الجديد

مؤهلاتي. ولفتني إلى أنّ عليّ أوّلاً التدرّب على الأمـور البديهيّـة، كتفكيك أسلحة فردية وتركيبها والرمايـة، بالإضـافة إلى بعـض الشؤون العسكريّة التي لا بدّ من معرفتها قبل الانتقال إلى التخصّص بمجال معيّن. ونصحني باختيار المدفعيّة إذا كنت حـائزًا شـهادة في الرياضيّات أو في العلوم الطبيعيّة.

كان عزيزي ودودًا. أحسستُ أنّي لا أعرفه منذ نصف سـاعة فقط بل من زمان. أخبرته قصّتي باختصار. تأثّر وأصرّ علـى سمـاع التفاصيل. دعاني إلى الغداء عندما أصبحُ مسـتعدًّا. "نـاطرك علـى مدخل الثكنة بعد نصّ ساعة" قال وهو ينظر إلى ساعة يده.

التقينا في مطعم صغير قبالة الثكنة، إلى طاولة عليها صحنان من الفول وصحن حمّص مدّمس وآخر بليلة وثالث فيه بضـع حبّـات زيتون وعروق من النعناع وبصلتان.

رويت له حكايتي منذ ظهور الرجل الغارق في دمـه بمكـبّ النفايات إلى لحظة مجيئي إلى الثكنة.

ومنذ ذلك الغداء، أصبحنا صديقين أو مشروع صديقين.

حين افترقنا، استذكرت كلامه. اختيار المدفعيّة فكرة جميلـة. الاشتراك في القتال من بعيد أكثر أمانًا من شنّ هجوم أو ردّ هجوم. لكنّي حائز شهادة في الفلسـفة لا في الرياضـيات ولا في العلـوم الطبيعية. وهذه الشهادة لا تخوّلني أن أكون في فوج المدفعيّة. إذا عاد الموضوع إليّ أختارُ القنص. وسأكون متفوّقًا فيه. مَن يرمي طيراً من الفرّي أو السمّان أو دجاجة أرض، وهذه الطيور محكّ الصيّاد الماهر، يَسْهُل عليه قنص الناس.

أتدرّب على القنص لكنّي أتفادى القتل.

مكتبة الفكر الجديد

أتدرّب لأنّ عليّ فعل ذلك كي لا أتشرّد مجدّدًا.

أفكارٌ كهذه ساورتني وأنا أستلقي على السرير محاولاً أن أستريح بعد ليلة لم أنم خلالها سوى وقت قليل.

أيقظني في الغروب أحدُ الرفاق، ودعاني إلى أن أساعده ورفيقين له في نقل صناديق الذخيرة من المخزن إلى الشاحنة.

لّما انتهينا من المهمّة عرّفتُ المسؤول عن المخزن بنفسي، فسلّم إليّ رشاش كلاشينكوف ولوازمه من جعبة تتسع لثلاثة مماشط وسبع علب من الرصاص وبذلتين قتاليّتين وجزمة. ثم سجّل على دفتر سميك، اسمي الثلاثي ورقم الرشّاش ومعلومات أخرى.

صعدت إلى الغرفة، وخبّأتُ الرشّاش تحت البطانيّتين، والجعبة وعلب الرصاص تحت السرير إلى جانب الجزمة.

في المساء، لم أدرِ ماذا أفعل. لا أعرف أحدًا. فالرواية التي أُكملُ قراءتها، تركتها في الكيس. لو أنّها معي لقتلتُ ساعتين في المطالعة ونمت.

الخيار الوحيد هو الخروج من الثكنة والتنزّه على مقربة منها.

في أثناء النزهة، لاحظتُ أنّ الثكنة بين مبانٍ سكنيّة، معظم طبقاتها العليا متضررة من جرّاء القصف.

لم تطُلْ نزهتي.

عدتُ بعد نصف ساعة.

بات لي مكان أعود إليه. جميل هذا الإحساس الذي أشعرني بالطمأنينة.

الثكنة في الليل هادئة إجمالاً. يتخلل الهدوء خروجُ سيّارة جيب أو دخول سيّارة مدنيّة عائدة من مهمّة خاصّة.

مكتبة الفكر الجديد

في إحدى الغرف، تلفزيون، وبضعة شبّان يتابعون مباراة محليّة في كرة القدم. عرفتُ ذلك من تعليقات المذيع وليس من هتافات التشجيع التي ترافق هذا النوع من الرياضة. وفي غرفة أخرى، شابان يقرأان. لاحقًا علمتُ أنّهما طالبان في الجامعة. أحدهما في السنة الثالثة بكليّة الحقوق، والثاني في السنة الثانية بكليّة الإعلام. خطر لي أن أستأنف الدراسة عندما يصبح بمقدوري التركيز على الدرس. في الوقت الحاضر، لم أزل متضعضعًا. لا مال لديّ ولا رغبة في العودة إلى التحصيل العلمي.

غدًا أذهب إلى موقف السيّارات العاملة على طريق بيروت والمدينة القريبة من الضيعة. أبعث إلى أبي مع بو وليد برسالة أقول له فيها أريد مالاً. أريد أن أشتري ثيابًا داخليّة وحاجات ضرورية وحقيبة للملابس استعدادًا للاشتراك في الدورة.

لا أعرف هل يقبض المقاتل راتبًا إذا تفرّغ كليًّا للثكنة أم أنّ الجميع متطوّعون.

أحمد الله لأنّه منحني أكثر ممّا أستحقّ. منحني سريرًا أنام فيه وبطانيّتين تدفئانني وسقفاً أقيم تحته.

صلوات أمّي لم تبقَ في منأى عن قلبه، فعلت فعلها فيه هو السميع المجيب.

مكتبة الفكر الجديد

8

لا أحد من شباب الثكنة بدون اسم حركي. أسماؤهم الحقيقة لا تخرج من هويّاتهم إلاّ لضرورات إداريّة. ممنوع تـــداولها خصوصًـــا خلال المهمّات والمعارك. الألقاب وحدها هي المعترف بها. ولفـــرط استعمالها، تحلّ مكان الأسماء، وتمحوها بمرور الوقت.

لم أستغرب ذلك. في ضيعتي ليس عيباً أن تكون بـــلا اســـم، العيب أن تكون بلا لقب. الاسم يمنحك إيّاه الأهل تيمّنًا باسم قديس أو استذكاراً لعزيز مهاجر أو تقديرًا للجدّ المرحوم.

للقب حكاية أخرى.

لا يجيئك من لا شيء. يمنحك إيّاه أصحابُك أو الذين يكبرونك عمرًا، يستمدّونه من وحي عمل لافت قمت به أو عمل سيّىء، أو من وحي مناسبة كانت شاهدة على موهبة لديك أو على ضعف فيك.

قد تبقى طويلاً من دون لقب. لكن لن يناديك أحـــدٌ باسمـــك المدوّن على التذكرة. ينسبونك إلى اللقب الذي يُعرف به أبوك إنْ لم يزل حيًّا. أمّا إذا كان مُتوفًى فتسقط هذه القاعدة.

أنا لقّبوني بابن الأستاذ لأنّ أبـــي حمل لقب الأستاذ منذ شاع أنّه احتاز بنجاح امتحان الدخول إلى دار المعلّمين حيث دَرَس ثلاث سنوات، وتخرّج مدرّسًا. بعد التخرّج علّم في تكميليّة ضـــيعة عـــين

مكتبة الفكر الجديد

العصفور البعيدة ثم في تكميليّة الضيعة بعد وساطة تطوّع لها أحد النوّاب.

رافقني لقب أبي مسبوقًا بـ "ابن" حتى رميتُ طائرًا يسمّونه عتريس، بعدما أخطأه صيّادون مشهود لهم بحسن التسديد. وعتريس هو ذَكَرُ المَطْوَقَة، أصغر حجمًا من أنثاه لكنّه يفوقها ذكاء. كما أنّه مشهور بطيرانه الحلزونيّ الذي يجعل إصابته بالغة الصعوبة.

في اليوم التالي، فوجئت بابن الجيران يناديني: عتريس. ظننتُ أنّه ينادي شخصًا سواي. ثمّ صوّب إصبعه نحوي إشارةً إلى إنّه يناديني أنا تحديدًا. وقال لا تنسَ أنا أوّل واحد في الضيعة ناداك: عتريس.

قد تعرف من ناداك بلقبك أوّل مرة. لكنّ من النادر أن تعرف من أطلقه عليك.

وإذا عرف أحدهم من أطلقه فلا يحقّ له إعلان الاسم. احترام السريّة رسّخه تهريب المخدّرات وزراعة الحشيشة اللذان يزاولهما كثيرٌ من الأهالي، بالإضافة إلى تجربة حظوظهم على طاولات القمار في ليالي الشتاء.

أحببتُ اللقب ليس لأنّه أعجبني بل لأنّه أنقذني من لقب أبي.

وددتُ أن ينتشر في جميع أحياء الضيعة بالسرعة الممكنة. لن يحصل هذا إذا لم يعرف به روّاد السّاحة، ولا سيّما المقهى.

المقهى هو الذي يمنح اللقب الجديد شهادة التثبيت. فإذا ذاع اللقب في الضيعة و لم يُتداول في المقهى يبقى مهدّدًا بالإهمال.

الاعتراف باللقب يأتي من المقهى ثم تتبنّاه الضيعة. ولصاحب المقهى دورٌ كبيرٌ في هذا كلّه. ترداده اللقب بصوت عالٍ وهو ينادي صاحب اللقب، تمهيدٌ للاعتراف.

مكتبة الفكر الجديد

لا يشيع اللقب وحده. تشيع معه المناسبة التي ولد منها. يتعذّر فصل اللقب عن مناسبة ولادته. الألقاب اللقيطة، هكذا يسمّونها عندنا، هي التي تولد بلا مناسبة، يطلقها الناس على أنفسهم، ويغيّرونها عندما يشاؤون. ويُكتّى باللقب نفسه بضعة أشخاص في وقت واحد.

هذه الألقاب يحملها الرعاة ونواطير الكروم والعاملون في قطاف العنب والتين، وغالبيّتهم من العرب الرُّحَل.

هؤلاء يزورون قريتنا، ويمرّون بساحتها. وإنْ جلسوا في المقهى فلا يطيلون الجلوس. تنبئهم قلوبهم بأنّ وجودهم غير مرغوب فيه، لأنّهم غرباء.

والغريب في عين ضيعتي هو من يعرف ألقاب أبنائها ويجهل أسماءهم الأصلية.

وهو أيضًا كلّ من ليس له لقبٌ يتفرّد به.

أهميّة ألقابنا في تفرّدها.

من باب الحرص على هذا العُرف، كان صاحب المقهى يدوّن الألقابَ في دفتره المخصّص للدّيون وتاريخ الوفيات والحوادث المهمّة التي تعيشها الضيعة (زيارة مطران، أو نائب، أو شاعر زجل مشهور استُدعي للندب في مأتم).

أذكر أنّ جدّي لأبي لم يرضَ عن لقبي. وشتم مُطلقه. فأنا، بين أحفاده، الوحيد الذي يحمل اسمه. وهو شديد الاعتزاز به لكونه لطيفًا على السمع وغير مستهلك. كان يكفي ذكره، من دون الكنية، حتى يُعرف مَن المقصود به.

أنا أيضًا لطالما افتخرت باسمي للسبب عينه. لم أعرف أحدًا غيري اسمه: عابر. لا أدري من أين استمدّ والد جدّي هذا الاسم

مكتبة الفكر الجديد

الغريب على قائمة الأسماء الشائعة في الضيعة. حتى جدّي نفسه يجهل مصدر الاسم والدافع الذي جعل أباه يسمّيه به. وهو، منذ ولادتي وتسميتي باسمه، لم ينادِ أبي باسمه، حبيب، أو بلقبه، الأستاذ. كان يناديه أبو عابر. ومثله تفعل جدّتي. عندما بلغه أنّهم ينادونني عتريس، ارتفع صوته مهدّدًا بأنّه سيربّي القمل في رأس كلّ من لا يناديني بغير اسمي. وجدّي في ماضيه كان يخيف الناس عندما يتوعّد. سجلّه أيام الانتداب الفرنسي حافل بأعمال بطوليّة. والمعمّرون في الضيعة يعرفونها جيّدًا ويتناقلونها إلى اليوم. لكنّ الشيخوخة أقعدته. وتهديداته لا تتخطّى جدران بيته إنْ لم تسرّ بها جدّتي إلى مَن تجاورها في قدّاس الأحد.

موقف جدّتي لم يختلف عن موقف جدّي. أتذكّرها تهوي بالمكنسة على بائع الترمس وغزل البنات لأنّه لم ينادِني باِسمي.

أبي بدا لا مباليًا في الظاهر. لم يخاصم أحدًا بسبب اسمي. كثيرًا ما تعمّد أن يناديني بصوتٍ عالٍ لدى مروري بالسّاحة عند الغروب. كأنّه بذلك يذكّر الرجال المُسترخين على الكراسي قرب مدخل المقهى وأمام الدكاكين، باسمي الأصلي. كنت أتعمّد مواصلة السير موحيًا أنّي لم أسمعه، ليكرّر مناداته لي رافعًا صوته قليلاً. بيني وبينه نشأ هذا التواطؤ بلا قصد. لا يقول لي شيئًا مهمًّا عندما نقف معًا تحت شجرة الزنزلخت وسط السّاحة. يطرح عليّ عددًا من الأسئلة العادية. لا يدعني أجيب عن أحدها إجابة كاملة حتى يقاطعني ويرشقني بآخر. نطيل الكلام واقفَيْن لكي يتأكّد لمن يرانا أنّ ثمّة أمرًا ضروريًا استوجب ذلك.

مكتبة الفكر الجديد

أمّي لم تكترث. لكنّها كجدّي وجدّتي باتت تنادي أبـــي، أبو عابر، بدلاً من حبيب، في حضور جاراتنا، وفي المناســبات. أمّــا في البيت فتناديه باسمه على جري عادتها.

لم يقتصر إطلاق الألقاب على الأشخاص. الأحياء أيضًا تتغيّـــر أسماؤها. أهل الحيّ يسمّون حيّهم اسمًا معيّنًا، وأهل الأحياء الأخـــرى يسمّونه اسمًا آخر. وقد يحمل الحيّ نفسه جملة أسماء بعدد الأحياء التي تكنّ له العداء.

حتى اسم ضيعتنا، البيادر، لم يبـــقَ مـــذكورًا إلاّ في الـــدوائر العقارية، وعلى الخريطة. لقّبها أهلها ببيت القمر، نسبةً إلى شتلة تشبه القمر لا تنبت إلاّ في أرضنا. الزوّار يظنّون أنّ شاعرًا أو كاتبًـــا وراء التسمية. الكبار في السنّ يؤيّدون هذا الظنّ. قالوا إن شحرور الوادي هو سمّاها هكذا في إحدى قصائده لدى مروره بها. لكن ما من أحد يحفظ شيئًا من تلك القصيدة. ومنهم من يردّ التسمية إلى سيّدة جميلة سكنت القرية بعض الوقت، وخلبت عقول الرجال فشبّهوها بالقمر. وعندما خطفها المرض، سمّوا الضيعة "بيت القمر" تخليدًا لذكراها.

في الثكنة، عندما سُئلت ما اسمك، فهمتُ أن المقصـــود اسمـــي الحركيّ لا اسمي الصحيح.

لم أفكّر كثيرًا. قلت: عتريس.

اسمي هذا هو الذي كتبته على ورقة ألصقتها بحقيبة الثيـــاب. ثم رميت الحقيبة إلى جوف الشاحنة التي سبقتنا إلى معسكر التدريب.

مكتبة الفكر الجديد

9

رأسي بين الجزمة الغليظة والحصى الموحلة.

جزمة المدرّب جبل. يدعس بقوة متى أبديت حركة تدلّ علـــى تذمّري وألمي.

يكاد يسحق جمجمتي.

شيء ساخن ينحدر بطيئًا نحو فمي.

أذني تنــــزف.

تزداد دعسة المدرّب ثقلاً. تتطاير الشتائم من فمــــه مصــــحوبة ببعض اللّعاب. يتناهى إليّ صوته بعيداً كأنّه آتٍ من آخر العالم.

بدأت أدوخ. عيناي في زيغان.

كلّما حركتُ رأسي، ونظرتُ طلوعاً رأيــتُ مقــدّم الجزمـــة ملتصقاً بالقسم الأعلى من رأس المدرّب. وكلّما نظـــرتُ مباشـــرة رأيت رفاقي الواقفين صفّيْن منتظميْن، طوالاً مـــرةً وقصــاراً مـــرّة أخرى.

شاء اللعين أن أكون عبرة لهم كي يفكّروا كثيرًا قبل اقتراف أيّ حماقة.

لم أرتكب أمراً يستحقّ هذا القصاص. فهو رأى الزرزور ينظر إلى الوراء فظنّ أنّي أحادثه في وقت كان مفترضًا بنا التزام الصمت.

مكتبة الفكر الجديد

والواقع لم يكن كذلك. وأجهل السبب الذي جعل الزرزور يلتفت إلى حيث أقف في الصفّ، خلفه تمامًا.

استدعاني المدرّب وأمرني أن أنبطح وأزحف، وألاّ أتوقّف إلاّ حين يطلب منّي ذلك.

جرّبت أن أفهمه ما جرى. فاشتعل غضبًا كأنّي سببتُ أمّه ولبطني على بطني لبطةً رفعتني مترًا ثم خررت أرضاً. وراح يدوس رأسي بجزمته.

لّما عفا عني، فقدتُ الإحساس بوجهي. اجتاحه شيء يشبه الخدر. أزلتُ الوحل عن جانبه الأيسر وشعرت بالأخاديد التي تركتها الجزمة على الجانب الأيمن.

لم أعترض انطلاقاً من المبدأ العسكريّ "نفّذ ثم اعترض". وهو الدرس الأوّل الذي تعلّمناه وحفظناه قبل نشيد الحزب. وطالما سخرتُ منه ومن صاحبه، ومردّ سخريتي إلى عدم جدوى الاعتراض عقب تنفيذ العقوبة. افتراضًا كنت محقًّا، هل يكفي اعتذار بليد وعبارة "عدم المؤاخذة".

لن أبلع الاهانة. قد يأتي اليوم الذي آخذ فيه حقّي على طريقتي.

مترنّحًا رجعت إلى الصفّ.

كنا في بذلات القتال تحت الشمس قرب حفرة واسعة ملأى مياهًا وسخة. كان علينا أن نجتازها زحفًا الواحد تلو الآخر على أن تبقى الوجوه في الماء، وإلاّ أطلق المدرّب الرصاص فوق رأس المخالف.

عندما جاء دوري، نزلتُ في الحفرة على مهل. وجهي في المياه. سماكة الوحل تعوق حركتي. أغرز مرفقي في القاع وأتقدّم.

مكتبة الفكر الجديد

ارفع رأسي قليلاً. يحذّرني المدرّب ألاّ أفعل ذلــك ثانيــةً إذا كنــت حريصًا على حياتي. أتابع الزحف إلى آخر البركة، متسائلاً كيــف يمرّغون وجوهنا في الوحل ويطلبون منّا لدى أداء التحيّة لعلم الحزب، الوقوف مرفوعي الرأس.

تساؤل سقط مع المياه التي راح رفيق لنا أعــرج مُعفًــى مــن التدريب يرشّها على أجسامنا فور خروجنا من الحفرة. وقفت قبالته، فأخذ يكشط عني الوحل. دنوت من فوّهة النربيش وفركت رأســي جيّدًا. شعرت بالبرد إذ توقّف اندلاق المياه عليّ.

عندما طلع السلطان من الحفرة، رأينا دودة تطلّ مــن أذنــه. أخذها بو برنيطة، غسلها بماء النربيش وقضمها.

صفّق له المدرّب، ففعلنا مثله. دام التصفيق إلى أن وضــع بــو برنيطة يده على بطنه إشارة إلى أن الدودة استقرّت في معدته.

بعد الزحف في الحفرة، بسطنا أجسادنا التعبة على الأرض. بين الواحد والواحد نصف متر تقريباً. وراح المدرّب يمشي علينا متعمّدًا أن تأتي دعسته قويّة على الصدور.

يجيء ويروح.

يروح ويجيء.

قالوا إنّهم بهذه الطريقة يصنعون منّا رجالاً أشــدّاء ومقــاتلين شرسين. لم أشعر يومًا بأنّي ذليل مثلما شعرتُ في تلك الدقائق الــتي خلتها أطول من دهر. كأنّهم يريدوننا أذلاّء عن سابق تصميم.

فالذليل يريح السلطة. أمّا عزيز النفس فيزعجها.

لم أردّ الاعتبار إلى نفسي إلاّ خلال التمرين على الرمايــة. وفي ختام التمرينات، حللتُ الأوّلَ.

مكتبة الفكر الجديد

المدرّب اعترف على مسمع من الجميع أنّه لم يرَ راميًــا مثلــي طوال مدّة خدمته في المعسكر.

كان هذا الاعتراف موضع اعتزاز لي مع أنّــي توقّعــت هــذه النتيجة. فمعظم المشتركين في الدورة لم يطلقوا في حياتهم خرطوشــةً وإن على تنكة أو قنينة فارغة. وبعضهم لم يشــاهد بندقيّــة إلاّ في التلفزيون والسينما، وفي العرض العسكري الذي يقيمه الجيش في عيد الاستقلال.

أمّا أنا فصيّاد منذ بلغت الثانية عشرة. بدأتُ بـــ "النقّيفة" الــتي نصنعها من خشب الحور، ومن دولاب الكاوتشــوك للمــيّارة أو الدرّاجة. وقد أوقعت بها ذات يوم طيرًا كنّا نسمّيه "نيّاك الهوا" لثباته في الجوّ مرفرفًا قرابة دقيقتين. بعد النقّيفة، جاءت الـــ "أمّ حبّــة"(*) التي، لفرط ما أتقنتُ الرماية بها، أصبح بمقدوري إصابة عود الكبريت على بعد عشرة أمتار. وعندما اشترى لي أبــي الجفت بعد نجــاحي في البريفيه، احترفت الصيد. فبات أهل الضيعة وأصحابــي يضربون بــي المثل في حسن التسديد. كان البيروتيون (بعضنا يسمّيهم أيضًا ولاد بيروت، أو البيارتة) الذين يأتون إلى المنطقة في مواسم الصــيد، يتفرّجون عليّ حين أروح أُسقط الطيور، مهما يكن عبورها سريعًا، أو مرتفعًا. كانوا يتكئون على بواريدهم ويتفرّجون عليّ مــذهولين. وطالما اشتروا مني الطيور بسعر شبه خيالي لفتى مثلي.

في المعسكر، وجدتُ الرماية سهلة. مجسّمات خشــب تمثّــل رجالاً، وراءها حائط من الباطون، وجذوع أشجار طــول أحــدها

(*) بندقيّة تُلقّم بها خردقةٌ يعادل حجمها حجم حبّة العدس. وبسبب صوتها الخفيض، يستعملها بعض الصيّادين في الليل مع مصباح يدويّ.

مكتبة الفكر الجديد

قرابة المتر. في البدء، يحصل الرمي على مجسّم ثابت، يبعد أربعين مترًا. لم أقبَل أن تستقرّ رصاصاتي العشر، وهي الكميّة المعيّنة لكل منّا، إلاّ في الوجه. كثير من الرفاق لم يصيبوا المجسّم. طاشت رصاصاتهم أمتارًا عنه.

كنّا نتدرّب بالرصاص الحيّ في حقل الرماية. أمّا لدى شنّ هجوم افتراضيّ على موقع محصّن، ينبغي للموجودين فيه الدفاع عنه، فكنّا نحمل رشاشاتنا من دون ذخيرة.

مرّة كنت في عداد الفريق المهاجم، ومرّة في عداد الفريق المدافع.

هذا الشقّ من التدريب كان مسليًا ومضحكًا. ذكّرني بالحروب التي خضناها عندما كنّا أطفالاً، ببواريد من أغصان الشجر، وبرصاص تطلقه أصواتنا.

لم يكن التدريب مقصورًا على بعض فنون القتال. بل تضمّن حصّة "الثقافة العسكرية". ظنّنتُ الحرب لا تحتاج إلى هذا النوع من المعلومات. يكفي أن يتعلّم المقاتل استخدام السلاح الذي يرمي به مع بعض التمرينات كي يذهب إلى الجبهة.

المدرّس الذي تولّى تعليمنا هذه المادّة كان طريفًا ويستطرد على الدوام.

كنت أصغي إلى الاستطرادات أكثر مني إلى الشروح المتصلة بالنظريّات، لأنّها، على ذمّة الأستاذ، مستقاة من المعارك التي دارت وتدور في بيروت، وفي المناطق.

كان المدرّس البالغ من العمر قرابة الخمسين عامًا، يقف، وفي يده مسطرة طويلة رفيعة يشير بها إلى الخرائط الثلاث المرفوعة على اللوح

مكتبة الفكر الجديد

الخشب العريض. يشرح الفكرة. ثم يعطي أمثلة ميدانيّة. الهجوم على المنطقة الفلانية نجح لأنّه ارتكز على كذا وكذا. والهجوم على ذلك الموقع الاستراتيجيّ فشل لأسباب عدّة. ويروح يعدّدها سببًا تلو سبب، فيظنّه الذي يسمعه، بطلاً لن يخسر معركة إذا أُتيحت له إدارتها.

في الحصص الأولى، شعرتُ ببعض الملل. الانسحاب من الحصّة لم يكن ممكنًا. ممنوع المزاح وأخذ الأمور بخفّة. فالوطن ووجودنا في خطر، وينبغي لنا، نحن الشبّان، الدفاع عنهما، وإلاّ نكن جبناء لا نستحقّ بلدنا، ولا البقاء فيه مُكرّمين.

لكنّي لاحقًا أصبحتُ أنتظر الحصّة العسكريّة. حتّى إنّي بتُّ أستلطف الأستاذ وأدوّن المعلومات التي يمليها علينا بالمحكيّة العكّاريّة. وأحاول ألاّ أفوّت معلومة مهمّة.

من المفكّرين العسكريّين، أعجبني صن تزو مع أنّ عمر أفكاره 500 سنة قبل الميلاد. أستاذنا نفسه بدا مسحورًا بها وبصاحبها. أفكار صالحة للتطبيق اليوم. قال تزو إنّ الحرب القصيرة هي الحرب المفيدة، وإن السرعة روحُ الحرب والحيلة والخداع أساسُها. وحفظتُ رأيه: "اتركوا لجيش العدو بعد حصاره مخرجًا حرًّا ولا تشدّدوا الطوق على عدو يائس".

ولفتني تعقيب الأستاذ بأن أمل النجاة الذي يزيّنه الانسحاب يساعد على الانهزام السريع.

وحفظت من قواعد بونابرت أهمية التنظيم والمساندة الإدارية واللوجستيّة، والتحرّك بقوى متفرّقة والقتال بقوى مجتمعة.

وعلقت في ذهني قاعدة واحدة شدّد عليها ماو تسي تونغ، هي ضرورة التلاحم بين الشعب والجيش. واسترعى انتباهي الشعار الذي

مكتبة الفكر الجديد

رفعه لينين وستالين وهو "تفتيت القوى في سبيل الإعداد للمعركة وليس المعركة في سبيل تفتيت القوى".

وفهمت أيضًا دور الشعارات التي تختصر مبادىء الحزب ومواقفه السياسيّة.

كذلك فهمت دور الأناشيد والهتافات والصيحات. وهو دور ذو وظيفتين: أولى إذكاء الحماسة الذاتية، وثانية شحذ الهمم.

وتعلّمت أن اللجوء إلى الأغاني الحماسيّة في تمرينات المشي الطويل يسلّي المقاتل ويساعده على الصبر، وعلى مواجهة بطء عبور الوقت.

وكثيرًا ما كنّا نمارس الركض في الليل ونحن ننشد أغاني وطنيّة برغم أننا مرهقون. نركض مسافة بعيدة كي ندفأ، وحين نتعب نلوذ بخيامنا وننام.

في الليلة الوداعية، وكان الجوّ باردًا جدًّا، استدعاني قائد المعسكر، طلب أن أذهب أنا وشكسبير والزرزور إلى حقل مجاور وجلب رزمة من الحطب.

نفّذتُ الأمر.

في الطريق، قلّد الزرزور عواء الكلب. من سمع العواء بدون أن يرى مُطلقه لم يشكّ في أن مصدره كلب وليس إنسانًا. الزرزور ضخم وملتحٍ. يردّد أنّه لن يحلق ذقنه إلاّ عندما تنتهي الحرب. ذو مزاج غريب. يستلقي أرضًا ويتأمّل السماء. كثيرًا ما ظننّاه غافيًا وقصدنا إليه نوقظه. فنجده مفتّح العينين، ساهمًا. يزعم أن لديه قدرة على ترتيب الغيوم وفقًا لأشكال يتخيّلها خلال تأمّلاته. يحبّ النساء. سرق مجوهرات أمّه وأنفق ثمنها على العاهرات والكحول والحشيشة. أعجبني قوله إن الحرب كالعاهرة. كلتاهما لا تشبع. الأولى من الدماء

مكتبة الفكر الجديد

والثانية من الرحال. حالته كحالتي. ليس من أقرباء له في بيروت. في الثكنة يأكل وينام. انتسب إلى عدد من الأحزاب. أهمّيّة الحزب عنده في الطعام والفراش اللذين يؤمّنهما له. وَشَم على زنده شعار أحد الأحزاب. عندما زعل من الحزب رسم وشماً لحزب آخر على زنده الثاني وأزال الوشم الأوّل. اشترك في دورة التدريب هذه، ليستريح بعيدًا من المتراس. قلّما يخرج بلا مسدّس. عنده الـ 14 أفضل المسدّسات. تستطيع به أن تفتح جبهة. يقول ذلك وهو يرفعه استعدادًا لإطلاق النار على وطواط عَبَر فوقنا.

شكسبير قصير وهزيل. لُقِّب بهذا الاسم لأنّه لا يجيد القراءة والكتابة. لم يسبق أن دخل مدرسة. في البدء، اعتقد أنّ شكسبير اسم نجم سينمائيّ. نفخ صدره متباهيًا لمّا علم أن صاحب الاسم أهم شعراء الإنكليز. أحيانًا يحكي وهو نائم، ومن المتعذّر أن تفهم كلمة منه. إن لم تجده في الثكنة أو في الجبهة فهو حتمًا في محلّ الفليبيرز المجاور للثكنة. الجانب الأيمن من وجهه مشوّه بماء النار. رشقته به فتاة من ضيعته افتضّ بكارتها ونفى فعلته. ما زال يحبّها. مرةً، ضبطته في الخيمة يداعب نفسه وقبالته صورة لسعاد حسني مقصوصة من مجلّة. إذ رآني بادرني: "على نيّتها ولا جميلتها". والـ "ها" هنا عائدة إلى تلك الفتاة.

مشينا ثلاثتنا في العتمة فرِحين بالامتياز الذي خصّنا به المدرّب.

جمعنا أغصانًا يابسة في أكوام، أحكمنا ربط الحبال حول ست رزمات، حمل كلّ منّا اثنتين وانطلقنا راجعين.

على طريق فرعيّة، سيّارة هوندا بيضاء متوقّفة. ليس صعباً معرفة سبب وقوفها في هذا المكان. أوراق المحارم المبعثرة تشي بأنّه مناسب للقاءات الحميمة.

مكتبة الفكر الجديد

دنونا من السيّارة. لفتنا اهتزازها المتقطّع وزجاجها الذي غبشّه اللهاث. أرخى شكسبير الرزمتين على الأرض، واقترب من باب السائق. برأس إصبعه نقر على زجاج النافذة، ووجّه المصباح إلى داخل السيّارة. وضع الرّجُل يديه على عينيه متفاديًا النور المفاجىء، ونهض عن المرأة رافعاً كلسونه وبنطلونه اللذين كانا هابطين إلى ما تحت الركبة. الصدمة جمّدت المرأة حيث هي: مستلقية، مشعّثة الشعر، أحد ثدييها ظاهر كلّه ونصف بطنها مكشوف.

واتّجه الزرزور إلى الباب الآخر، جهة الفتاة.

حاولتُ ثنيهما عمّا يتويان فعله. فلم ينصتا إليّ. حتّى إنّ الزرزور دفعني وطلب أن لا أتدخّل.

رميتُ رزمة الحطب التي كنت أحملها، وجلست عليها، مراقبًا ما يجري.

ترجّل الرّجُل من السيّارة خائفاً. أخذ يتوسّل ألاّ نؤذيه ورفيقته. قال خذوا كلّ شيء واُتركوها ترحل.

هجم الزرزور عليه وراح يلكمه. حاول الرجل صدّ لكماته بتخبئة وجهه وراء يديه.

ثم تعاركا. لكن شكسبير حسم الموقف. بكعب المسدس ضرب الرجل على رأسه فأُغمي عليه.

خافت المرأة وبدأت تستر نفسها. بكاؤها المستغيث لم يردع شكسبير عن شدّها من شعرها إلى خارج السيّارة. ثم عانقها من الخلف وأقفل فمها بكفّه.

لم يصدّق الزرزور ما تراه عيناه. قرفص ووضع ركبتيه على سكربينتيها كي يمنع رِجليها من الحركة. وقبض بأسنانه على حافة

مكتبة الفكر الجديد

التنورة ورفعها إلى أن بان كيلوتها، فأنزله متمهلاً ثم رماه نحوي. أثبت يديه على قدميها، وأغرق رأسه بين فخذيها.

حين أفاق رفيقها من إغمائه، تخلّى شكسبير عن الفتاة وهبّ إليه، طوّق رأسه بيديه وراح يضرب به الأرض حتّى أفقده الوعي مجدّدًا.

في هذه الأثناء، غافلت المرأة الزرزور ونجحت في الفرار. لحق بها شكسبير وانقضّ عليها. قاومته. صفعها وجرّها إلى حيث السيّارة. أجبرها على الانحناء واضعة يديها على مقدّمها. أفرج ساقيها بقدميه وجاءها من خلف. ثم تلاه شكسبير، وهي لم تزل في المكان نفسه، فوضع ساقيها على كتفيه وولجها.

كانت المسكينة تبكي بصمت وهي تنظر إلى رفيقها المُلقى على بعد أمتار قليلة. وما إن تركاها حتّى ركضت صوبه.

بحث شكسبير عن الكيلوت. حين وجده، تأمّله واشتمّه. ثم قلّبه بين يديه مثلما يقلّب الخبّاز شرحة العجين حتّى تتمدّد قبل وضعها في الفرن.

إلى المعسكر رجعنا برزمات الحطب.

يسبقنا الزرزور، يلقي رزمته أرضاً ويبدأ بالدبكة ملوّحًا بحاملة النهدين، التي استلّها من جيبه.

اتفقنا على كتمان السرّ. ونمنا غير مصدّقين أن هذه الليلة هي الأخيرة.

اليوم العشرون كان استثنائيًا.

عند الظهر، جاء مسؤول رفيع يواكبه عددٌ من المرافقين.

انتظمنا صفوفًا قبالة منصّة استغرق تشييدها نصف نهار.

مكتبة الفكر الجديد

المدرّب ألقى كلمة قصيرة وتبعه المسؤول متحدثًا عن أهمّية التدريب والانضباط، وعن ضرورة صون الوطن الذي يتربّص به الأعداء.

وفوجئت حين نوّه بتفوّقي في الرماية. وذُهش الجميع حين قطع كلمته وطلب أن أرفع يدي كي يتعرّف إليّ. فخرجتُ من الصفّ ورفعت يدي، وحنيتُ رأسي شاكرًا له اِلتفاتته الكريمة.

قال "هنّيك"، واستأنف خطبته.

ثمّ قُلّدنا أوسمة الدورة التي حملت اسم الشهيد أسامة البحريّ.

وقد تدلّت الأوسمة المزيّنة بشعار الحزب على صدورنا التي لا تزال تحتفظ بآثار جزمة المدرّب.

مكتبة الفكر الجديد

10

عدتُ من المعسكر رأسًا إلى الثكنة. أمضيت فيها اليومين اللذين كان يحقّ لي تمضيتهما أنّى شئتُ بعد التدريب. صيتي في الرمي سبقني إليها. وكذلك إشادة المسؤول الرفيع بـي. صباح اليوم التالي، استدعاني القائد إلى مقرّه، وهنأني. قال إنّه يفتخر بـي وبأمثالي الذين يشرّفون الحزب. وقال إنّه أصدر أمرًا قضى بانضمامي إلى وحدة يترأسها نابليون لحاجة الوحدة إلى رامٍ جيّد.

ولدى انصرافي، قال إنّ بابه مفتوح دومًا إن احتجتُ إلى أيّ شيء.

أخبرتُ عزيزي بانضمامي إلى وحدة نابليون. لم يعلّق. قرأتُ في سكوته أن سوء الحظّ قادني إلى مكان لا يتمنّاه لي. تفاديت الاستفسار كي لا أحرجه. ربّما لا يريد الإفصاح عمّا لديه لأنّه لا يعرفني جيّدًا. أو ربّما يريدني أن أكون في الوحدة التي ينتسب هو إليها.

التقيتُ نابليون فوجدته لطيفًا. رحّب بـي، وقال إنّه سمع عني كلامًا طيّبًا، وإنّه سعيد بأن أكون في عداد رجاله. كدتُ أحتجّ لَمّا عدّني واحدًا من رجاله، لكنّني عدلت. لعلّ هذا التعبير مألوف لدى قادة الوحدات. فأنا أرفض أن أكون تابعًا لأحد، حتّى للحزب

مكتبة الفكر الجديد

نفسه. فكيف له. كأنّه شعر باحتجاجي الصامت، فأفاض في الكلام على الروح الأخوية التي تسود وحدته. قال إننا، كلّنا، يد واحدة، ما يصيب عنصرًا منّا يصيب الجميع. وشدّد على أنّ كـــلّ مـــا نـــراه ونسمعه لا يجوز أن يعرفه أحدٌ. عندما رآني أهزّ رأسي، وهو يحكي، بسط يده فصافحته إشارةً إلى الموافقة.

في الأسبوعين الأوّلين، شاركتُ في مهمّات كثيرة: إقامة حـــواجز طيّارة، عمليّة دهم بيت تاجر مخدّرات، القبض على عصابة متخصّصـــة بسرقة السيّارات، حراسة الثكنة، السهر على خطوط التماسّ...

في هذه المهمّات كلّها، تصرّف نابليون كما يجدر بالمســـؤول الواعي أن يتصرّف. وازداد إعجابـــي به عندما أوقفنا علـــى أحـــد حواجزنا شابًّا من طائفة أخرى، يخبّىء مسدسًا في أسفل ساقه. عامله معاملة محترمة، وأوصى العنصرين اللذين تولّيا نقله إلى مركز الأمـــن بعدم إيذائه.

إعجابـــي ذاك لم يدم طويلاً. ففي إحدى الليالي، اســـتدعاني وقال لدينا أمر عسكريّ بالغ السريّة، وقد اختارني ورفيقًا آخر اسمـــه نانو للمشاركة في المهمّة.

في السّاعة الصفر، انتقلنا في سيّارة جيب عسكريّة. كان نـــانو يقودها، ويجلس هو إلى جانبه، وأنا في المقعد الخلفي. بعـــد قرابـــة عشرين دقيقة من انطلاقنا، ركنّا سيّارة الجيب في شارع مظلـــم، ثم انتقلنا إلى سيّارة متوقفة في الشارع نفسه. فتح نابليون بابها بمفتـــاح منفرد، فصعدنا إليها، ساقها هو، وجلس نانو إلى جانبه، وجلســـت أنا في المقعد الخلفي. لم يسبق أن رأيت هذه الســـيّارة. ولمـــا كـــان نابليون يملك مفتاحها فهو حتمًا صاحبها.

مكتبة الفكر الجديد

وبعد أقلّ من ربع ساعة، أوقفناها في شارع مزدحم بالمارّة، ومتاجره تقفل أبوابها. إنّه وقت عودة أصحابها والمستخدمين إلى البيت مكتفين بالرزق الذي أنزله الله عليهم. وفيما كان نابليون ينظر إلى ناحية معيّنة من الشارع، مضى يشرح لي ولنانو المهمّة. يشرح وعيناه مسمرّتان في مكان واحد، كأنّه يخشى، إن هو نظر إلى جهة أخرى، أن يفوته شيءٌ قد يفضي إلى فشل المهمّة.

بعد الشرح، فهمنا السبب الذي يقف وراء مجيئنا إلى هذا الشارع تحديدًا. وعرفنا أن الهدف هو صاحب محلّ للمجوهرات، وأن علينا تلقينه درسًا لأنّه آوى في منزله عملاء، ثم سهّل لهم العبور بسيّارته إلى ما وراء خطوط التماسّ.

خرج الرجل من المحلّ بحقيبة سوداء كالتي يحملها رجال الأعمال، وتبعه فتى يعمل لديه. راقب الصائغُ الفتى وهو يحكم إغلاق القفلين في الباب الجرّار، ثم حنى إلى طرف الباب، وأقفل السكر الثالث. وبعدما تفقّد القفلين الأوّلين وتأكّد أنهما مغلقان، ربت كتف الفتى ومشيا معًا مسافة قصيرة ثم افترقا.

اتّجه الرجل إلى سيّارته المركونة في مكان مذكور فيه رقم السيّارة على لوحة معدن بيضاء معلّقة بالحائط. وضع الحقيبة على المقعد بجانب مقعد السائق، ثم خلع سترته ورماها على مهل إلى المقعد ذاته. جلس وراء المقود، صحّح وضع المرآة أمامه، أدار المحرّك، انتظر قليلاً ثم انطلق.

تبعناه.

أمرنا نابليون بأن لا نطلق النّار إلاّ دفاعًا عن النفس. وقال إنّه يعطينا التعليمات الضروريّة في الوقت المناسب، ولا لزوم لإشهار

مكتبة الفكر الجديد

الرشّاشات، فالمسدّسات كافية. كنت كالذاهب في نـزهة. أنظر إلى جانبَي الطريق، وإلى السيّارات التي تعبر في موازاتنـا. وبين حين وآخر، أنظر إلى سيّارة الصائغ الذي تسبقنا بنحو خمسة عشر مترًا. ولمّا انعطف سالكًا طريقًا جبليًّا، انعطفنا، وبقينا وراءه. من باب التمويه، وكي لا يلاحظ أنّه مُلاحق، كان نابليون يسمح لإحدى السيّارات بأن تتجاوزنا وتسير خلفه، فتصبح بين سيّارتنا وسيّارته.

فوجئنا عندما بدأ الضوء الخلفي الأيسر لسيّارته يشير إلى التوقّف. تخطّيناها، وخفّفنا السرعة ثم انتظرنا قرب مبنى مجاور. نـزل الرجل، دخل الصيدليّة وعاد وفي يده كيس أبيض صغير. مرّ بالسيّارة في محاذاتنا، حاولت أن أتبيّن وجهه، فلم أرَه جيّدًا. كان يضع نظارتين، يسوق باليسرى، وباليمنى ربّما يحرّك زر الراديو أو يفعل شيئًا آخر.

تبعناه مجدّدًا.

وصلنا إلى تقاطع طرق. شاحنة تسبّبت بزحمة سير وهي ترجع وتتقدّم بصعوبة نحو المدخل الضيّق لأحد المستودعات. تجنّب نابليون الوقوف وراء الرجل أو إلى جانبه. سيّارتان فصلتانا عنه. وما إن فُتحت الطريق وانطلقت السيّارات حتّى عدنا إلى وضعنا السابق. هو أمامنا ونحن وراءه.

وعندما قلّ عدد السيّارات، تجاوزناه مُسرعين.

وبعد مسافة غير قصيرة، أوقف نابليون السيّارة، ترجّل منها، انتصب في منتصف الطريق، ومضى بيديه يلوّح للرجل كي يتوقّف. فتوقّف. ركض نابليون نحوه، فتح باب السيّارة، شهر مسدسه، سدّده إلى رأسه، وأمره بأن يركن السيّارة إلى جانب الطريق. فأذعن.

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ أنا ونانو نراقب ما يجري مشدوهَيْن، لا ندري ماذا علينا أن نفعل. بقينا جالسيْن لكننا مستعدّان لمواجهة كلّ طارىء. ثم رأينا نابليون ينهال بعقب المسدس على رأس الرجل، ويرجع ومعه الحقيبة السوداء الذي خرج بها الصائغ من محلّه.

وقبل أن يسلّم الحقيبة إلى نـــانو، ويــدخل الســيّارة، أطلــق الصائغ رصاصتين أصابت إحداهما نابليون الذي هوى وراء المقــود. فنـــزل نانو وردّ على الصائغ ببضع طلقات. ثم صــعد إلى الســيّارة وأقلعنا.

رفعتُ رأسي من المقعد الخلفيّ، رأيتُ الصائغ يضع يده علــى بطنه ويرتمي على مقدّم سيّارته.

نابليون أصيب في زنده الأيمن إصابة ليست بالغة مع أنّ الــدم لم يتوقّف عن النــزف. لحسن الحظّ لم ينتبه أحــد مــن العــابرين بسيّارتهم في تلك الأثناء إلى ما يحصل، أو أنّهــم انتبــهوا وتفــادوا التوقّف.

رمى نابليون إليّ رزمة مفاتيح وقال بلهجة آمرة محفوفة بشــيء من الألم: "احتفظ فيها".

إنّها للصائغ وقد أخذها نابليون كي لا يستطيع اللحاق بنا.

ماذا أفعل بها؟

ولماذا سلّمها إليّ؟

لِمَ لا يحتفظ بها هو؟

لم أطرح هذه الأسئلة بصوت عالٍ وهو يئن متوجّعًــا. عنــدما اطمأنّ أنّنا صرنا في أمان، توقّف، وطلب من نانو أن يسوق. ترجّل وهو ممسك بزنده وجلس في المقعد إلى جانب السائق.

مكتبة الفكر الجديد

استرحتُ عندما استردّ المفاتيح. نظر إلى الرزمة ثم وضعها في جيبه.

اقترحتُ عليه الذهاب إلى أقرب مستشفى لمداواة مكان الإصابة. رفضَ لمعرفته أن إدارة المستشفى تبلغ مخفر الدرك عن كلّ حالة تشبه حالته. لاحقًا، عرفت أنّ قريبة له، وهي ممرضة متقاعدة، تولّت اقتلاع الرصاصة وتقطيب الجرح.

لم يفتح نابليون الحقيبة في حضورنا، بحجّة أنّها لربّما تتضمّن أوراقًا ليس مستحسنًا أن يتطّلع عليها سوى المعنيّين.

أوهمته أنّي صدّقتُ كلامه.

فالحقيبة قد تكون ملأى بالمجوهرات، ويريد أن يستأثر بها وحده. وتبيّن لي أنّ هذه المهمّة لا صلة لها بأمر عسكريّ صادر عن مرجع حزبيّ عالٍ. إنّها مهمّة خاصّة. فقد راقبَ الصائغَ، وشاء سرقته زاعمًا لنا أنّه هرّب جواسيس من منطقتنا إلى منطقة أخرى.

لم أعرف لماذا اختارني للمشاركة ما دام ليس في حاجة إليّ. والدليل أنّي لم أفعل شيئًا، وكان ممكنًا تنفيذ العمليّة بالاستعانة بشخص واحد لا أكثر. لقد أراد توريطي كي يضمن إخلاصي له، وسكوتي عمّا قد أسمعه وأراه في الأيّام الآتية. تذكّرت قوله لي في لقائنا الأول إنّ ما يجري في وحدتنا يجب أن لا يخرج منها، وإن مَن يسرّب سرًّا من أسرارها يختفي عن وجه الأرض.

بتّ شريكًا في جنحة، وربّما في جريمة. من الممكن أن يكون الصائغ قد مات على الفور. أو جُرح وبقي ينزف حتّى توفّي في حال عدم إسعافه.

مكتبة الفكر الجديد

ورطة كانت ستمهّد لورطات تالية لو لم يتوسّط لي عزيزي لدى قائد الثكنة، ويقنعه بضرورة نقلي إلى وحدة القنّاصين. أخذ عزيزي المبادرة وحده. لعّله عرف شيئًا عن حادثة سرقة الصائغ وأراد انقاذي ممّا هو آتٍ قبل فوات الأوان. ولعلّه فعل ذلك كي يريح ضميره لأنّه يعلم جيّدًا التجاوزات التي اعتادها نابليون، ومن المحتمل أن لا أبقى في منأى عنها. أو قد يكون خوفه عليّ وراء وساطته.

نُقلت إلى وحدة القنّاصة برغم امتعاض نابليون من القرار المفاجيء، لكنّه كتم تذمّره وتمنّى لي التوفيق، على أن أحترم الوعد الذي قطعته فأنسى كلّ ما رأيته وسمعته وفعلته خلال خدمتي بأمرته.

مكتبة الفكر الجديد

11

وعدني العرّاب، آمر وحدتي الجديدة، بأنّ مفاجأة تنتظرني إذا جاءت غلّة القنص جيّدة.

كرّر ذلك على مسمع من بضعة رفاق يشربون قهوة الصباح، وهو يضع يده على شاربيه. وهذه عادةٌ لديه يلجأ إليها متى أراد الإيفاء بالوعد.

قبل انصرافي، دسّ في جيبي شيئاً صغيراً ثم دنا مني وهمس: "باب أوّل. زهرة، وحياتك".

ظنّ أنّي أحشش ككثير من الشباب. لم أردّها خشية أن يعدّ الرفض إهانة.

حملتُ بندقيّتي المزوّدة منظاراً مقرّبًا، والجعبة وقنينة المياه. ركبتُ سيّارة جيب كانت تنقل رفيقين إلى خطوط التماسّ.

الجبهة هادئة لا يُسمع سوى هدير محرّكات المركبات المصفّحة.

أصعدُ إلى بناية السردين التي لا أعرف سبب تسميتها هذا الاسم. قالوا إنّ مالكها كان صيّاد سمك متواضعًا، وقد اشتراها من تاجر أرمني قبل ثلاث سنوات من اندلاع الحرب.

أبلغُ الطبقة العاشرة لاهثاً، وأستطلعُ المنطقة المُقابِلة.

مكتبة الفكر الجديد

من كوّة لا تعبر منها طابة صغيرة، أرى دكاكين وملحمة ومحلاً لألعاب الفليبرز. وأرى مدرسة وقسمًا من الملعب، وطريقًا خاليةً من العابرين، وسيّارات على جانبيها محترقة وأخرى غير صالحة للسير. وأرى سطوحًا وخزّانات مياه وحبالاً لنشر الغسيل. وفي البعيد، أرى مباني متلاصقة يتوسّطها برج يسمّونه في نشرات الأخبار "برج الضباب".

من كوّة أخرى، أرى جزءًا من مدخل المستشفى المقفل بأكياس الرمل، ولافتة منتصبة في وسط الشارع كُتب عليها "انتبه قناص".

لا ألمح أحداً دخلَ المستشفى أو خرج منها. فحركتا الدخول والخروج تتّمان وراء سواتر عالية.

بندقيتي الآن بجانبي. منظارها يتيح لي رؤية ذلك كلّه. وبوساطته أستطيع قراءة أسماء المتاجر، ومعرفة محتويات واجهات بعضها.

في أثناء الانتظار، أتفحّص "الزهرة". أشتمّها. أقرر أن أهديها إلى الحنون. ثم أعدل. أرغب في حرقها. أحبّ رائحتها تماماً مثلما أحبّ رائحة شواء الفروج أو قطع اللحم أكثر من أكلهما. أعثر على علبة تونا فارغة. على كفّي، أقطّع "الزهرة" فتاتًا. أضع كِسرة على حافة قفا العلبة، ومن القدّاحة أرسل النار إليها. فتشتعل. أرفع العلبة صوب أنفي وأتنشقّ أريج الكِسرة. وهكذا حتى أتيت على الفتات كله.

انتشيتُ.

لكنّ هذا الانتشاء لم يدم.

مكتبة الفكر الجديد

يهبّ هواءٌ عابق برائحة كريهة ربّما ناتجة من جيفة أو من جثّة منسيّة. أتبع أثرها من غرفة إلى أخرى. أحتاط حين مروري بإحدى النوافذ، أحني رأسي لئلاّ أكشف نفسي للعدو في الجهة المقابلة.

لم أصل بعدُ إلى مصدر الرائحة. لعلّه في الغرفة التي أوشكت أن أدخلها الآن. جرذٌ منتفخ يؤوي جيشاً من الذباب، وكتلٌ متفرّقة من البراز اليابس. الرائحة متأتّية من الجيفة دون سواها. لا رائحة للبراز عندما ييبس، ولا مذاق له. أقول ذلك نقلاً عن الزرزور. فهو خُطف مرةً وأرغمه خاطفوه على أن يأكل البراز. ففعل. كان البراز يابساً، فقرقشه ثم ابتلعه، ولم يشتمّ له رائحة.

بالقضيب الحديد أجُرّ الجرذ إلى سطح كرتونة بيض، وأرميهما معاً، الكرتونة والجرذ، إلى الأسفل.

وأعود إلى الكوّة.

لم تزل الحركة مشلولة في الاتجاهين اللذين أترصّدهما.

في الظهيرة، بدأ الناس بمغادرة الملاجىء إلى البيوت بعد ليلة من القصف المتواصل.

أنتقي أحدهم على درّاجة هوائيّة. لكنّي أعجز عن إطلاق النار عندما تصبح الضحية في مرماي.

شيء ما يجعل إصبعي متجمّدة على الزناد، فلا أقوى على ضغطه.

يمرّ في فكري أقرباء وأصدقاء قُتلوا برصاص القنّاصة. قتلوا على مدخل الفرن. في محطّة المحروقات لدى الانتظار لتعبئة تنكة بنزين. في الطريق إلى المستشفى. لدى العودة من العمل إلى البيت، أو بالعكس. لدى احتساء فنجان القهوة على الشرفة...

مكتبة الفكر الجديد

كان القنّاصون في المرصاد، يزرعون الرعب بالرصاص الغدّار في ساعات الهدوء الذي يعقب جولات القصف المتبادل.

طالما عاتبت نفسي على قبولي مثل هذه المهمّة. أصبحتُ أحد أبرز المُنتَخبين لها بعدما أُشيع أنّي أستطيع بالكلاشينكوف إصابة عصفور الدوريّ وهو طائر. هذه مبالغة لا أدري من أشاعها. لكنّي مرّة، أصبتُ حمامة كانت على حافّة سطح إحدى البيانات. وهذا ليس خبرًا يستحقّ التداول. أحيانًا يصبح عملٌ متواضعٌ بطوليًا بعد ذيوعه. الناس ميّالون إلى زيادة شيء على الحكاية حتّى تغدو حكاية أخرى.

ليتني تفوّقتُ في مجال آخر غير الرماية مع أنّي لا أجيد شيئًا مثلما أجيدها.

أجيء إلى بناية السردين في مواعيد نوبتي، ليس للقنص. كثيرًا ما كنت أنام. وعندما ينتهي دوام النوبة أعود إلى الثكنة.

أحيانًا، كنتُ أقرأ رواية أو أحلّ كلمات متقاطعة أجمعها من الجرائد المرمية في جوار براميل الزبالة. أصعب شبكة هي المنشورة في صحيفة "النهار". كان حلّها ليس متاحًا لسوى متخصّص باللغة العربية، أو لمن يحفظ "المنجد".

وإذا شئتُ القنص أقنّص ليس الناس بل لافتة من المعدن أو القماش منصوبة على الطريق. أو أسدّد إلى صورة أحد الزعماء المعلّقة بعمود الكهرباء، وأسعى إلى تطريزها بالرصاص. أو أرمي على طائرات الورق التي يطلقها الأولاد في ملعب المدرسة. كنت أعرف أنّ إصابة الطائرة ضرب من المستحيل، لتحرّكها الدائم على كفّ الهواء. أفعل ذلك بعد أن أملّ القراءة أو حلّ شبكات الجريدة.

مكتبة الفكر الجديد

أتسلّى. لا شيء بطيئًا مثل الوقت الذي تقضيه في عمل لا يستهويك، وفي مكان لا تصدّق متى تغادره ولا تعود إليه.

كنت أراني، وأنا خلف كوّة الرصد، جبانًا. أمّا عندما أكون في المتراس فأشعر أنّي مقاتل حقيقي.

بو فهد، القنّاص الذي أتناوب وإيّاه على القنص، أخبرني بأنّ سعادته القصوى عندما يقنص أحدهم ويرى المارّة وقد تجمهروا حوله. قال إن نوبة من الضحك تدهمه في تلك اللحظات، فيستأنف القنص على المحتشدين حتّى يتفرّقوا. ثم يكمل القنص على الرجل الجريح إلى أن يتأكّد له موته. ومنتهى التشويق حين يروح يصطاد كلّ من يدنو إلى الضحية. لطالما تباهى بأنّه أردى مُسعفًا على الجثّة نفسها التي حاول جرّها إلى مكان آمن. كان يروي المشهد كأنّه يروي نكتة يقطعها ضحكه المفتعل. ويتوّج ابتهاجه بكأس عرق وتوابعها حالما يسمع من الراديو، أو من أحد الرفاق، أن مواطنًا سقط برصاص القنص في المحلّة الواقعة على مرمى ناره. كان الخبر الإذاعي بمنزلة شاهد إثبات.

يحرصُ بو فهد على تدوين اسم القتيل على ورقة تتضمّن بضعة أسماء يزعم أنّها أسماء ضحاياه، ما عدا الذين فاته معرفة أسمائهم. كان يلتقط الأسماء من الإذاعات، يسجّلها ويسجّل اسم المحطّة التي أذاعت النبأ وتاريخ البثّ.

وكان كلّما شاء مواساة رفيق استُشهد أحدُ أقربائه أو أصحابه، وعَدَه بأنّه سيثأر له. والثأر بقنصه عابرًا ليس مهمًّا من هو، المهمّ أنّه من المنطقة الأخرى. وحالما يتمّ الثأر ينقل شخصيًّا البشرى إلى الرفيق مستبقًا بثّ الخبر من الراديو. ويفتخر بأنّه أسدى بثأره هذا خدمة كبيرة إلى اثنين: رفيقه والوطن.

مكتبة الفكر الجديد

ولطالما أذهلني تبجّحه بأنّه ينتظر بلوغ عدد ضحاياه الخمسين كي يحتفل على طريقته، فيقيم عشاءً عرمرميًّا في شقّته المُصادرة، يدعونا إليه، نحن زملاءه، أنا والعرّاب وهدهد.

كان بو فهد يعدّ نفسه قنّاصًا لا يُضاهى، خصوصًا بعدما انتشر اسمه بين أهالي الجهة المعادية. شبّان رفعوا لافتة كبيرة كتبوا عليها "بو فهد ارحل من هنا". ثم علّقوها في المبنى المقابل.

لستُ أدري كيف عرف هؤلاء اسمه، ومن سرّبه إليهم.

خشيتُ أن يعرفوا اسمي أيضًا. صحيح أنّ اسمي الحقيقيّ: عابر ليطاني لا أحد يعرفه، لكن ليس صعبًا أن يقودهم إليّ لقبي: عتريس. فالحرب لن تستمرّ إلى الأبد. ستنتهي يومًا ما. ومن المحتمل أن يأتي أهل أحد القتلى، ويبحثوا عمن كان يقنّص من هذه البناية في تاريخ معيّن. وليس مستبعدًا أن يجدوا من يرشدهم إلى الشخص المطلوب. فبالمال يمكنهم الحصول على ما يريدون، وليست كلّ النفوس مترفّعة تأبى الوشاية والكسب السهل.

فوجئتُ حين اكتشفتُ السرّ الكامن وراء انتشار اسم بو فهد. فقد كتبه بخطّ عريض تحت إحدى نوافذ "بناية السردين" مسبوقًا بكلمة "مقنصة". وسمعته يعلّل للعرّاب سبب هذه التسمية. قال إنّه اختارها على وزن محمصة ومطحنة ومصبغة. كأنّ القنص حرفته. وعلى غرار غالبيّة الحِرَفيّين، يضنّ بأسرار صنعته، فلا يفشيها إلاّ للمشغوفين مثله بالحِرفة. فهو تفادى تلقيني أيًّا من تلك الأسرار، وأنا لم أسأل. فما جئت من الضيعة إلى بيروت كي أقتل الناس.

كان يقول إن الدّعبول معلّمه، وإنه، رحمه الله، أمهر القنّاصين، قُتل وهو يقنّص. أُطلقت عليه قذيفة آر بي جي فحرقت نصفه الأعلى.

مكتبة الفكر الجديد

وكثيرًا ما عدّني خليفته. ويستتبع قولـه هـذا بـ "سـلامة قلبـي"، وهو يضع يده على صدره، جهة القلب، ويضحك ثم يبتر الضحكة، ويعبس كأنّ فكرة الموت أعادته إلى ذاته.

فلو أنّه علم المشاعر التي تعتريني كلّما نظرت من الكوّة، لغيّـر رأيه فيّ.

لّما كنت أرى في المنظار ضحيّتي المحتملة تنتاب يديّ رجفةٌ فأفقد دقّة التصويب. وشيء مثل غشاوة يغطي فوّهة المنظار فلا أعود أرى، وإذا رأيت فلا أرى جيّدًا. غشاوة كان يطلقها عدم اقتناعي بما أفعل، ورفضي إزهاق روح ذنبُ صاحبها العبور في هذه اللحظة المشؤومة.

لكنّي كنتُ أجد متعة حين أمازح كشّاش الحمام الذي كـان عند الغروب يطلق طيوره ويناديها بعصا عليها خرقة سوداء، فـتفهم الإشارة وتخضع لها. ولدى عودة السرب أطلق عليه النار، فيبتعـد، وتتفرّق صفوفه حتّى يغدو جمعها صعبًا.

كان الكشّاش يجنّ، ويترجم غضبه بتحريك العصا علـى نحـو هستيري، ويتضاعف الغضب حين ترفض الطيور أوامره. يخـاف أن تختلط بالأسراب العابرة. يخاف أن تلتحق إحدى حمائمه بسرب مُعادٍ وتتآلف معه وتصبح منه. وطالما هو ضمّ إلى سربه طيورًا سرقها مـن أسراب الآخرين. سرقة الحمائم حلال لدى الكشّاشـين. ويتبـاهى أحدهم بأنّه أمهر من سواه في استدراج حمامات غريبـة إلى سـربه. فالحمامة المُستدرَجة لا تعدّ مسروقة وسريعًا ما تصبح من أهل البيت. لا يحقّ لصاحبها المطالبة بها وإنْ عرف مكان السرب الذي اختطفها. قد يردّها إليه الكشّاش من باب اللياقة، والمبادلة بالمثل، ولـيس مـن قبيل أنّ الردّ واجب وحقّ.

مكتبة الفكر الجديد

لا أنسى يوم بقي الكشّاش ساعات محاولاً إرجاع سربه، وأنا كلّما حام السرب حول السطح تمهيدًا للهبوط، أطلقتُ نحوه عيارين أو ثلاثة، فترتبك الطيور، يصطدم بعضها ببعض وهي تهرب فتعلو. ويجهد الرجل مجدّدًا في إعادة جمع شملها، قبل أن يرسل إليها إشارة النزول. وما إن تنجح محاولته ويوشك السرب أن يبيت حتّى أفرّقه بطلقتين. يثور الرجل فيركل أشياء على السطح ويلوح بالعصا تلويحًا لا يُفهم منه سوى أنّه فقد صبره. كان ينظر إلى الفضاء لاعنًا طيوره العاصية أوامره على غير عادتها.

ما كان يجعله يفقد عقله هو أنّه لم يكن يعرف السبب الذي يدفع حماماته إلى الابتعاد فجأة عن مأواها. فبندقيّتي مزوّدة كاتمًا للصوت، لكنّ الطيور كانت تشعر بعبور الرصاصة بينها، فتضطرب وتعاود التحليق.

كان يسلّيني. وطالما افتقدته عندما أجيء إلى البناية ولا أراه. كنت بالمنظار أبحث عنه بين المارّة في الحيّ حيث يقيم، ليس لأقنصه بل لأطمئن عليه. حين لا ألمحه طوال مدّة دوامي، يعتكر مزاجي. لا أعرف لماذا كنت أتخيّله طريفًا. كان يعتمر قبعة قشّ كبيرة كتلك التي يعتمرها المكسيكيون، ويرتدي على الدوام قميصًا أسود ظننته هو والخرقة السوداء التي يعلّقها برأس العصا، من مستلزمات كشّ الحمام.

قلقتُ عليه منذ اختفائه. كانت الحمامات تطير وتهبط، لكنّي لم أرَه.

ربّما قتله بو فهد. أو واحد من زملائي الآخرين.

مكتبة الفكر الجديد

12

توطّدت علاقتي بعزيزي سريعًا. شعرتُ أنّ لي أخًا لم تلده أمّي، وتغلّبتُ على الوحدة الموحشة التي احتاحت روحي منذ مغادرة الضيعة.

وكثيرًا ما أمضينا الليالي نتبادل الآراء والأخبار، ونستمع إلى الموسيقى، وخصوصًا الأغاني الفرنسيّة التي شَغُفَ هو بها شغفًا جعله يتعلّم اللغة الفرنسيّة من دون معلّم مع أن لغته الثانية هي الإنكليزية.

كان جاك بريل وأزنافور وأديث بياف المفضّلين لديه، يحفظ غالبيّة أغنياتهم. ولطالما سمعته مدندنًا إحداها في الثكنة. ولفرط ما استمعتُ وإيّاه إليهم أحببتهم أنا أيضًا، مع أنّي لم أكن أفهم جميع المفردات إلاّ بعد الاستعانة بالقاموس.

كنّا نلتقي في غرفته المتواضعة، المرفق بها مطبخ صغير وحمّام. يسمّيها سكّان البناية والجيران "غرفة الناطور". أمّا هو فيسمّيها "البيت". كان يقول عندما يغادر الثكنة إنّه ذاهب إلى البيت، ويردّ على سؤال "وين كنت؟"، بالقول "بالبيت". فالبيت عنده ليس بعدد غرفه، بل بالطمأنينة الكامنة بين جدرانه وإنْ هو بغرفة واحدة. لفتتني في غرفته الترتيب كأنّما تسكن فيها امرأة هاجسها النظافة، لا شابٌّ يمضي معظم اليوم خارجها. ولفتتني محتوياتها الضئيلة. سرير صغير

مكتبة الفكر الجديد

يُصدر لدى الاستلقاء عليه والنهوض عنه صريرًا يصبح في الليل مزعجًا إذا كان نوم الضيف خفيفاً. فوق السرير لوحة زيتيّة (تحمل اسم "عاشقة شوبّان" وتوقيعًا في الزاوية اليسرى من حرفين .V. M) أهدتها إليه طالبةٌ في كليّة الهندسة، ربطته بها علاقة حبّ. وقربه طاولة صغيرة عليها راديو مع مسجّلة وتحتها كرتونة ملأى بالكاسيتات. وقبالته صوفا يتسع جوفها لأغراض متنوّعة، وتتحوّل سريرًا عند اللزوم. وفي إحدى الزوايا، طاولة مربّعة من النوع الذي يفُتح لدى الاستعمال ويُغلق بعده، وثلاثة كراسي. وبين الطاولة والصوفا، كتب متراكمة في ثلاثة أعمدة يبلغ علوّها نصف الحائط.

في المطبخ الذي كان عزيزي يصفه بـ "عشّ العقربة" لصغره، برّاد لا يتخطّى طوله الخاصرة، وبوتوغاز بعين واحدة متّصل بجرّة غاز، يعلوه رفّ خشب فيه بضعة صحون وفناجين شفة وركوة قهوة. وعلى طرف الرفّ قنديل كاز شوّه الصدأ لوحته النحاس. وإلى يمين الباب، طاولة وكرسيّان من القشّ.

والحمّام مؤلّف من قعدة المرحاض، ومضخّة بجنزير يُشدّ نزولاً فتتدفّق المياه في داخل القعدة.

كان عزيزي يجد الراحة في بيته الصغير هذا، يلوذ به هربًا من صخب الرفاق ومن النميمة التي تغلّف العلاقات وتضرب النفوس. تمنّيت لو أنّي أستطيع السكن وحدي في غرفة مماثلة، بدلاً من الغرفة التي أنام فيها بالثكنة. وتمنّيت أن أنام على بساط أفرشه على الأرض بدلاً من سرير بثلاث طبقات.

المرّات القليلة التي نمت فيها لدى عزيزي، جعلتني أفكّر في مدى أهميّة أن يكون للإنسان بيت.

مكتبة الفكر الجديد

كان عزيزي لا يدعوني إلى المبيت عنده إلاّ في حالات نـــادرة. عندما يبدأ القصف وتغدو العودة إلى الثكنة غير آمنـــة. أو بعـــد أن نشرب وتثقل الخمر رأسيْنا فننام. وحين نفيق في وقت متقدّم، يقـــوم هو إلى سريره، وأنام أنا على الصوفا. عدم دعوته إيّاي إلى المبيـــت، ليس مردّها أنّه غير راغب في رفقتي بل تعلّقه بالعزلة. لذا قلائل هـــم الرفاق الذين يعرفون مكان إقامته. عددتُ استقباله لي دونهم امتيـــازًا يدلّ على مقدار محبّته.

بحدس الصديق الذي يصبح بمرور الوقت يفهم هواجس صديقه ويعرف ما يكره وما يحب، استنتجتُ أنّه أحيانًا يميل إلى أن يكـــون وحده. كنت أحترم رغبته المضمرة هذه، وأحرص دومًا على العودة إلى الثكنة، وإن طالت السهرة عنده.

كنّا نتعاون على إعداد العشاء، أنا أقشّر حبّات الثوم وأهرسها، وأقطّع رؤوس البندورة وأوراق الخسّ وأعصر الحامضـــة، ثم أمـــزج بعضها ببعض كي أصنع صحنين من السَلَطة. وهو يقلـــي الفـــروج والبطاطا ويعدّ صحنًا من الحمّص بطحينة ويرصف علـــى الطاولـــة الصحون وقنينة العرق وبضع كؤوس. في عشائنا الأوّل اســـتغربت كثرة الكؤوس ونحن اثنان. ولم أفصح عن استغرابـــي. لاحقًا عرفت منه أنّ إحدى قواعد الشرب، وخصوصًا العرق، تقضي بتغيير الكأس كلّما فرغت.

نتعشّى ونحن نستمع إلى الموسيقى، ومرّات إلى إحدى مسرحيّات فيروز. كان عزيزي يحفظ عبارات كـــثيرة مـــن تلـــك المســـرحيّات، ويستشهد بها تعليقًا على موقف معيّن. وتنتشر بين الرفاق فيكرّرونهـــا. وحين ينسبونها إليه يحتجّ ويلفتهم إلى أنّها للرحابنة وليست له.

مكتبة الفكر الجديد

عندما قلّبت صفحات كتاب من كتبه بعد طلب الإذن، قرأتُ على هوامشها ملاحظات بخطّ اليد. إنّه خطّه الذي أعرفه جيّدًا. كان عزيزي هو الوحيد في الثكنة، ما عدا عددًا ضـئيلاً ممـن يتـابعون الدراسة، يقرأ. طالما شاهدته يفكّ زرًّا من قميصه، جهة البطن، ثم يسحب كتابًا ويمضي يطالعه، وهو ممسك بقلم الرصـاص. كانـت معظم كتبه سياسيّة وتاريخيّة. ويبدو أنّه لم يُكمل بعضها بدليل الورقة التي يلصقها بالصفحة التي وصل اليها. كانت هذه الورقة متروكـة حينًا، في ربع الكتاب، وحينًا في منتصفه. وهنالك كذلك دليل آخر هو الملاحظات التي كانت تظهر في الصفحات التي شملتها القـراءة، وتغيب عن الصفحات المهملة. جرّبت أن أطالع واحدًا مـن كتبـه، لكنّي مللته بعد بضع صفحات. وحدها الرواية البوليسيّة تشدّني إلى القراءة حتّى الصفحة الأخيرة. أزعجني إلماحه إلى أنّه يقرأ ليتثقّـف لا ليتسلّى تعليقًا غير مباشر على انحيازي إلى أدب الجريمة.

كان يمدّني بسِيَر العظماء بعدما حثّني على مطالعة هذا النوع من الكتب. فقرأت "كفاحي" لهتلر و"مذكّرات، أفكـار، ذكريـات" لبسمارك.

ربّما نتيجة ميله إلى التاريخ وتجارب السياسيين والقادة الكبار، راح على دفتر مسطّر، يكتب يوميّاته. كان يخبّئ الدفتر تحت بلاطـة بعد إزالة مقدار من التراب بحيث لا يثير وضعها الانتباه. ولمزيد مـن التمويه، اختار البلاطة التي تستند إليها إحدى قوائم السرير، جهـة الرأس. وكلّما أراد الكتابة رفع جانب السرير قليلاً، ثم البلاطة وأخذ الدفتر من تحتها. ويقوم بالفعل نفسه لدى إرجاع الدفتر إلى مكانـه. حيلة ذكية لم أقرأ مثلها في أيّ من الروايات.

مكتبة الفكر الجديد

كنت نائمًا عنده حين نهضت بعد منتصف الليل إلى الحمام، فرأيته يكتب، وهو في الفراش، على ضوء القنديل.

صباح اليوم التالي، أخبرني أنه يدوّن اليوميّات منذ كان في الرابعة عشرة. قال إن لديه بضعة دفاتر في الضيعة، أخفاها أبوه عندما جاء هو إلى بيروت.

وهنا، في غرفته هذه، أتمّ دفترين يحتفظ بهما مطمورين في التراب بمكان آمن لم يفصح عنه. أثار فضولي لمّا رفع دفتره بحركة مسرحيّة وهو يقول إنّ مضمون هذا الدفتر خطر جدًّا، وقد يصبح الدم إلى الركب في حال شيوعه. ومازحني بالقول إن رواياتي البوليسية تبدو فقيرة مقارنة بالمعلومات الواردة في دفتره.

لم أطلب أن يطلعني عليه. من الطريقة التي يتحدّث بها عن الدفتر، والحرص الشديد على تخبئته، توقّعت الرفض. فلو أنّه أراد اطّلاعي عليه لفعل.

لكنّه غير مرّة أوصاني بصوت مترجّح بين التردّد والرغبة في البوح، أنّ أصون الدفتر إذا أُصيب هو بمكروه.

المهمّ ألاّ يقع في أيدٍ غريبة خبيثة.

"يبقى معك أو النار" قال وهو ينظر إليّ نظرة تعذّر عليّ فهم معناها.

لكنّها هزّتني. فهو من أقدم الشباب في الثكنة، يعرف الجميع جيّدًا، لكنّ لا أحد يعرف عنه أكثر ممّا يبيح هو للآخرين معرفته. حتّى أنا لم أعرفه مثلما ينبغي للصديق أن يعرف صديقه. ربّما طُبِع على التكتّم متأثّرًا بأبيه الذي خدم في الشعبة الثانية بالجيش حتّى تقاعده.

مكتبة الفكر الجديد

بعدما حفّ الخوفُ بأسئلتي الصامتة، شاء طمأنتي. قال إنّـــه لم يكتب كلّ ما عايشه ورآه وكوّنه من انطباعات، وإنّه اكتفى بكتابة رؤوس أقلام ينعش بها الذاكرة متى شاء استرجاع التفاصيل. وقال إنّ اسمي مذكور غير مرّة في الدفتر. ولم يضف شيئًا إلى ذلك، منتظرًا أن أستوضحه، لكنّي بادلتُ اعترافه بالابتسام.

لم أسأله لماذا سلّم إليّ أنا تحديدًا هذا السرّ.

وجدتُ في مثل هذا النوع من الأسئلة نذيرًا للشؤم.

منذ معرفتي بأمر الدفتر، لم أخَف على عزيزي فقــط، خفــتُ أيضًا على نفسي.

مكتبة الفكر الجديد

13

الجبهة مشتعلة منذ أوّل المساء.

رصاص وقذائف وحرائق في غير مكان. وحدها سيّارات الجيب العسكريّة تعبر وأنوارها مُطفأة.

لا أحد يخرج من بيته في ليلة كهذه إلاّ عند الضرورة. الإشعاعات التي يحدثها انفجار القذائف المتوسطّة والثقيلة تفتح ثغراً من الضوء في الظلام.

وصلت إلى المتراس ففوجئ الجميع بوصولي تحت الرصاص. فما من ابن امرأة يجرؤ على مغادرة المكان الذي يختبئ فيه.

وصفني شكسبير بـ "الأخوت".

ضجرتُ في الثكنة. الكهرباء مقطوعة ومعظم الشباب على الجبهات، فماذا أفعل والساعة لا تزال التاسعة. ذهبتُ إلى بيت عزيزي. لم أجده. رأيت على الباب ورقة بحجم الكفّ بلا توقيع، وفيها سطر واحد بالفرنسيّة. من الخطّ خمّنتُ أن صاحبتها امرأة.

لم يبقَ إلاّ "متراس النبع"، فقصدته. وهو سمّي هكذا لقربه من سبيل الماء. إنّه أحبّ المتاريس إليّ. اعتدتُ زيارته حتّى عندما لا يكون دوري في الحراسة. فالرفاق الذين أراهم وراء أكياسه هُم هُم. الحنون ودالي وقبطان وباترونيلاّ (لبنانيّة مولودة في لوس انجلوس،

مكتبة الفكر الجديد

تزوّجت من لبنانيّ بعد قصة حبّ، وأتت معه. بعد سنة، وقع الطلاق، فالتجأت إلى الحزب). ومن زوّاره عزيزي وسيكو وبو لمبة والزحلاويّ (وهذا ليس من زحلة. حبّه لشرب العرق وراء لقبه). لا حصر لعدد الرفاق الذين استُشهدوا وهم ذاهبون إليه أو عائدون منه، أو وهم في داخله قبل تحصينه تحصينًا جيّدًا. وغير مرّة، كدت أُقتل وأنا في الطريق إليه.

لن يصدق أصحابي في الضيعة، والذين يعرفونني، وإنْ رآوني بأمّ العين، أنّ المتراس بات من الأمكنة المفضّلة لديّ، أنا الذي كان يرفض المشاركة في الحراسة، وحمل السلاح حتّى لمّا راجت أخبار أن هجومًا على الضيعة على وشك الحصول.

لم أتغيّر.

ما زلتُ كارهًا للسلاح برغم أنّي ألِفته وألِفتُ رائحته ورائحة الرصاص. ولطالما رحتُ في أوّل الصبح أبحث في تجاويف الأكياس عن الرصاصات التي استقرّت ليلاً في الرمل. أجمعها في المرطبان الزجاج تمامًا مثلما كنت أجمع، وأنا فتى، الكِلِل الملوّنة. صار التقاط الرصاص هوايتي. حتّى رفاقي أصبحوا يحتفظون لي بكلّ رصاصة يعثرون عليها.

بالإضافة إلى الهواية هذه، كانت أمور عدّة تجتذبني إلى السهر في المتراس. أهمّها الألفة العميقة التي تنشأ بين الرفاق على رغم اختلاف أطباعهم وأمزجتهم. فمواجهة الموت الذي لا أحد يدري متى يأتي، وبأيّ طريقة، تلغي الضغينة وتشيع المحبّة والتعاطف. لذلك، كان مشهدًا عاديًا أن يهبّ رفيق لنجدة رفيق له أُصيب في المعركة، غير مبالٍ بالخطر. في تلك اللحظات الصعبة، تتفوّق رفقة السلاح على الخوف وعدم الاكتراث.

مكتبة الفكر الجديد

في عداد طقوس المتراس أيضًا، طقس يعدّه بعض الناس سببًا لهلاك أرواح كثيرة. وهو تدخين الحشيشة. كانوا يقولون إن الشباب يتعاطون الحشيشة ويذهبون وهم غير واعين إلى الحرب. في متراسنا، درج هذا الطقس. واقتصر على الحنون وشكسبير وباترونيلاّ. يتناوب الثلاثة على الصاروخ (وهو الاسم المتعارف عليه لسيجارة الحشيش)، بمتعة ملحوظة. الحنون يغمض عينيه وينفث الدخان على مهل كأنه يريد إبقاءه في صدره. شكسبير يطبق أجفانه نصف إطباقة ثم يراقب انسحاب كتلة الدخان راسمةً أمامه أخيلة وأشباحًا. باترونيلاّ تنفخ الدخان متقطّعًا فيصعد صوب وجهها فتتأمّل صعوده البطيء وفي نظراتها شيء من الزيغان.

شاركتهم غير مرّة في هذه المتعة. لم أشعر بمثل ما يشعرون هم به، فاكتفيت بالسيجارة العاديّة. مرّات أتسلّى بلفّ صاروخ ويدخّنه سواي مع أنّي لستُ خبيراً باللفّ. الحنون يفوقني ويفوقنا كلّنا مهارةً. لا يُعلى على طريقته في اللفّ: يستلّ سيجارة من العلبة، يمرّر رأس لسانه عليها فتبتلّ وتنفلق. بين سبابته والإبهام قطعة صغيرة من الحشيشة، يشعل تحتها القدّاحة حتّى تَلين. ثم ينثرها فتاتاً بين عروق التبغ. يأتي بورقة سيجارة يرطّبها باللعاب ويبدأ باللفّ. مُعلّم. أراقبه كي أستوعب الأصول. بمرور الوقت أجدتُ اللفّ. أصبحوا يتوسّلون إليّ كي أعدّ لهم الصواريخ. فألبّي بطيب خاطر. ومرّات، آخذ المبادرة وحدي. الصاروخ الأوّل الذي لففتُه بدا يشبه أيّ شيء إلاّ الصاروخ.

نفاد الحشيشة وزوال مفعولها في الرؤوس يجعلان الوقت ثقيلاً، والليل طويلاً.

مكتبة الفكر الجديد

حقًا لولاها لانتفت من عالم بعض الرفاق الأماني الممكنة، ولتفاقمت وطأة الخيبات.

ولولا أريجها الزكي لأزكمتنا رائحة البارود ورائحة أجسامنا المنهوكة.

لا يكتمل لفّ الصواريخ وتدخينها، من دون أغاني أمّ كلثوم يصدح بها راديو كبير عامل على البطاريّة. يرفعون صوته ويهزّون رؤوسهم إشارة إلى أنّهم مأخذون بالأغنيّة. لم أفهم الصلة بين الصاروخ وصوت هذه المطربة التي كان المصريون يتركون كل شيء كي يسمعوها من الإذاعة ليلة الخميس الأوّل من كل شهر. وطالما كدتُ أخرج من ثيابي متسائلاً ما اللذّة التي يجدونها في ترداد البيت الواحد مرّات عدّة. كان هذا النوع من الغناء يجلب إليّ النعاس. كلّما سمعته سمعتُ صوت أبي في المقهى مسترجعًا رأي أنسي الحاج في غناء أمّ كلثوم وصوتها. وهو لطالما كرّره. على ذمّة أبي، قال أنسي: "شبعنا من هذه الرتابة الرهيبة التي تتحكّم كالأفيون بعقول عبّادها وليس لها في الحقيقة غير شكل الصنم وفحواه". وتذكّرت كم كرهتُ زوجة خالي التي كانت تستمع إلى"الستّ" كما تسمّيها، وهي تطبخ وتكنس وتمسح وتكوي وتغسل.

المتراس المجاور لنا، على بُعد ثلاثين مترًا، كانت فيروز مطربته المفضّلة. يرفع صوت المسجّلة إلى الدرجة القصوى ردًّا علينا. أحيانًا، كنت أنتقل إليه هربًا، أسمع فيه مجموعة أغانٍ لفيروز فيما أمّ كلثوم هناك لا تزال في ربع الأغنية الأولى. أحدُ أسباب انحيازي إلى فيروز، وقوعي في غرام شقيقتها هدى في مسلسل "من يوم ليوم". أغرمتُ

مكتبة الفكر الجديد

ها وهي أغرمت بوحيد جلال الذي تمّنيت وقتذاك موته كي أبقى بلا منافس.

لم يقتصر التحدّي بين المتراسين على رفع الصوت بل أوشك أن يشعل اشتباكًا بالذخيرة الحيّة. هذا ينتصر لـ "كوكب الشرق" وذاك لـ "سفيرتنا إلى النجوم". فالعصبيّة الفنيّة غلبت العصبيّة الحزبيّة. ولولا تدخّل العقلاء مطيّبن الخواطر الغاضبة، لوقع قتلى.

مرّات كان تحصل حوادث على شيء من الغرابة نتيجة الإفراط في تدخين الحشيشة وشرب الويسكي الرخيصة غالبًا.

أعود إلى حادث جرى تحديدًا ليلة رأس السنة الجديدة 1979 (احتفلنا بها في المتراس. أوّل مرّة أمضي هذه المناسبة بعيدًا من أهلي):

باترونيلا تعبّىء المماشط بالرصاص. ترفع صوت المُسجّل متى سمعت أغنيّة لجون ترافولتا، وترقص قرب المتراس، فتهزّ وسطها هزّاً مثيراً. تجثو وتثني جسدها إلى الوراء حتّى تلامس يداها الأرض. ترهز حوضها وهي مفتوحة الساقين، فتبدو على مشارف بلوغ الرعشة. نصفّق عندما تختتم الرقصة. تقلّد الراقصات المحترفات فتحني رأسها شاكرةً وترسل إلينا قبلات في الهواء.

يثب الحنون اليها، يلتقط رأسها ويقبّل فمها. تركله بين فخذيه فيتكوّر واقفاً ويداه في موقع الضربة. تحاول تقليد الرجال في طريقة إلقائهم السباب. تمدّ يدها إلى ملتقى فخذيها، وبإنكليزيّة متقنة تخاطب الحنون الذي يئن من الوجع:

"Mess with me one more time, and this is going in you're mom's ass".

(أي: سأضع هذا في مؤخّر أمك إذا عاودت التحرّش بي).

مكتبة الفكر الجديد

لم نكن نفهم كلمة ممّا تقوله، لكنّنا كنّا نعرف أنّها تشتمه.

وهو يمشي مترنّحًا، يصعد إلى ظهر المتراس، يصوّب نحو الفضاء، يطلق رشقاً من الرصاص صائحًا أنّه يريد قتل القمر.

ندبّ الحماسة في شكسبير والقبطان فيشاركانه في الهتاف. ترتطم أصواتهم بالمباني فترتدّ أصداء متقطّعة هادرة.

تبدأ باترونيلاّ بخلع ثيابها. ترقص وتبعثر شعرها الطويل. ترمي حمّالة النهدين إلى الحنون. يلتقطها ويشتمّها ويعلّقها برأس صارية علم الحزب المرفوع فوق متراسنا.

نصفّق لباترونيلاّ مُطلقين صيحات التشجيع كي تخلع سروالها الداخليّ. نقطة ضعفها أن ترانا مهتاجين. ونقطة ضعفنا أن نراها راقصة بلا ثياب.

عاريةً تماماً تختالُ على المتراس وتتطلّعُ إلى السماء وتصرخ وهي فاتحة ذراعيها:

"Enjoy my beauty handsome before ElHanoun kills you".

(أي: تمتّع بجمالي يا قمر قبل أن يقتلك الحنون).

نضحك ضحكات صاخبة حتّى الإدماع، نحيط بباترونيلاّ التي لم تزل عارية، ندور حولها متشابكي الأيدي، ونحن نغنّي أناشيد حماسيّة.

كانت بيدٍ تغطي ثدييها وقد بدت حلمتاهما مشرئبتين من البرد أو من الهياج. وبيدٍ تستر ملتقى فخذيها

تفلت منا وتركض إلى حيث خلعت ثيابها. يلحق بها القبطان ويقبض عليها. يحملها على كتفه. وجهها ناحية ظهره. يصفعها صفعاً لطيفاً على مؤخرتها وتلطمه هي حيث تستطيع.

مكتبة الفكر الجديد

نتوسّل اليه أن يدعها تلبس ثيابها.

يواصل دورانه على نفسه وهو يحملها على ذراعيه.

يدني وجهه من صدرها ويعض أحد نهديها. تمسكه من شعره وتأخذ أنفه بين أسنانها. يجنّ فيبوسها. يخرطش شكسبير الرشّاش ويأمره أن يدعها وشأنها. يرفض. يهدّده بأنّه سيطلق النار عليه إذا لم يتركها حالاً. لم يأبه. ينفّذ شكسبير تهديده مطلقًا رصاصةً بين رجليه فيجمد القبطان مكانه، ويخلي سبيلها.

تلتقط باترونيلاّ ثيابها المبعثرة وتركض إلى المتراس.

وراء الحائط الرملي، ترتديها وتغادر حافية، تحمل حذاءها العسكريّ، وتذهب.

مثل هذا الحادث تكرّر كثيرًا. وطالما استرجعناه كأنّه تمثيليّة كوميديّة. أو كأنّه حصل في مكان آخر، ولأشخاص غيرنا. حوادث مضحكة مبكية وسمت ليالينا في المتراس الذي بقي الملاذ الوحيد لنا، نحن الغرباء عن المدينة والحرب. نقصده هربًا من الوحشة واليأس. كان الوقت بين أكياسه وتحت سقفه يمرّ سريعًا. وكنّا حين يستبدّ بنا الملل، نطلق النار على المواقع المُقابلة، كي نستدرج أعداءنا إلى الردّ متوقّعين أن حالهم لا تختلف عن حالنا. ولم يخذلونا مرّة. ونحن نردّ التحيّة بمثلها عند اللزوم. يبدأ تبادل النار متقطّعًا ثم تتسع رقعة الاشتباكات حتّى تشمل خطّ التماسّ كلّه.

في بعض الأحيان، نتبادل الشتائم لا الرصاص، على سبيل اللهو أيضًا. شتائم تمسّ الأمّهات والأخوات والزعماء. حتّى المسيح والنبيّ محمّد والقديسون والأولياء لم يسلموا منها. وعلى الأثر، تشتعل الجبهة وتتسرّب العدوى إلى مرابض المدفعية فتمضي هذه ترمي كللها

مكتبة الفكر الجديد

على الأحياء، وتمتلىء الملاجىء وتصدح سيّارات الإسعاف.

مطمئنين كنّا في متاريسنا المنيعة ما دام الهجوم علينا مستبعدًا لأسباب لا نعرفها. كانت الأوامر التي تُتلى على مسامعنا تقضي بالدفاع، وبعدم الإغارة على المتاريس العدوّة. قالوا إنّ هنالك خطًّا أحمر يفصل بيننا وبينهم، ينبغي التزامه.

وطالما كرهنا الهدنة لأنّها تضفي على أيّامنا ضجرًا قاتلاً. إنّها عقاب قاسٍ، وخصوصًا متى طالت نتيجة ضغوط يمارسها اللاعبون الكبار على زعمائنا، ويمارسها زعماؤنا علينا. فنرفض التقيّد بشروطها، نخرقها متّهمين أعداءنا بذلك، وأحيانًا نتكل عليهم كي يخرقوها، وكثيرًا ما فعلوا.

كان الضجر أحد أسباب استمرار الحرب.

مكتبة الفكر الجديد

14

عندما رجعتُ من "بناية السردين"، رأيتُ في الثكنة شـاحنات وناقلات جند.

لم يسبق أن شاهدتُ مثل هذا العدد من الآليات العسـكريّة في الفسحة الرحبة. ربّما هي حصّة ثكنتنا من الأعتـدة المسـتوردة، أو غنيمة حرب.

بضعة رفاق يتفحّصونها فرحين بها فرحـة أطفـال بألعـابهم الجديدة. ورفيق متخرّج في كليّة الفنون يرسم شارة الحـزب علـى مقدّم كلّ آليّة.

من نافذة الغرفة، راقبتُ ما يفعلون. ثم استلقيت. وفيما كنـت استمع إلى نشرة الأخبار على الراديو، غفوت. لا أذكر هل أطفأتـه قبل الاستسلام للنوم أم أطفأه أحد الرفاق.

أفقتُ في الثانية فجرًا على أصوات وقرقعة وهدير آليات. كان رفاقي في الغرفة لا يزالون نائمين.

منعني النعاس من النهوض لمعرفة سبب الضجّة. كمـا مـنعني الهدير من معاودة النوم. وفيما أنا على هذه الحال، دخـل رفيقـان ودعواني إلى ارتداء ثياب الميدان والنـزول إلى الفسـحة. ثمّ أيقظـا الجميع.

مكتبة الفكر الجديد

نـــزلنا. في خلال دقائق، كنّا جاهزين.

كانت رائحة النعاس لم تزل في أجسامنا عندما وقفنا صـــفوفاً متراصّة.

الصقيع حوّل أنفاسنا دخاناً ضبابيًّا.

تدجّجُنا بالسلاح والذخيرة بثّ بعض الدفء في أرواحنا.

ثمّة مهمّة في انتظارنا.

لا أعرف لماذا غالبيّة العمليّات العسكريّة تحدث مطلع الفجـــر. يجذبون البطانيّات المتكوّرة تحتها أجسادُنا التعبة طـــاردين أحلامنـــا بأصواتهم الآمرة.

لو أنّ الأمر في يدي لخرجت من الصفّ وعدت إلى الفراش.

وقف قائد الثكنة يحوطه قادةُ الوحدات، وأطلعنا على التفاصيل. قال إنّ أحزابًا حليفة ستشاركنا في الإغارة على منطقة إســـتراتيجية تحت سيطرة العدو. بلهجة صارمة ذكّرنـــا بالتعليمـــات الواجـــب مراعاتها خلال الهجوم. تعليمات مكرّرة قلّما تقيّد بها أحد. تســـقط حالما تئز أوّل رصاصة فوق الرؤوس.

في عداد التعليمات، ممنوع قتل الأطفال والنســـاء والمسـنّين، ضرورة معاملة الأسير معاملة حسنة، احترام جثث القتلـــى، عـــدم انتهاك حرمة دور العبادة...

الساعة الصفر انطلقت بنا الشاحنات.

جلست بجانب كاسبر، سائق الشاحنة الثالثة. وهـــي مـــلأى بصناديق الذخيرة. ثم صعد الجنون وقعد إلى يميني. يبدو أنّه أتى رأسًا من المتراس. من جيب سترته، استلّ سيجارة حشيشة. أشعلها، مـــجّ منها مجّة عميقة. قدّمها إلى كاسبر الذي رفضها بتهذيب شاكراً. ألحّ

مكتبة الفكر الجديد

الحنون، بقي كاسبر على موقفه. "ما بتعاطى"، قال وهو يزيل بإصبعه شيئًا عالقًا في زاوية عينه.

ثم قدّمها الحنون إليّ قابضًا على عقبها بإبهامه وبنصره. شكرته. فلم يصرّ.

الطرق خالية تمامًا من السيّارات في مثل هذا الوقت. وحدها الكلاب والقطط تتنقّل بحثًا عمّا تقتات به.

ثم بغتةً راحت المدافع تمهّد للهجوم، وتدكّ المنطقة المستهدفة دكًّا متواصلاً. أوركسترا متنوّعة الإيقاعات تتردّد أصداؤها في الفجر الشاحب.

وصلنا.

بلمح البصر غادرنا الشاحنات وانتشرنا.

هبّت الحرائق وغطّى الدخان الفضاء وعمّت رائحة البنزين المحترق.

مقاومة شرسة تواجهنا من المتاريس المزروعة على مداخل الأحياء والزواريب. يطرطق الرصاص على حيطان المباني طرطقة حبّات البوشار في الطنجرة.

نتقدّم على مهل.

نحكم الطوق جيّدًا. نسدّ الممرّات ومنافذ الإمداد لشلّ حركة العدو وإضعافه.

يتواصل الحصار أسبوعًا. والنتيجة متعادلة. لا العدو هُزم ولا نحن انتصرنا.

تمنّيتُ أن أُصاب وأُنقل إلى المستشفى، فلا أضطرّ إلى قتل أحد دفاعًا عن النفس.

مكتبة الفكر الجديد

روحي غالية عليّ، وحقّ الحفاظ عليها واجب مقدّس في الأعراف كلّها.

مخزن ذخيرتي محشو. أتفحّصه قبل الإتيان بأيّ حركة. لم يبقَ لديّ سوى مخزنين ملآنين في الجعبة.

بحزامي أربع قنابل يدويّة فضلاً عن مسدس جاهز للرمي.

ثمّة دوماً رصاصة في بيت النار.

أحرص على عدم تبديد الذخيرة كيفما اتّفق.

يمكنني أن أترك أرض المعركة إنْ شئتُ. عندئذ تكون خسارتي مزدوجة: علامة سوداء في ملفّي ونعتي بالجبان.

أفضّلُ أن أغادر المكان جثّة على أن أُنعت بالجبان. لا قضيّة لي كي أضحّي من أجلها. كثير من رفاقي هم مثلي، جاؤوا إلى الحرب مضطرّين، لكنّهم يحاربون من أجل الظفر بغنائم من البيوت والمتاجر. لولا هذا العامل المغري لتخلّى معظمهم عن السلاح، وقذفوا ببزّاتهم العسكريّة في وجوه من سلّموها إليهم. إنّهم فقراء مهجّرون يأوون إلى الأحزاب التي تدرّهم وتطعمهم في انتظار سوقهم إلى الموت.

كلّ منهم يحلم بأنّه سيقبر الفقر. والمشاركة في المعارك وحدها أسرع طريق إلى ذلك.

في مطلع الأسبوع الثالث، بدأت دفّتنا ترجح بعد سقوط مواقع الأعداء الأماميّة، وأسْر عدد كبير منهم.

رافق هذا التطوّر الميداني، ارتفاعُ أصوات محليّة ودوليّة مطالبة بوقف الهجوم.

مكتبة الفكر الجديد

لم يكد الأسبوع ينتهي حتّى بتنا على مشارف الانتصار. ومضينا نلاحق المقاتلين الذين أصرّوا على المقاومة رافضين الهرب مع الذين تركوا أسلحتهم وتواروا.

نتحوّل في حذر.

هذه المرحلة خطرة جدًّا. لا تعرف متى يثب مقاتل مختبىء ويفرغ رشّاشه فيك.

رفاق كثر نجوا من عمليّات الدهم واستُشهدوا لدى التمشيط والتطهير.

كنّا نسير صفّين على جانبي الطريق عندما أُطلقت النار علينا. فاختبأنا، كلٌّ في مكان.

لطوتُ أنا وشرنّو في مدخل بناية.

يطلب غيفارا من كاسبر أن يغطّيه لينتقل إلى الجهة الأخرى من الشارع. يفتح حنكليس النار على مقاتل يحاول رمي رمّانة يدويّة نحونا، فجعله يرقص قبل أن يهوي، مثلما يترنّح في فيلم الويسترن أحد المبارزَيْن لدى إصابته.

نجونا.

لو أنّ المقاتل استطاع رمي الرمّانة لكنتُ وشرنّو شهيدين.

أكملنا المشي.

رأينا فيكمورو يطارد مقاتلاً أعزل. المقاتل يركض ركضاً حلزونيًّا يجعله هدفًا صعبًا. هو الآن على مرمى ناري، أصوّب على رجله وأرمي. أصيبه. لم أشأ قتله بل إنقاذه من الموت المحتّم. ظننتُ أنّ أسْرَه مفيد وخصوصًا أن لدينا رفاقًا أسرى. اقترب دارا منه واضعًا البندقيّة في رأسه. توسّلتُ ألاّ يقتله. أقنعته أنّ الرجل أسيرًا

مكتبة الفكر الجديد

ينفعنا أكثر منه جثةً. فعفا عنه. كبّلناه وسقته وحنكليس إلى ملجأ قريب. أغلقتُ الباب عليه ورجعنا.

مضينا نستكشف المباني المحيطة نافذةً نافذةً وشرفةً شرفة.

أقلّ غلطة قد تكلّف أحدنا حياته.

نسمع لعلعة رصاص في الزاروب الموازي للزاروب حيث مجموعتنا. نطوّق المكان، نبدأ خطّة الالتفاف تساندنا ملالة مساندة ممتازة.

علم أبيض يطلّ من آخر معقل أوشكنا أن نطبق عليه.

ثلاثة مقاتلين يخرجون من المتراس رافعين أيديهم. طلب حنكليس منهم التقدّم في اتّجاهنا، وهو ممترس وراء برميل نفايات. ربّما في الأمر خدعة أو هنالك آخرون رفضوا تسليم أنفسهم. أمرهم غيفارا بالاصطفاف متلاصقين، وجوههم إلى الحائط. ربطنا أيديهم بالحبال وعصّبنا عيونهم وقدناهم إلى الملجأ.

سقطت المواقع كلّها.

صرنا نتجوّل كأنّنا في نزهة.

كاسبر وآخرون يفتّشون جيوب الجثث، ويرمون المحفظات بعد أخذ محتوياتها. لم تخلُ محفظة من صورة طفل أو شابّة أو سيّدة عجوز.

فيكمورو ملأ الحقيبة المثبتة على ظهره بسلاسل الذهب والساعات وأشياء نفيسة نزعها من الجثث، ومن الأهالي.

ماركس يتأبّط رزمة من الأسلحة الخفيفة ويعدو نحو الشاحنة.

البهلوان كعادته يحمل قنينة السبراي ويدهن الحيطان: "البهلوان مرّ من". هذه المرّة لم يستطع تكملة جملته الشهيرة بزيادة كلمة "هنا"

مكتبة الفكر الجديد

عليها. نهض مقاتل عدو من بين الجثث، وقتله بطلقة واحدة. مثّل اللعين أنّه ميت ومرّت خدعته مع أنّ حنكليس تولّى إطلاق رصاصة على كلّ جثّة من باب الاطمئنان.

عاجل شرنّو المقاتلَ الغدّار برشق فأرداه على وقعِ تدحرجِ قنينة سبراي البهلوان على الطريق.

الحواجز الطيّارة والثابتة انتشرت في النقاط المهمّة.

نساء وأولاد ومسنّون ينــزحون.

صرّر وأكياس وأغراض ملفوفــة ببطانيّــات علــى الظهــور والأكتاف. الشاحناتُ والبوسطاتُ اكتظت بالهاربين تمهيداً لنقلــهم إلى أحد المعابر. ومن هناك يتفرّقون. يستقرّ بعضــهم في المــدارس، ويذهب آخرون إلى قراهم، أو يلوذون بأقارب وأصدقاء.

أشيع أنّ النساء العابرات يخبّئن المصاغ بين أفخــاذهن وتحــت حاملات النهود. تحملق بــي امرأة تحضن طفلاً وقد دثّرتــه بحــرام عتيق. أقرأ في عينيها الغاضبتين أنّها متأهبة، إنْ سنحت الفرصة، لأن تخلع مشّايتها وتنــزل بها ضربًا على رأسي ورؤوس رفاقي. أخرجها شرنّو من الصفّ، واستجوبها سريعًا. لم يكن ممكنًا الاختلاء بها بضع دقائق لإسعاده. قال إنّ نهديها الكبيرين استفزّا رجولته.

الأوامر الجديدة تشدّد على ترك الأهالي يرحلــون في ســلام. استُجيبت نداءات رجال الدين وجمعيّات حقوق الإنسان. المقــاتلون الناجون فرّوا من ثُغر تركناها عمداً مفتوحة إلى البساتين والأحراج. يبلغ الاستشراس ذروته لدى المقاتل حين تضيق حلقة الحصار عليــه. الجندي يستشرس متى تأكدت له استحالة النجاة. فيحــارب علــى قاعدة قاتل أم قتيل. خبرتُ ذلك شخصيًّا عندما حوصرتُ ومجموعة

مكتبة الفكر الجديد

من الرفاق في أحد المباني. ظللتُ أقاوم غير عابىء بشيء. خفت من الأسر. صمّمت على المقاومة حتى الموت. في جيب سترتي، أحتفظ دوماً برصاصة لأطلقها في رأسي عند الاقتضاء. لكنّي نجوت.

صلوات أمّي أنقذتني.

استمررنا في اكتشاف المنطقة المحرّرة.

في الشارع التقينا مسعفين ينقلون على الحاملات جثثاً من المتاريس ومن الطرق ومداخل البنايات.

سيّارة جيب مقبلة من رأس الزاروب. مقاتلون على متنها يرفعون شارة النصر ويغنّون. نأخذ منهم صندوقاً من البيرة. استلّ قنينة وبطرف القدّاحة أنزع سدادتها، وأشربها دفعة واحدة. يدعوننا إلى مرافقتهم.

حان وقت الغنائم.

قبل الصعود إلى سيّارة الجيب، قال الجلبوط وهو يقلّب بين شفتيه مسواكاً لحكش الأسنان: "ما رح تلاقوا إلاّ تلفزيونات وغسّالات".

بقيت أنا وشرتّو نحتسي البيرة متكئيْن على حافّة المتراس. نشرب من القنينة نصفها ونرشقها إلى أحد الحيطان. أتينا على ربع الصندوق. شرتّو ثمل وثقل لسانه. يغنّي ويرقص والرشّاش في يده. بحيلةٍ أخذت السلاح منه. نصحته بأن يضع إصبعه في آخر حلقه حتّى يتقيّأ ويستريح. ففعل. استفرغ ما في بطنه، فتلوّث حذاؤه. أخذ يضرب برجليه الأرض كي يزيل القيء عن الحذاء.

عند الغروب، صادرت فرقتنا شاحنة. ملأها الرفاق برّادات وغسّالات وثريّات ومتفرّقات. ثم أفرغوها في مستودع مصادر هو أيضاً.

مكتبة الفكر الجديد

لم أشاركهم. رحت أبحث عن الروايات في أكــوام الكتــب المتروكة في البيوت.

زاد عدد الشاحنات وسيّارات الــ "بيــك أب" والســيّارات الصغيرة التي تدخل المنطقة فارغةً وتخرج ملأى.

تحوّل بعض المقاتلين عتّالين ولصوصاً.

الطمع وراء مقتل عدد منهم. من أجل برّاد أو غسّالة، وأحياناً جرّة غاز، مستعدّ أحدهم أن يقتل.

قتلى السرقة ليسوا أقلّ من قتلى المعارك. وهم يُسمَّوْن شــهداء ويُلفّوْن بعلم الحزب.

حين أصبح المكان مشاعاً تقاطر الناس إليه، وبدأوا بالنهب.

اقتلعوا الأبواب ودرف الشبابيك والحنفيات.

اقتلعوا حتّى البلاط والقساطل ومواسير المياه.

لم يتركوا سوى الصور العائلية والثياب وأكياس العدس والسكّر غير الصالحة للأكل.

على أحد المخارج، نصب غيفارا وحنكليس وشرنّو مكمنــاً. صادروا مسروقات أجبَروا مَن كانت في حوزهم على نقلها بأنفسهم إلى الشاحنة التي قادها غيفارا إلى المستودع.

عضو بارز في قيادة الحزب اشترى المسروقات بمبلغ بخس.

تقاسم الثلاثة المال وأقاموا سكرة عرمرميّة. بعد السكرة، ارتأوا تكملة السهرة في الــ Weeds.

قالوا إن هذه أفضل كباريه في المنطقة، غالبية الفتيــات فيهــا حلبيّات وشاميّات، وإن بينهن واحدة مغربيّة تشبه سعاد حسني.

ألحّوا أن أرافقهم. فرافقتهم.

مكتبة الفكر الجديد

15

لبّيت دعوة غيفارا وحنكليس وشرنّو لسبب واحد هـو أنّـي أحببتُ التعرّف على الكباريه. قرأتُ عنها في غير رواية، ورأيتـها في السينما والتلفزيون، وسمعت بها في مقهى الضيعة.

إنّها المكان الوحيد الذي كلّما سمعتُ اسمه تـراءت لي نسـاءٌ يرقصن ورجال يشربون ويدخّنون وهم يراقبونهن. ثم يجـالس كـلٌّ منهم امرأة.

كان ذكر الاسم وحده كافيًا ليحلّق بـي الخيـال، فـأعزّي نفسي بأنّ الحياة أمامي، وبأنّي سأزور الكباريه في الوقت المناسب.

كنتُ مقتنعًا بأنّ الأفضل ألاّ أجيئها منفردًا. المرّة الأولى يجب أن أكون في رفقة أحد ذي خبرة. آخذ فكرة عن الجوّ، وعن التفاصـيل الضرورية التي لا بدّ أن يعرفها الزبون، أي قاصد الكباريه. ولاحقًا، يصبح بإمكاني المجيء وحدي، وخصوصًا إذا راقني السهر فيها.

وجاء الوقت المناسب.

كنّا ثلاثة. أنا وغيفارا وشرنّو. لم يتمكّن حنكليس من مرافقتنا بعدما شرب كثيرًا ونام.

فيما نحن نترجّل من السيّارة، وصل دومينـو يرافقـه اثنـان للحماية. فهو قلّما يتحوّل بلا حراسة، وإذا حدث ذلك ففي بـالغ

مكتبة الفكر الجديد

السريّة. أعداؤه كثر. وطالما اخترعهم كي يوهم المحيطين به بأنّه مهمّ، وموضع حسد. سمعته سيّئة. قالوا إنّه يحارب من أجل جمع المال بشتى الوسائل والنوم مع كلّ امرأة تعجبه. عقله بين فخذيه. يحفظ عشرات الأبيات الخليعة ينشدها على طريقة سعيد عقل. وقالوا إنّه رُقي سريعاً لنشاطه السياسيّ أيّام الجامعة. اشترك في جميع الإضرابات. ما زالت كتفاه تحملان آثاراً لكثرة ما حملتا قادة التظاهرات. مجده الطالبيّ توّجه بتمضية شهرين في الحبس بعد اعتدائه على ضابط من قوى الأمن الداخليّ.

سلّمنا عليه. وتبادلنا التهانيء بانتصارنا.

دخلنا معًا. تقدّمنا هو. من يرانا وراءه يظننا أزلامه.

صاحب الكباريه والنُدُل رحّبوا بنا، وخصوصاً به. نظراتهم إليه ملؤها الخوف والكره. في ابتساماتهم أنياب تنتظر الفرصة المناسبة لتنزل به نتشاً ونهشاً. أقرأ في وجوههم أنّهم لا يطيقونه ولا يطيقون الأرض التي يمشي عليها، لكنّهم يجاملونه حفاظاً على باب رزقهم. فإنْ شاء يقدر على غلقه في أسهل طريقة: إلقاء قنبلة ليلة بعد ليلة على مدخل الكباريه. أو تحريض تابع له على افتعال مشاجرة يتخلّلها طيران الكراسي والصحون وتكسير الطاولات وإطلاق النار.

أصرّ أن نجلس إلى طاولته. حاولنا التملّص معتذرين، فلم يقبل الاعتذار.

حول الطاولة القريبة من البيست جلسنا. وسرعان ما امتلأتْ، قنينة من الويسكي الفاخر وجزرًا ورقائق تفّاح وصحنًا من البزورات.

ما إن نرمي شيئاً في المنفضة حتّى يأخذها النادل ويجلب أخرى نظيفة.

مكتبة الفكر الجديد

وحالما يضع أحدنا سيجارة في فمه تظهر قدّاحة تحتها جاءت من وراء ظهورنا.

وإذ توشك كؤوسنا أن تفرغ يدور نادل بالقنينة مالئًا الكأس تلو الكأس برشاقة ملحوظة.

هذه المبالغة في الخدمة والضيافة أزعجت دومينو فنادى المسؤول بإشارة من إصبعه، وطلب منه ألاّ يدع أحداً من النُدُل يدنو من طاولتنا. وطلب أيضاً غلق باب الكباريه ومنع استقبال ساهرين إضافيّين.

لم يكد ينتهي دومينو من الكأس الثالثة حتّى بان عليه مفعول الخمر، فتورّدت وجنتاه، ومضى يضحك من غير سبب. يقهقه رافعًا كأسه مردّدًا: "الزمان الـ ما بيخرب ما بيعمر". ثم يشرب الكأس مقفّى.

دلّنا على واحدة من النساء الجالسات قرب البار، زاعمًا أنّه جرّبها وأسعدته. قال إنّها تعرف قيمته. لدى لفظه العبارة الأخيرة وضع يده على موقع عضوه. أسهب في وصف مفاتنها. تحدّث بإعجاب فائق عن نهديها الصلبين المشرئبين برغم كبر حجمهما. وأهاجه منظر الشامتين المتجاورتين في أعلى فخذها اليمنى. قال إنّها تستزيد دوماً، تأكله بالذراع وتقول أين ضاع. لا تشبع كأنّها خُلقت لكي تبقى في الفراش. وأقسم أنّها أوصلته إلى النشوة ثلاث مرّات، وهو أحصى لها أربعاً ثم توقّف عن التعداد.

كان دومينو يتحدّث مفتخرًا بفحولته، ناظرًا بين الحين والآخر، إلى الشابات اللواتي بدأن بالصعود إلى الـ "بيست". يرقصن عارضات أنفسهن على الحضور. لم يجرؤ أحدٌ من الساهرين القلائل

مكتبة الفكر الجديد

على اختيار شابّة منهن، لعلّ دومينو معجب بها وقد يطلبها. إنّه معروف بغطرسته وبسرعة غضبه.

ثلاث فتيات أقبلن نحونا فبَدوْنَ تحت الأضواء المتحرّكة، كفتيات بمجلة الـ "بلاي بوي"، اللواتي اعتدنا تعليق صورهن في غرفنا وفي مخيّلاتنا. جلست أجملهن، السمراء الطويلة، إلى يمين دومينو، والثانية الشقراء الممتلئة بينه وبين غيفارا وقعدت الثالثة البيضاء ذات الشعر المنسدل حتّى منتصف ظهرها بيني وبين شرنّو.

قبّل دومينو ضيفتيه كمن لم يقبّل امرأة في حياته.

اشمأززتُ عندما راح يرشق حبّات الفستق صوب الفتاة الجالسة إلى جانبي. قال إنّه لم يوقف ذلك إلاّ حين ينجح في إنزال حبّة بين نهديها الظاهرين قليلاً من فتحة الفستان.

أخيراً أصاب الهدف فصفّق لنفسه ورفع يديه مبتهجًا ومدّ جسمه نحوها وأغرق وجهه في صدرها محاولاً استرداد حبّة الفستق بلسانه.

وأغاظتني هي عندما زمّت شفتيها ودفعتهما إلى الأمام لأخذ الحبّة نفسها من فمه. تأكّد لي أنّ السلطة تجتذب النساء، والمرأة تضعف بإزائها. كثيراً ما سمعت أن بنت الهوى تمنح الراغب في نكاحها جسدها لكنّها ترفض أن يقبّل فمها. قبلة الفم لمن يملك روحها. بالمال تحصل على الجسد، أمّا بالحب فتنال الاثنين معاً.

ما رأيته نقض ما سمعته. قبّل دومينو أفواههن، وهنّ راضيات ضاحكات. زنداه مسترخيان على كتفَي الفتاتين المحيطتين به، ويداه تموجان في شعريهما وتدلكان عنقيهما. ألمح حذاءه بين فخذَيْ الفتاة القاعدة قبالته، وبيني وبين شرنّو. أكتم غضبي وآخذ هيئة اللامبالي، أو الذي لم يرَ شيئًا.

مكتبة الفكر الجديد

شرنّو ساهٍ كأنّه ليس معنا. يشرب ويدخّن ويقشّـــر حبّـــات الفستق ويقذفها إلى فمه. يرغم نفسه على الضـــحك مـــتى علـــت ضحكة دومينو. فدومينو مثاله الأعلى. يقلّده في كل شيء حتّـــى في إطالة ظفر خنصره نحو ثلاثة مليمترات. احتقرته حـــين أســـرّ لي أنّ رائحة فم دومينو طيّبة. أرقب حركاته وأقارنها بحركـــات دومينـــو لأكتشف مدى الشبه. نسخة طبق الأصل.

قنينة الويسكي الثانية تربّعت وسط الطاولة تواكبـــها صـــحون مُلئت مجدّدًا. الليلة سُمح للشابات أن يشربن الويسكي. عادةً يكتفين بعصير مرطّب. ليس مسموحاً لهن احتساء الكحول لـــئلاّ يســـكرن فيفقدن السيطرة على ذواتهن. ينبغي أن يحدث العكس. يسكر الزبون وتظلّ الفتاة ممسكة بخيوط اللعبة. خارج دوام العمل، حرّة أن تشرب متى أرادت والكميّة التي تشاء. هنا، في الكباريه، يجب مراعاة القواعد حفاظاً على حسن سير العمل.

الموسيقى الصاخبة حالت دون سماعنـــا دويّ القصـــف علـــى مناطق مجاورة. لو لم يدخل عنصرا الحماية للاحتماء لمـــا عرفنـــا أن قذيفة سقطت على مقربة من الكباريه. أمَرَ دومينو برفـــع صـــوت الموسيقى كي لا يعتكر جوّ السهرة التي لم تزل في عزّها. الكباريـــه آمنة لوقوعها في الطبقة السفلى من مبنى عالٍ. كانـــت في الأصـــل ملجأ، استولى عليه محازبٌ تربطه برئيس أحد الأحزاب، صلةُ قـــربى، وحوّله كباريه.

إلى منصّة الرقص صعدت هيام وسميرة وندى وفادية. تحوّلـــت أجسادهن أفاعي تتلوّى على إيقاع الأغاني. ثم بدأن على مهل بخلـــع ثيابهن، قطعة قطعة. أغراني هذا المشهد الذي لم أرَ مثله إلاّ في الأفلام.

مكتبة الفكر الجديد

شرنّو يحرّك بإصبعه مكعّبات الثلج في كأسه وهو يراقب الراقصات.

ودومينو يهزّ كتفيه طرباً ويصفق بطريقة ناشزة كي يشجّعهن على المزيد. ومرافقاه يسترقّان النظر من وراء حبال القصب المدلاّة بين المدخل والقاعة.

أمّا النُدُل فذهلوا أيضاً برغم أن هذا المشهد ليس جديدًا عليهم.

طال رقص الفتيات و لم يتعبن. تنتهي أغنية وتبدأ أخرى، فتتغير حركة أجسادهن تمشيًا مع الإيقاع الجديد.

كنّ يرقصن كأنّ الرقص طريقهن إلى الهروب من أقدارهن.

العرق على صدورهن يتوهّج تحت الأنوار المتنقلة، فتبعثره خصورهن قبل أن يستكمل انحداره إلى الأسفل. بعض من رذاذه الحارّ يحطّ على وجوهنا، فترتجف أفئدتنا وتنتشر موجة من البرودة في أجسامنا.

اقتربت هيام من دومينو وهي تهزّ كتفيها وتفتح ذراعيها. رفع هو القنينة ودلق على صدرها ما بقي من الويسكي. وفيما بدأ يلحس الويسكي عن نهديها، شدّته إلى الحلبة، فطوّقته وزميلاتها ورحن أربعتهن يرقصن حوله.

لم تخفِ نظراتهن المتبادلة تواطؤًا عليه بغية إذلاله. وهو وسط الحلبة سكران فقد توازنه، جثا وأخذ يزحف على الأربع فامتطته هيام، مقلّدة الفارس الممتطي حصانًا بحركة جسدها ويديها وإنحناءة ظهرها. وهو يدور بها دورات بطيئة. وكلّما توقّف صفعته على مؤخّرته، فيستأنف الدوران وتواكبهما الأخريات رقصًا وقهقهة. ثم يتناوبن على امتطائه. وبقي هو يدور ويدور حتّى استفرغ ما في بطنه.

مكتبة الفكر الجديد

غادرت الفتيات الحلبة وأسرع المرافقان وحمــلاه إلى كرســيّه، بعدما هالتهما رؤيته مستلقيًا والقيء على مدار فمه. لكنّهما كانــا متعاطفين ضمنًا مع الفتيات، وقد أضمر وجهاهما تشفّيًا مستورًا.

التفتُّ إلى شرنّو لأعرف ردّ فعله، رأيته مســتندًا إلى ســاعديه المضمومين على الطاولة، ويغطّ في نوم عميق.

أنامته الويسكي.

تذكّرت عزيزي وقوله إنّ أنبل السكارى هم الذين ينامون بعد الشرب، فينجون من شماتة الآخرين بهم.

أيقظتُ شرنّو. وودّعنا دومينو الذي ردّ علينا بصعوبة. قرأتُ في عينيه تحذيرًا صامتًا كأنّه أراد به إفهامنا بأن ننسى ما رأيناه إذا كنّــا حريصين على أرواحنا.

وعدنا إلى الثكنة تحت القصف.

مكتبة الفكر الجديد

16

على رصيف محلّ الفليبيرز في جوار الثكنة، جلسنا نتشمّس.

شمس الشتاء تحثّ على النعاس. والدفء ينشر الكسل في أجسامنا. صوت موتور الكهرباء التابع للمحلّ يعكّر صفاءنا الصباحيّ. تظنّه معلقاً فوق رأسك من شدّة الإزعاج.

شرنّو يجهّز صاروخاً، والرشّاش بين فخذيه.

غيفارا مسترسل في قراءة الجريدة. يزمّ شفتيه بين الحين والآخر، أو يدفع رأسه إلى الأمام ويبصق. أحياناً تبلغ البصقة قرابة أربعة أمتار. نحار نحن المسترخين قربه، أيفعل ذلك تخلّصاً من البلغم أم تعليقاً على تحليل سياسي. إنْ أغاظه رأي صحافي غرز إصبعه الوسطى في المقالة وشتم كاتبها متّهماً إيّاه بالعمالة. لا يمكن أحداً أن يقرأ الصحيفة بعده لكثرة الثقوب فيها.

بونانزا يراقب الرائح والآتي كأنّه يعدّ الناس. يتسلّى بلحيته، يفتلها جدائل ثم يخربطها فيعاود فتلها مجدّدًا.

بو لمبة يصغي إلى راديو صغير لصق أذنه. إيقاع حركة قدميه تشي بأنّه ليس في هذه الدنيا.

كاسبر يعرّض وجهه لأشعّة الشمس ليكتسب شيئًا من السمرة.

مكتبة الفكر الجديد

أنا أقف بباب المحلّ، ظهري إلى جهة الطريق، أراقب اثنين يلعبان البليارد. من يراني يظنّني مُنجذبًا إلى اللعبة. لكنّي كنت أنظر إلى الطابات الملوّنة، ولا أراها، ولا أسمع صوت ارتطام بعضها ببعض. كان تفكيري في مكان آخر. أسترجع مشاهد من المنطقة التي حرّرناها أمس، ومن سهرة الكباريه. كأنّ مشهد ركوب هيام ظَهْر دومينو يحدث للتوّ. أستعيدُ الطريقة التي نظر بها إليّ عندما ودّعته. كانت نظراته لا تبعث على الطمأنينة، الله أعلم بما تضمره.

فيما كنت على وشك الرحيل، رأيت حنكليس آتيًا بسيّارة الجيب المكشوفة. كان يقودها بسرعة لافتة. توقّف قرب المحلّ، وبإشارة من رأسه فهمتُ أنّه يدعوني إلى الصعود. جلست بجانبه.

بعد أن انطلق، قال لي: "قتلوا عزيزي".

كضربة مسدس على الرأس، وقع عليّ الخبر. لم أصدّق. مضيت أطرح السؤال تلو السؤال من دون أن أترك له مجالاً للإجابة. كنت مأخوذًا بوطأة الصدمة.

من صمت حنكليس، استنتجتُ أنّه لا يريد الكلام. كلّ ما قاله هو أنّهم قتلوه في بيته. "واو" الجمع تُستعمل عادةً في حدث كهذا للقول إنّ القاتل ليس غريبًا، أيّ "منّا وفينا" مثلما يتردّد في الضمائر لا على الألسنة. فالتفكير بصوت عالٍ لا يجرؤ أحد عليه خوفًا من مواجهة المصير نفسه الذي لقيَه عزيزي.

وهذه الـ "و" تدلّ أيضًا على الأعداء. فَهُم لديهم عملاء ينفّذون عمليّات اغتيال في منطقتنا، ويساعدون على نقل سيّارات مفخّخة إليها. ومن الممكن إلباس مقتل عزيزي لأحد الجواسيس،

ونسج رواية حول السبب وطريقة تنفيذ الجريمة وتمثيلـها كـذلك، وإعلان الضحيّة شهيدًا.

جرائم كثيرة لُفلفت هكذا.

فلجوء كثير من الرفاق والناس إلى الـ "و" يعفيهم من الشبهة.

وفي حال موت عزيزي، يمكن حصر التّهمة بجهة واحدة. فمن هو حتّى يسعى أعداؤنا إلى تصفيته. وقول حنكليس: "قتلوه" يعـزّز هذا الاحتمال. فلو أنّهم هم الذين قتلوه لذكر ذلك بلا تحفّظ.

احتمالات وافرة هبّت في ذهني قبل الوصول إلى بيت عزيزي. وتضرّعتُ إلى الله أن يكون الخبر كاذبًا، ووراءه مزحةٌ.

حشدٌ من الجيران، أمام البناية، وعلى مدخلها، أكّد لي صـحّة الخبر. لم يتفوّه أحدٌ بكلمة عندما رآوني. ولا تقدّم جارٌ أو جارة ممن يعرفونني، لتعزيتي. كأنّ الحزن ربط ألسنتهم وشلّ حركتهم. مرّرت بينهم وقد اعتراني خجلٌ لشعوري أنّ أنظار الجميع شاخصة إليّ.

كان باب الغرفة مفتوحًا، دخلتُ، نظرتُ إلى حيث كان ينظر الموجودون فيها، وهم رجلان من الدَرَك وثلاثة من الرفاق.

كانت الجثّة مسجّاة على السرير، مغطّاة ببطانيّة لطالما تغطّيـتُ بها حين حلولي ضيفًا تحت هذا السقف.

متردّدًا، دنوتُ من الجثّة.

حاول أحد الدركيّين منعي. لكنّي أصرّرت، ولمّا عـرف مَـن أكون، رفع هو الغطاء.

ليتني لم أرَ ما رأيت.

كان الجانب الأيسر من الجمجمة مُدمّى أكثر من الجانب الأيمن. وكانت هنالك بقعٌ من الدم على وجه المخدّة.

مكتبة الفكر الجديد

لم أستطع إطالة النظر. كاد يُغمى عليّ. عدتُ غير قادر على الوقوف. جلستُ على الكنبة، وأغرقتُ وجهي بين يديَّ وبكيت. بكيتُ بكاءً لم أتخيّلني أنّي قادر عليه. من أين أتت هذه الدموع كلّها. فالعينان وحدهما لا تتسعان لهذا الدفق. لا بدّ أن القلب أمدّهما بدموعه أيضًا.

أينما نظرت في المكان، أرى عزيزي. أراه آتيًا من المطبخ، في يده ركوة القهوة، وفنجانا شفة في اليد الأخرى، يدقّ أحدهما بالثاني على غرار باعة القهوة في الشوارع. وأراه يرصف الصحون على الطاولة ويقطع الرغيف أربع شرحات يضعها قرب الصحن. وأراه يكسر العرق البلديّ بمقادير محسوبة ثم يصبّه بعد رفع الكأس الفارغة لمعرفة مدى نظافتها. وأراه يقرأ وهو في السرير مستلقٍ، أو يكتب. تذكّرت الدفتر. نظرتُ إلى البلاطة التي تحمل قائمة السرير، وتستر الدفتر.

هذه المشاهد وغيرها عبرت خلال ثوانٍ، وأنا غارق في حزني الداخلي.

ومن فم أحد الرفاق، جاء الخبر الذي لم أنتظره. انتظرتُ سماع أخبار كثيرة إلاّ هو.

قال الرفيق، وهو يعزّيني، إنّه لم يتوقّع يومًا أنّ عزيزي قد ينتحر، وإنّه إلى الآن ليس مصدّقًا. وقال إنّ المسدس المستعمل في الانتحار هو مسدس عزيزي، وقد صادره المفتّشون لالتقاط عيّنة من البصمات.

بصعوبة، نهضتُ. شئتُ الاّ أبتعد عن الغرفة لعلّي أستطيع أخذَ الدفتر من دون أن يلاحظ أحد.

مكتبة الفكر الجديد

المحقّق التابع للمفرزة الجنائيّة، استدعاني بعدما عرف الصلة المتينة التي تربطني بعزيزي، لأخذ إفادتي. أسئلته انطلقت من كون الوفاة سببها الانتحار. فأفهمته أنّ عزيزي بحكم معرفتي القويّة به هو آخر شخص على الأرض يفكّر في قتل نفسه، وأنّه لم يكن يعاني مشكلات تدفعه إلى اليأس. قلت له ذلك كي لا يسقط من حسابه الاحتمالات الأخرى. فأنا أرجّح، كي لا أقول أوكّد، أنّ عزيزي قُتل. قُتل بهذه الطريقة (إطلاق النار من الجهة اليمنى للرأس، غالبًا يفعل هذا الذين ينتحرون بالمسدس) من أجل تضليل التحقيق وإيهام الناس بعكس الواقع.

فات القتلة أنّ عزيزي أعسر.

لو أنّه انتحر لأطلق النار من الجهة اليسرى للرأس.

لفتُّ المحقّق إلى هذه النقطة لأزرع الشكّ في عقله. لم أقل له ذلك مباشرةً. قلتُ كأنّي أحدّث نفسي وهو قربي: "عزيزي عسراوي". فضّلتُ التلميح على التصريح. ربّما كان متعاونًا مع القَتَلَة ويسعى بأمر منهم إلى طمس معالم الجريمة. ومن الممكن أنّه لم يكن في حاجة إلى تنبيهه لتلك النقطة حتى يعرف الحقيقة. لعلّه يعرفها لكنّه يتفادى الاعتراف بها لأنّه يخاف على نفسه وعلى عائلته.

وحين انتهى من تدوين إفادتي، أمر بإخلاء الغرفة ومضى يأخذ إفادات بعض الأهالي في بيت أحد الجيران. غادر الجميع الغرفة إلاّ أنا وعنصرٌ من الدرك. بقيتُ بحجّة أنّي سأرافق الجثّة عندما يحين موعد نقلها بسيّارة الإسعاف إلى برّاد المستشفى، ومنه تمضي بها سيّارة دفن الموتى إلى الضيعة.

مكتبة الفكر الجديد

جلس الرجل على الكنبة، استلّ علبة الدخان من جيبه، جذب سيجارة حتّى بان نصفها من الفتحة، مدّ العلبة صوبي، أخذتُ السيجارة شاكرًا. أشعلها لي وأشعل أخرى له. جرّبت مسايرته لأكسب عطفه وثقته حتّى إذا اطمأنّ غدا الحصول على الدفتر سهلاً.

دخلتُ الحمّام ليس لكي أقضي حاجتي إنما لأستفزّ حاجته فيدخله هو بعدي، فأنجز عندئذ المهمّة.

وهكذا كان.

ما إن أغلق الباب وراءه حتّى رفعت السرير، وأملته قليلاً ثم أرخيته ببطء. نزعت البلاطة. صعقتني المفاجأة. لم أجد الدفتر. لاحظتُ أنّ كميّة من التراب وُضعت محلّه كي تبقى الأرض، بعد إعادة البلاطة إلى مكانها، على المستوى نفسه.

فعلتُ هذا وكان الرجل لا يزال في الحمّام.

أين الدفتر؟

من سرقه؟

هل أخذه عزيزي قبل موته وأخفاه في مطرح آخر؟

أعادتني هذه الأسئلة إلى الوراء، إلى فجر أحد الأيام، وكنت نائمًا هنا، على الكنبة التي أجلس عليها الآن. أيقظتني الحاجة إلى دخول الحمّام، فرأيت ورقة بحجم الكفّ في وسط الغرفة. التقطتها وأكملت طريقي. في الحمّام، قرأتها. هالني فحواها فحرتُ ماذا أفعل بها. هل أردّها إلى مكانها أم أحتفظ بها؟ إذا استفاقَ عزيزي لدى إعادة الورقة، ورآها معي فسأحرجه وأحرج نفسي. وإذا احتفظتُ بها فسأخلّ بإحدى قواعد الصداقة: الأمانة.

مكتبة الفكر الجديد

أكيد أنّه كتبها في الثكنة على أمل أن ينقل مضمونها إلى الدفتر، فأرجأ ذلك وتركها بين دفّتي الدفتر. ووقعتْ فلم ينتبه لها.

بعد تفكير، خرجت ناويًا إعادتها إن وجدته نائمًا، والاحتفـــاظ بها إنْ كان مستيقظًا. لحسن الحظ كان يغطّ في النـــوم. رددتهـــا إلى حيث وجدتها، و لم أستطع الغفو مجدّدًا.

في الورقة:

"لا تقدر أن تختلف مع أحد لأسباب كثيرة. قد يغدر بـــك في المعركة ثم يدّعي أنّه وجدك مقتولاً قبل أن يحملك إلى ســيّارة الإسعاف. يجب أن تحتاط دوماً ولا تثق بأقرب الناس إليك. هذا العالم قائم على الدسائس والوشايات. ازرع عيناً في ظهرك حتّى تربح نفسك. فإن لم تمت غدراً إلى الآن فقد سبق أن شـــاهدت كيف مات غيرك. الرفيق ب. د. قتل رفيقـــه ح. س. خـــلال هجوم على موقع معادٍ. راقبه إلى أن دخل منـــزلاً، تقدّم مـــن النافذة، نـــزع من القنبلة صمّامها ورماها إلى الـــداخل. لم أر الرفيق ح. يخرج بعد انفجارها. في اليوم التالي عُثر على الجثـــة مغطّاة بالتراب. قالوا إنّه استشهد. قُتل لأنّه باع حصّة الرفيـــق ب. من المسروقات وخسر المال على طاولات القمار. وكانـــا طمراها في مكان لا يعرفه أحد سواهما".

كلّما استحضرت مضمون هذه الورقة، تذكّرتُ حين أوصـــاني بالاحتفاظ بالدفتر في حال إصابته بمكروه.

لم أتوقّع أنّه كان يخشى شيئًا يُهيّأ له في الظلام.

أوّل مرّة أشعر بمثل هذا الخوف. خوفٌ لا يقارن بالخوف الذي دبّ فيّ عندما لَحقَ بـــي الأستاذُ في مكبّ الزبالة بالضيعة. فالدفتر، كما قال لي عزيزي، يتضمّن معلومات أكثر تشويقًا من الروايـــات

مكتبة الفكر الجديد

البوليسيّة التي أقرأها. هذه المعلومات طبعًا ليســت عــن أشــخاص يقيمون في بلاد أخرى، إنما عن أشخاص قــد لا أعــرفهم كلّهــم لكنّي أعرف عددًا منهم. وهم يفعلــون ما يفعلــون تحــت جنــاح الحزب. والحزب إمّا عارفٌ ويغض النظر لحاجته إليهم، وإمّــا غــير عارف.

غير مستبعد أن يكون عزيزي راح ضحيّة أحد هولاء. فهو من أقدم العناصر في الشكنة. بدأ يداوم فيها عندما كان نصفها لا يــزال مدرسة. وما يعرفه وقدرته على كتمان ما يعرف، أمّنا له نوعًا مــن الهيبة برغم أنّه لم يتولّ أيّ منصب.

وهو، مثلي، ترك القرية مرغمًا. تلقّى تهديدات مباشــرة، آنًــا بالقتل وآنًا آخر بالخطف. ووراء تلك التهديدات، مواقفه السياســيّة في الخطب التي ألقاها في مناسبات طالبيّة.

كان "ميرابو" الثانوية. هذا ما لقبوه به أصحابه وعارفوه.

يخطب بلا ورقة. يحفظ الخطبة كلمةً كلمة، فيظنّ سامعوه أنّــه يرتجلها. مَلَكَةُ الحفظ عنده قويّة. ما إن يقرأ النص مثنى وثلاثَ حتّى يستطيع استظهاره. وكان جريئًا، يسمّي الأمور بأسمائها. وطالما سرق الأضواء من المتكلّمين الآخرين، خصوصًا متى جاء دوره قبلهم، وهو أصغرهم عمرًا.

نقلوا عن مدير الثانويّه قوله إنّ الذي يخطب بعد جهاد الشاعر (هذا اسمه الحقيقيّ) كمن يخطب بعد سعيد عقل.

كان بحدسه الخطابيّ، يعرف المقاطع التي ســتُلهب الحماســة، فيكتب سلفًا عن التصفيق والهتاف، ويردّ التحيّة بمثلــها، فتشــتعل الأكف مجدّدًا.

مكتبة الفكر الجديد

لم تكن خليّة حزبيّة، وعدد الخلايا في الثانوية يفوق عدد أصابع اليد، تدعو إلى حفلة، إلاّ بعد أن تضمن اشتراكه فيها.

وهو لم يكن حزبيًّا. لكنّه مال إلى حزب بعينه، بعدما وجد أنّ أفكار هذا الحزب قريبة من أفكاره. تحزّبه غير معلــن، في قلبــه، لا خوفًا على نفسه بل على أفراد عائلته. فالقرية حيث نشأ وترعــرع، مزيج من المذاهب والتيّارات الحزبيّة المتعارضة. لهذا السبب، لجــأ إلى الكتمان.

جارهم، ملازم أوّل في الأمن العام، أخبر والده بأنّ ملف ابنه في المركز، حافل بالتقارير عن أقواله التي يطلقها في حفلات الثانويــة. وقد كُلّف الجار حضور إحداها وكتابة تقرير عن وقائعهــا وعــن المتكلّمين فيها. ففعل. شعر بالفخر حين قوطِعــت كلمــةُ جهــاد بالتصفيق والهتافات. وهو لم يتوقّع أنّ يكون هذا الشاب الذي يــراه يوميًّا، خطيبًا بليغًا، ومحبوبًا، ومسموعًا. وللأمانة، كتب في تقريره أن لدى الطالب جهاد فوزي العارف نــزعة تمرّد، وأنّه قادر على تعبئة الثانويّة بكلماته الناريّة. وتقاطع هذا الانطباع مع انطباعات رجــال من الأمن العام سبق أن استمعوا إليه في مناسبات سابقة.

بعد الثانويّة، لمع على منبر كليّة الحقوق والعلوم السياسيّة (افتُتِح فرعٌ لها في منطقته) وباتت العيون مفتّحة عليه. لم يكمل السنة الأولى في فرع الحقوق إذ انهالت عليه النصائح بأنّ هنالك من ينوي أذيتــه. فترك الضيعة وهرب إلى بيروت.

في بيروت، لا قريب له يقيم عنده ولا صديق. التحق بالحزب، وتحديدًا في هذه الثكنة كي يأكل ويشرب وينام. أكمــل الدراســة نهارًا. وحرس في المتاريس ليلاً.

مكتبة الفكر الجديد

أتذكّر هذا وأنا جالس قرب جثّته في سيّارة الإسعاف.

في الطريق إلى المستشفى، قرّرتُ ترك الثكنة والحرب، والبحث عن عمل، أيّ عمل. وأرحل إلى مكان لا يعـــرفني أحـــدٌ فيـــه، ولا أعرف أحدًا.

كُتب عليّ الهرب دومًا من جرّاء الخوف، ومن جرّاء أمـــور لا صلة لي بها.

مكتبة الفكر الجديد

17

سلّمت سلاحي وأخذت أغراضي وغادرت الثكنة.

لم أخبر القائد بالسبب الحقيقي الذي دفعني إلى اتخاذ هذا القرار. قلتُ له إنّي عائد إلى الضيعة لأنّي بُرّئتُ من عمليّة خطف الأستاذ بعد اكتشاف أسماء منفّذيها. فدعا لي بالتوفيق، وحمّلني تحيّاته إلى الشباب الذين يعرفهم.

شعرتُ أنّي تحرّرت من قيود كثيرة. لكنّي في الوقت نفسه، شعرتُ أنّي عدتُ وحيدًا.

موت عزيزي بهذه الطريقة جعلني شديد الحذر.

أمشي وأظنّ دومًا أنّ أحدًا ورائي، يتعقّبني، يراقبني، ينتظر الفرصة المناسبة ليقتلني.

انتقلتُ إلى منطقة سكنيّة مكتظّة بعدما حاولت تضليل من يتبعني. افترضتُ أنّ مدبّر قتل عزيزي كلّف واحدًا من أزلامه غير الذين أعرفهم ويعرفونني، اللحاق بي ورصد تحرّكي كي أبقى في متناوله.

استفدتُ ممّا تعلّمته من الروايات في هذا المجال. ركبتُ سيّارة أجرة. ونزلت في شارع مزدحم، ومشيت مسرعًا حتّى وصلت إلى زاروب، انتظرتُ في مدخله قارئًا في عيون العابرين تلك النظرة التي

مكتبة الفكر الجديد

تفضح من يتولّى التعقّب والمراقبة مهما بالغ في إضفاء بعض البراءة عليها.

تأكّد لي أنّي في مأمن.

لا بدّ من الاحتراس ما دام كلّ شيء ممكنًا في الحرب. يقتلونك ويمشون في جنازتك.

إن لم تحمِ نفسك فلن يحميك أحد.

لم أترك دكانًا في تلك المنطقة إلاّ سألتُ صاحبه هل هنالك بيت للإيجار في الحيّ.

كذلك سألتُ المخاتير. قال لي أحدهم إنّ العثور على بيت للإيجار في هذه الأيام صعب جدًّا، لخشية المالك من أن يكون المستأجر حزبيًا، فيقعد في البيت، ثم يرفض دفع بدل الإيجار وتخليته وإنْ بلّط المؤجّر البحر. مثل ذلك حدث مرارًا.

شجّعني مختار آخر على الذهاب إلى مقرّ الحزب في المحلّة، والسعي إلى نيل موافقته على مصادرة واحدة من الشقق الشاغرة، وهي لا تزال وافرة. فتهجير سكّانها حصل قبل أقلّ من شهرين. وقد وضع الحزب يده عليها كي لا يقيم فيها من يتّحرون بها، أم من لديه شقّة ويسعى إلى الاستيلاء على شقّة ثانية.

لم تَرُقني فكرة المصادرة. تربيتي لا تسمح لي بالسطو على تعب الناس والسكن في بيوت هجروها مُرغمين، ولا يزالون محتفظين بمفاتيحها على أمل العودة.

ثم أنا هارب من حزب لا لأعود إليه أو إلى سواه.

أفضّل الرجوع إلى عادتي القديمة على السكن في بيت له صاحب، وعلى استجداء موافقة الحزب للإقامة في هذا البيت.

مكتبة الفكر الجديد

وعادتي القديمة هي النوم على مداخل البنايات، وفي السيّارات. أحنّ إليها برغم ذكرياتها الأليمة. كانت محفوفة بشيء من المغــامرة. هذا ما افتقدته في الأيّام الأولى عندما بات لي سرير ومخدّة في الثكنة. لكنّني سرعان ما استعدته حين رحت أداوم علــى خــطّ التمــاسّ. فالوصول إلى المتراس خلال الاشتباكات كان مغامرة ليست كبــاقي المغامرات. وكذلك الفرار إلى مكان آمن لحظة انطلاق قذيفة هــاون 120 وانتظار عبورها والإصغاء إلى انفجارها.

فيما كنت أفكّر أين سأنام الليلة، جاءت إلى رأسي ابنة خالي، التي بدأت تعمل مدبّرة منــزل لدى طبيب جرّاح ومربّية لطفله بعد وفاة زوجته. علمتُ بذلك من أحد أقرباء أمّي. وقد التقيته مصادفةً على مدخل صالة السينما التي تعرض فــيلمين متتــاليين في جلســة واحدة. ذكر لي هذا القريب اسم الطبيب وكنيته واسم البلدة الــتي يقيم فيها. وقال إنّ خالي أقام الدنيا كي يمنع ابنته من العمل خادمةً ثمّ أذعن لقرارها مشترطًا أن تسعفه ببعض المال. فهو طُرد من وظيفتــه عقب إفلاس الشركة التي التحق بها منذ إنشائها، وأكلتــه الــديون بعدما خسر جنى العمر على طاولة القِمار. وهي أرادت الهروب لأنّ الحياة مع والدها لا تُطاق. ولأنّها ملّت الضيعة ورغبت في الانتقــال إلى منطقة أخرى، تشتغل وتدرس ريثما تلتقي فارس الأحلام.

ذهبتُ إلى البلدة ظهرًا. لم أحتج إلى وقت كثير كــي أعــرف منــزل الطبيب. سألتُ عاملاً في محطّة البنــــزين في أوّل البلــدة. فأرشدني إلى العنوان.

لم يكن بيتًا. كان فيلاً من طبقتين، وحديقة واسعة تكاد تجــد فيها جميع أنواع الزهور والشتول.

مكتبة الفكر الجديد

ما إن دنوت من البوّابة حتّى ظهر رجل وراءها، وسألني: "شو بقدر اخدمك؟". قلت أريد رؤية ابنة خالي. وذكرت اسمها. رحّب وفتح درفةً من البوابة الكبيرة. دخلتُ. رافقني هو والكلب الذي راح يتشمّمني ويلعق حذائي. استقبلتني ابنة خالي بحفاوة. لم تصدّق عينيها بأنّي أنا ابن عمّتها أقف بشحمي ولحمي قبالتها. بعد فنجان القهوة وتبادل الأخبار، وحدتني إلى المائدة. أتغدّى وحدي وهي جالسة قربي.

كان الغداء لذيذًا. بامية بالرزّ. والتحلية مربّى التين شغل أمّها.

لم أكن أعلم أنّ ابنة خالي ماهرة في الطهو وست بيت ممتازة، إلاّ بعدما تركتْ بيت الطبيب وسافرتْ إلى سورية، ومنها إلى مدينة نيس، جنوبي فرنسا. هناك تزوّجتْ وأنجبتْ وفتحتْ مطعمًا يقدّم أطباقًا لبنانيّة. وبعد ذيوع صيت لقمتها الطيّبة أصبح للمطعم فرعٌ ثانٍ في مدينة كانّ.

دعتني إلى المبيت في الفيلاّ بعدما عرفت أنّي بلا بيت. نادت الناطور وقالت له أن لديه الليلة ضيفًا وطلبت منه الاهتمام بي.

في المساء، جاء الطبيب فعرّفته إلي، وسألته هل بإمكانه تأمين عمل لي في المستشفى حيث هو مسؤول عن قسم الجراحة، فوعدها ووعدني خيرًا. فهو يكنّ احترامًا بالغًا لها بعدما نجحت في إدارة منزله الكبير، فضلاً عن إجادتها إعداد أكلات شهيّة. وصودف أنّه يحبّ بطنه ويعرف طعم فمه. والأهم أن ابنه أحبّها وتعلّق بها، وهي أيضًا أحبّته وتعلّقت به حتّى إنّها بكت كثيرًا حين اضطرّت إلى السفر. وقد أطلقت اسمه على ابنها الأوّل.

مكتبة الفكر الجديد

لا أعرف لماذا امتلكني شعور بأنّ الطبيب سيحمل إليّ في اليوم التالي خبرًا مفرحًا. كان وجهه الذي لا يخلو من تجاعيد تجعله يبدو أكبر من عمره، يُنبِئُ بالطمأنينة، وبأنّ الحياة باتت وراءه. يعيش من أجل ابنه بعد رحيل زوجته الأميركية التي تعرّف إليها عندما كان ينجز مرحلة التمرين في أحد مستشفيات بوسطن. وهي طبيبة أيضًا، متخصّصة بطبّ الأطفال. أحبّها من النظرة الأولى. وتزوّجا قبل التخرّج. اكتشفتْ متأخّرةً انتشار السرطان في جسمها. عولجت مدّة سنتين ثم فارقت الحياة. رحيلها المبكّر كان منعطفًا في حياته. فبات يرى الدنيا من باب بدن طفله الوحيد.

فيما كنتُ نائمًا في غرفة الناطور، وسوس لي الشيطان أنّ الطبيب الذي يكبر ابنة خالي بخمس وعشرين سنة لن يعفو عن شابّة على مشارف العشرين، جذّابة، مربوعة، متناسقة الجسم، ولديها عينان لا تقاومان. أظنّ، بل أجزم أنّه ينام معها. وقد يكونان الآن معًا في السرير. لا أصدّق أن لا شيء بينهما. وإذا كان الأمر كذلك فإمّا هو أحمق وإمّا لم يزل وفيًّا لذكرى زوجته. ولأفترض أنّ وراء تعفّفه الوفاءَ، فما يمنع ابنة خالي من استدراجه إلى فخّ أنوثتها لعلّه يتزوّجها بعد أن توقعه في غرامها. وفي الحبّ، تسقط المحاذير، وتزول الفروق الاجتماعية. يتزوّجها ويرمي وراء ظهره الأقاويل التي قد ترافق زواجه الثاني. وقد يكون أقسى قول هو أنّه تزوّج خادمته.

صحيح أنّ ابنة خالي عندما تُسأل ماذا تشتغل لدى الطبيب، تجيب بأنّها مدبّرة منزله ومربّية الصبيّ. لكنّ الجيران وأصحاب الطبيب يختصرون تينك الصفتين بصفة واحدة: خادمة. وبعض ذوي

مكتبة الفكر الجديد

النيّة السيّئة، يضيفون في ما بينهم، صفة أخرى: عشيقته، أو صاحبته على حسب قولهم.

تمنّيتُ لو يتزوّجها الطبيب. فهو لم يزل شابًا. وفرق العمر ليس عائقًا. وإنْ لم يحصل ذلك، فلتفعل ما تشاء. كلّ شخص حرّ في حياته. والكلام على شرف العائلة وسمعتها متى كانت متعلّقة بالنساء، كلام متخلّف يروّج له غالبًا رجال يمرّغون شوارهم بين أفخاذ المومسات. وهم، مع ذلك، يرفعون اسم العائلة، في حين أن الواحدة من نسائهم، إنْ ابتسمت لعابر أو نظرت إليه، أنكروها وتمنّوا لو أنّها لم تُخلق.

حاولتُ استدراج الناطور، ونحن نشرب الشاي، لعلّي أستنتج شيئًا. لكنّني لم آخذ منه كلمة واحدة. بدا كتلك القرود الثلاثة التي يضع الطبيب مجسّمها في الصالون. قرد يغطّي عينيه، وقرد يقفل فمه بيده، وقرد يسدّ أذنيه بكفّيه. كان يجيب عن كل سؤال أطرحه: "ما بعرف". لم يكن كارهًا للكلام إلاّ متى دار الحديث على الطبيب وبيته. حدّثني عن والده الدركي الذي حضر إعدام أنطون سعادة. وعن سفره هو إلى تركيا في شاحنة الغنم وعودته منها بالطريقة نفسها كي يوفّر أجرة الطريق ويصرفها في إسطنبول. وعن ربحه مبلغًا من المال في الكازينو وصرفه في الكباريه.

كانت أوّل ليلة أنام فيها بمنأى عن رائحة الملاح وثياب العسكر والرمل. وكان الليل في تلك الغرفة الكائنة بإحدى زوايا الحديقة، هادئًا على وقع الهواء الذي يلامس أوراق الشجر كأنّه يخشى إزعاج أهل المكان والعصافير الغافية.

لم أرَ الطبيب عندما غادر مع أنّ عينيّ لم تفارقا المدخل منذ نهوضي تمام الساعة السابعة صباحًا.

مكتبة الفكر الجديد

من المحتمل أنّه اضطرّ إلى الذهاب قبل ذلك لداعٍ ما. ربّما استدعاه المستشفى لمعاينة مريض في حال حرجة. الأطباء محكومون بتلبية نداء الواجب الإنساني أيًا كان الوقت. والطبيب الذي تعمل عنده ابنة خالي، إنساني ورؤوف. هذا رأيها فيه. وأنا حين رأيته استلطفته. بدا مهتمًّا بي. وإلاّ فليس مضطرًّا إلى أن يسجّل على ورقة اسمي كاملاً ومؤهلاتي. وقال بعدما وضعها في محفظته: "انشاالله خير" ثم ربت كتفي.

قضيت النهار منتظرًا عودته. رافقتُ ابنة خالي إلى السوق، وساعدتها على نقل المشتريات من السوبرماركت إلى السيّارة، ثم لدى وصولنا إلى البيت، من السيّارة إلى المطبخ.

في الطريق، علمت أنّ الطبيب اشترى السيّارة خصيصًا لها كي تذهب بها إلى جامعتها مرّتين في الأسبوع، وتأخذ ابنه إلى المدرسة وتردّه منها. فهو لا يطيق الأوتوكارات ولا يأمن لسائقيها لأنّهم يقودون كالمجانين.

فيما كنت أتمشّى في الحديقة، دنا منّي الكلب، واسمه "مورترد"، فلاطفته كي أتقي شرّه. لكنّ الناطور تمنّى عليّ ألاّ أفعل ذلك. قال إنّ الكلب لم يزل في طور التدريب، ويجب ألاّ يعتاد الغرباء حتّى لا يفشل في مهمّة الحراسة. وقال، وهو ينظر نحو الفيلاّ، وحدهم أهل الدار يحقّ لهم الاقتراب منه ومداعبته حتّى يألفهم فلا ينبح متى رأى أحدًا منهم.

لّما لاحظ أنّي مصغٍ إليه، أخبرني بشيء من الاعتزاز، أنّه خضع لدورة مدّتها أسبوعان تعلّم فيها أصول تدريب الكلاب.

ونادى"مورترد" ومضى يدرّبه. بدا مسرورًا كأنّه يلهو مع أحد أطفاله. أو كأنّ الطبيب يراه، فيرضى عنه ويكرمه. بدأ يعلّمه طريقة

مكتبة الفكر الجديد

الجلوس، فيضغط مؤخّرته باليد اليسرى ويضع اليد اليمنى على صدره أو يشدّ المقود إلى الأعلى. فيقعي الكلب. كرّر هذه الحركة بضع مرّات حتّى بات الكلب يقعي حالما تلامس يد الناطور مؤخّرته.

راقبتُ حركات الكلب ودُهشتُ لذكائه وسرعته في التعلّم.

في المساء، رحت أنتظر قدوم الطبيب. صلّيت أن يحمل إليّ خبرًا سارًا. لستُ شحّادًا وواضع شروط تعجيزيّة. مستعدّ للقيام بأيّ عمل بشرط واحد هو أن أكون في أمان. راحة البال ثروة لا يدرك أهميتها إلاّ فاقدها. وقد فقدهّا منذ مقتل عزيـزي. بتّ أغفو وعيناي مفتّحتان. ما إن أنام حتّى أنهض مذعورًا. كنت أخشى أن أموت غدرًا بوسيلة لا تخطر على البال. فقاتل عزيزي لن يقصّر في ابتكار الطريقة التي يتخلّص بها منّي بدون أن يخلّف أثرًا يدلّ عليه.

كانت الساعة تشير إلى الثانية ما بعد منتصف الليل، حين تناهى إليّ عواء مبحوح. نظرتُ إلى الساعة ثم إلى الناطور الذي كان غارقًا في نوم عميق.

عاكسني النوم. الكلب ينبح نباحًا غير اعتيادي. نباح هو مزيج من الألم والاستغاثة. ربّما رمى أحدٌ إليه قطعة لحم سامّة من أجل قتله لغاية في نفسه، فتلقّفها الكلب وسرى مفعول السمّ في جسمه. وهذا الـ "أحد" قد يكون جُنّد لقتلي. صحيح أنّي اتخذتُ أقصى الحيطة لدى تنقلّي، لكن من الممكن أن مخبرًا رآني وابنة خالي في السوق، فوشى بـي. احتمال فرض نفسه حالما سمعتُ النباح المنخفض. وتلاه احتمال ثانٍ دونه أهمية، هو تسلّل سارق ليسطو على ما تقع عليه يداه، بعدما راقب الفيلاّ وأصبح لديه من المعلومات ما يتيح له دخولاً وخروجًا سالمين. وهنالك احتمال ثالث لكنّه

مكتبة الفكر الجديد

ضعيف جدًا، هو أن المتسلّل عدوّ للناطور، يبغي أذيته. استبعدت هذا الاحتمال إذ تبيّن لي أنّ الناطور مسالم، لا سوابق لديه. ولم أسقط من حسابي أن هنالك أشخاصًا مختبئين في ثيابهم. يظهرون كالحملان وهم في الواقع ذئاب. وقد يكون الناطور من هذه الطينة.

بقيت في السرير مترقّبًا ويقظًا. فإذا كان المتسلّل يريد شرًّا بي، أو بنا، لكوني الآن من أهل الدار، أسدي إليه خدمة إذا أتيت بحركة مسموعة، فيحتاط ويتأهّب إمّا للهروب وإمّا للمواجهة.

النباح غدا متقطّعًا على الوتيرة نفسها. هذا ما جعلني متيقّنًا من أنّ الكلب يموت على مهل. ينبح كأنّ عواءه يطلع من عمق قلبه ليعلمنا أنّ أمرًا غير طبيعي يحدث، وعلينا التنبّه. إنّه يمارس دوره على رغم سوء وضعه، ويؤكّد وفاءه لصاحبه. هاتان الصفتان باتتا شبه منقرضتين لدى جنس من المخلوقات، يسمّونه بشرًا أو بني آدميّين.

فجأة، اختفى النباح.

مات الكلب بعد طول معاناة. أنصتُّ جيّدًا لعلّي أسمع أنينًا خافتًا، أو حركة تشي بأنّ أمرًا ما يحصل في الخارج. لولا شخير رفيقي في الغرفة، وهو أيضًا متقطّع، لاعتقدتُ أنّنا نقيم في غيمة لا في الأرض.

هدوء مطبق. حتّى الهواء بدا كأنّه ابتلع لسانه وترك لنسماته اللطيفة حرّيّة ملاقاة الفجر ومداعبة العصافير التي راحت تتهيّأ للاحتفال بالصباح.

بلا مقدّمات، ارتفع العواء. ثم فُتحت البوابة. نهض الناطور وألقى عليّ التحيّة وهو يتثاءب ويفرك عينيه. قال إنّ "الحكيم" عاد وإنّ الكلب يرحّب به على طريقته. أخبرته أنّ الكلب لم يكفّ عن

مكتبة الفكر الجديد

الأنين، وأنّي لم أنم. فلطم رأسه كمن أغفل أمرًا مهمًّا كان عليه أن يفعله وسها عنه. قال إنّه نسي أن يضع طعامًا للكلب. والكلب الجائع لا يستطيع النوم، فيصدر أنينًا تلقائيًّا كذلك الذي كان يطلقه "مورترد" طوال الليل.

لم أرَ الطبيب في الصباح. جاء مرهقًا ونام. أتعبته الجراحة التي أجراها ليلاً. والمريض مقاتل أُصيب برصاصة في عموده الفقري على خطوط التماسّ.

هذا ما أخبرتني به ابنة خالي خلال الترويقة. سألتها هل تعرف اسم المقاتل فمن الممكن أن يكون واحدًا من رفاقي السابقين. ردّت بالنفي.

لا أستطيع وصف فرحي حين أعطتني ورقة صغيرة تضمّ كلمتين: الأخت كريستين. كان الاسم مكتوبًا بالفرنسية. فلو لم تلفظه هي لتعذّر عليّ معرفته. غريب هو خطّ الأطباء الذين يكتبون كأنّهم لا يريدون أن يفهم أحدٌ عليهم سوى زملائهم والعامل في الصيدليّة.

مكتبة الفكر الجديد

18

دلّتني العاملة في مكتب الاستعلامات على قسم الطوارىء حالما سألتها أين أجد الأخت كريستين. كان القسم يغصّ بالناس خلافًا للأقسام التي مررت بها قبل الوصول إليه.

رأيتُ راهبة واحدة بين الممرضين والممرضات. جميلةً وطويلة. ثوبها الكحليّ مكويّ جيّدًا كأنّها ذاهبة إلى القدّاس لا عاملة في المستشفى. خصلٌ من شعرها الكستنائي تظهر من حافات الغطاء الأبيض الذي تستره طرحة كحلية. إنّها في قرابة الثلاثين من العمر، تصلح لأن تكون ممثّلة أو عارضة أزياء لا راهبة.

كانت تقيس الضغط في الدم لأحدهم، وتعطي ممرضةً إرشادات باللغة الفرنسيّة.

وقفتُ قرب المدخل منتظرًا فراغها من العمل. فما إن فكّت رباط آلة الضغط عن زند المريض، حتّى أسرعتْ إلى معاينة مريض آخر مستلقٍ على عربة كرّاجة، فلم أقدر على مكالمتها.

جلستُ على مقعد يتسع لشخصين مطلّ على الغرفة حيث تعمل الراهبة.

لم أزح عينيّ عنها حتّى إذا استراحت قليلاً أهبّ إليها وأقدّم نفسي.

مكتبة الفكر الجديد

على مسرح خيالي، وجدتني ممرّضًا كهذا الممرّض الذي يمازح زميلة له وهو يضمّد إصبع فتى. أو كذاك الذي يوخز بالإبرة زند امرأة عجوز ثم بقطنة يمسح موقع الوخز. أو كذلك الذي يساعد رجلاً على اعتلاء العربة النقّالة...

لكنّي لا أعرف شيئًا في مجال التمريض. أيمكن أن أتعلّم مثل هذه الأعمال سريعًا ثم أقوم بها؟

لا أحد يخلق متعلّمًا. وذهني ليس غليظًا. إذا أحببتُ شيئًا أتقنه. المهمّ أن أحبّه.

ليس شكّ الإبرة وتضميد الجروح وقياس الضغط أمورًا صعبة. في ساعة واحدة أتعلّم أصولها، ثم أزاولها في إشراف الراهبة نفسها أو أيّ ممرض تنتدبه هي.

ساكون متعاونًا إلى أقصى مدى. ولن أخذلها وأخذل الطبيب الذي أوصاها بي.

حالما خلعتْ الراهبة القفّاز وأنزلت الكِمامة، قفزتُ نحوها. سلّمتُ عليها وذكرتُ لها اسمي واسم الطبيب. فرحّبتْ. وطلبتْ أن أنتظرها في الصالون المجاور.

لم يطل انتظاري.

توّقعتُ أن تطرح عليّ عددًا من الأسئلة. لكنّها لم تفعل. ربّما الطبيب أخبرها عني أو أنّها تثق به ثقةً جعلتها تدخل فورًا في الموضوع. قالت إنّها في حاجة إلى شخص لبرّاد الموتى في النهار، وللمساعدة عند الاقتضاء في قسم العمليّات في الليل. وصمتتْ مترقّبةً ردّ فعلي. قابلتُ صمتها بصمتٍ استشفّتْ هي منه حاجتي إلى بعض الوقت لدرس العرض. وكأنّها قرأتْ في عينيّ ما يشغل بالي، قالت إنّ

مكتبة الفكر الجديد

النوم مؤمّن في الغرفة المخصّصة لمعاوني الأطباء. وصمتتْ مرّة ثانيــة. لّما لاحظتْ أنّ كلامها الأخير ترك ارتياحًا على وجهــي، أمهلــتني ساعتين للتفكير قبل إعطاء الجواب.

أنا عابر ليطاني أشتغل في برّاد الموتى؟

مستحيل. لن أقبل. فلتبحثْ عن شخص غيري. صحيح أنّــي مستعدّ لأيّ عمل، فالشغل ليس عيبًا، لكن العمل في بــرّاد المــوتى، مرفوض. وتذكّرت قصة "حفّار القبور" لجبران، كنت قرأتهــا أيّــام المدرسة وأخافني العنوان فحفظته ونسيت المضمون.

ما الفرق بين حفّار القبور وحارس الموتى أو ناقلهم أو لســت أعرف ما العمل الذي ينتظرني في البرّاد في حال الموافقة؟

أليس هنالك عمل آخر غير هذا؟

لماذا لا يُحصر عملي بقسم العمليات وحده؟

إنّها تستغلّني. تريدني أن أعمل ليل نهار.

ومتى أستريح؟

ألا يحقّ لي بقسط من الراحة مثل سائر خلق الله؟

ما جعلني متردّدًا، أو ميّالاً إلى القبول في آخر المطــاف، هــو إمكان المبيت في المستشفى. ربّما عرفتْ أنّ ذلك نقطــة ضــعفي، فنَقَرت عليها.

لو عثرتُ على بيت للإيجار لما كنت لأقبل عملاً كهذا.

أشتغلُ في البرّاد، وأفتّش على بيت. حين أجد البيت أترك الشغل وأبحث عن سواه. هذا يقتضيه المنطق ما دامت الأبــواب مغلقــة في وجهي. والباب الوحيد المفتوح هو باب البرّاد. فمن الغباوة أن أضــيّع هذه الفرصة. فلأجرّب شهرًا أو شهرين. ثم لكل حادث حديث.

مكتبة الفكر الجديد

قصدتُ الراهبة لأبلغها أنّي وافقت. لم أجدها. قالوا إنّها تتغدّى.

خرجتُ إلى الحديقة المجاورة، وجلستُ تحت الصفصافة المُسنّة. على جذعها، شعارات وشارات حزبيّة وقلوب تخرقها سهام، وأسماء عشّاق ربّما فرّقت الأيّام أصحابها وظلّت الشجرة شاهدة على الحبّ الذي كان.

نظرتُ إلى الأعلى، فلم أرَ ورقة يهزّها مجيء طير ورحيل آخر، ولا عصفورًا يستريح على أحد أغصانها، ولا عشًّا تملأه الفراخ زقزقة.

ما أتعس الأشجار التي تهجرها العصافير. ولا يقيم فيها سوى الغبار والذباب.

في الضيعة، أيّام الصيد، لطالما طاب لي الغفو تحت صفصافة تفرد ظلالها على نبع شحيح. وكثيرًا ما عكّر إغفاءتي عصفور رمى سَلْحه على وجهي أو على رأسي. كان ذلك يغيظني في حينه، ويضحكني لدى تذكّره لاحقًا. لكنّني لم أسعَ إلى الانتقام. أقسمُ أنّي لم أطلق النار على طير يحطّ على غصن. المتعة، كلّ المتعة، في إصابته وهو في الجوّ يراوغ ويناور. الصيّاد الحقيقي يلتذّ بصيد الطير وليس بأكله.

في جولة بالسرفيس، سمعتُ في الإذاعة شاعرًا، أظنّ أن اسمه شوقي أبي شقرا، سمعته يندّد بصيد الطيور. وعلقت في ذهني جملة قالها جعلتني أندم على كلّ عصفور قتلته، وهي: "حدا بياكل موسيقى". أبدلتُ بـ "بياكل" "يقتل".

بلى أنا قاتل موسيقى.

مكتبة الفكر الجديد

كانت مشاوير الصيد وذكريات السهل لا تزال في بالي، عندما دخلتُ قسم الطوارئ، ورأيتُ الأخت كريستين تحادث راهبة أخرى في الممرّ المفضي إلى قسم الإدارة.

تراجعتُ وانتحيتُ جانبًا. لم أرَها تنظر إليّ مباشرة لكنّي شعرت بنظراتها تتبعني حين أدرتُ ظهري وانسحبتُ. تأكّد لي ذلك عندما انتهتْ من حديثها واتجهت نحوي، فقلتُ لها على الفور: "بدّي اشتغل". رحّبتْ بقراري: "قدّامك تلات شهور تجربه. يا بتكفي يا..."، لم أدعها تكمل: "ما رح خيّب ظنّك".

نادتْ ممرّضًا وطلبت منه أن يرشدني إلى مكتب الأمّ الرئيسة كي تتعرّف إليّ، ثم إلى مكتب المسوول عن التوظيف، فإلى إحدى الراهبات لأتسلّم منها مريولين أبيضين.

كذلك أرشدني الممرّض إلى الغرفة التي سأنام فيها، وإلى الخزانة حيث سأضع أغراضي. كان ودودًا جدًّا. قلّما يحظى بمثله شخصٌ مقبلٌ على عمل جديد في مكان لا يعرف فيه أحدًا.

بالمريول الأبيض النظيف والمكوي، وقفتُ قبالة المرآة. لم أعرف نفسي. تنقصني السمّاعتان كي أبدو طبيبًا. ومَن يراني لن يشكّ في أبدًا. استغربتُ مدى التغيير الذي تحدثه الثياب في الإنسان. فقبل أيام، كنت بالثياب العسكريّة أبدو مقاتلاً.

شعرتُ، وأنا في الزيّ الجديد، بأنّي غريب. لم أعتد ارتداء ملابس نظيفة. خشيت أن تلامس يداي المريول لئلاّ يتّسخ.

كنت أسير وأنظر إلى العابرين لعلّي أقرأ في عيونهم النظرات المستغربة كما لو أنّهم عارفون ما بي، وشاعرون مثلي بغرابة وضعي المستجدّ.

مكتبة الفكر الجديد

لم أُحرج إلاّ لدى وصولي إلى قسم الطوارىء. نظراتُ زميلاتي وزملائي نـــزلت عليّ كالإبر. ارتبكتُ وكدتُ أخلع المريول وأقذفه في وجوههم وأرحل.

سمعتُ أصواهم طالعةً من عيوهم: هذا هو الذي سيشـــتغل في البرّاد (اسمه المتداول هنا).

ممرضة واحدة بقيت منغمسة في العمل، لم تنظر إليّ. ولم تبتسم كسواها تلك الابتسامة المصطنعة. كانت أجمل زميلاتهـــا. أغـــاظتني لامبالاتها مع أنّي ابتكرت لها أعذاراً.

قدّمتني الأخت كريستين إليهم ذاكرةً اسمي كـــاملاً. وعنـــدما عرّفتني هم اكتفت بذكر أسمائهم الأولى. وجدتُ في الأمـــر تمييـــزًا وتفرقة.

لم تقلْ لي ماذا عليّ أن أفعل.

انتظرتْ حتّى فرغتْ من الكتابة على دفتر سميك يشبه الـــدفاتر المدرسيّة ذات السطور المتقاطعة. وطلبتْ أن أتبعها. تبعتُها وأنا أتأمّل مشيتها.

قبل وصولنا إلى البرّاد، قالت إنّها غدًا تعلّمـــني مـــا يجـــب أن أتعلّمه، وإنّ روبير، وهو زميلي في البرّاد، سيساعدني أيضًا.

فتحتْ باب البرّاد. دخلتْ قبلي ولحقتُ بها. الـــبرودة عاديـــة خلافًا لما ظننتُ. وما ظننته هو أنّ البرّاد سيكون شديد البرودة.

سريران من المعدن على كلٍّ منهما جثّة. وأربع جثـــث تحتـــلّ نصف الغرفة.

قالت الراهبة إنّ الجثث أحيانًا تغطّي الأرض، خصوصًا خـــلال المعارك وبعد الاقتحامات وانفجار السيّارات المفخخة.

مكتبة الفكر الجديد

كانت تحكي وتشرح وتنظر إليّ نظرة تريد بها معرفة ردّ فعلي ومدى صلابة موقفي. فعمل كهذا يقتضي شجاعة نادرة وقلبًا قويًا.

لم تكن تعلم أنّي كنتُ مقاتلاً، اعتدت رؤية الجثث، مبتورةً ومحترقةً ومسحولةً، ولطالما نقلتُ على ظهري أو بمساعدة آخرين، جثث رفاق لي وأشخاص لا أعرفهم، إلى سيّارات الإسعاف، وإلى المستشفيات.

استمرّت في الشرح كي أعرف العمل الذي سأبدأ به في الغد، وشدّدت على ضرورة احترام حرمة الموت، ومعاملة الجثامين كأنّ أصحابها أحياء.

وقالت إنّ هنالك أمورًا ضرورية ستلقّنني إيّاها تباعًا.

فيما هي تغلق الباب تمنّت لي حظًّا طيّبًا.

كدتُ أضحك حين قالت Bonne chance. كتمتُ الضحكة لئلاّ تُفسّر خطأً.

فأيّ حظّ سعيد قد أجده بين الأموات؟

وأيّ توفيق ومشهد الجثث الست أيقظ في ذاكرتي جميع المشاهد المماثلة، وخصوصًا جثّة عزيزي الغارقة في دمائها على السرير.

عدنا إلى قسم الطوارىء، كما أتينا، هي أمامي وأنا وراءها، أتأمّل طريقة مشيها وحركة ردفيها الجميلين.

أتأمّلها خلسةً كأنّ ثمّة عينًا سريّة في ظهرها، تراقبني.

منذ ذلك النهار، لم يبقَ في بالي سوى وقع مشيتها ونقاوة صوتها وصراخ أنوثتها تحت الثوب الكحليّ.

مكتبة الفكر الجديد

19

الغرفة التي أتقاسمها وثلاثة آخرون تقع في الطـــابق العلـــوي، تجاورُها غرف الأطباء المتدرّبين. الحمّام الوحيد في هذا الطابق سرّع في تعرّفي إلى هؤلاء جميعهم. فانتظار أدوارنا، ولا سيّما في الصـــباح، ريثما يفرغ الحمّام من شاغله، أتاح لنا تبادل الأحاديث والأخبار.

كان الكلام يسلّينا وينسينا قليلاً الضيق الذي نحن فيه، والـــذي يُترجم حال إفراغ المبولة، بتنهدّة يرافقها استرخاء لطيف، وأحيانـــاً طيف ابتسامة.

لفتني في الحمّام وجود كتب طبّية باللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة. ومجلاّت زجل وأخرى عن عالم السيّارات. لهذا السبب كان الداخل إليه لا يخرج منه إلاّ بعد توسّلات المنتظرين. القراءة تلهيـــه فينســـى نفسه، وينسى زملاءه الذين متى نفد صبرهم نـــزلوا إلى مـــراحيض الطبقات السفلى.

ولطالما أفرغتُ مثانتي في قنينة مياه معدنيّة أحتفظ بها لهذه الغايـــة. أقف وراء باب الغرفة، أبوّل فيها ثم أضعها في الكيس كي لا يلاحـــظ أحدٌ ما فعلت. وفي الطريق إلى البرّاد، أرمي الكيس في أقرب مستوعب.

كان زملائي في الغرفة، يداومون في الليل مُداورةً. يبقى اثنـــان منهم لحالات الطوارئ، ويبيت الثالث في بيته. هذا الوضع ســـيتغيّر

مكتبة الفكر الجديد

عندما أصبح أنا أهلاً للعمل في قسم العمليّات. إذ ذاك يداوم واحد منهم فقط. فما من حاجة إلى غير اثنين لمساعدة الطبيب خلال العمليّة.

تسابق الثلاثة إلى تعليمي القواعد المتبعة والإجراءات التي يجب التقيّد بها. وأصعبُها حفظ أسماء الأدوات التي يستعملها الطبيب في أثناء العمل. إذ عليّ أن أسلّم إليه الأداة المطلوبة فور لفظه اسمها. والاسم عادةً بالفرنسية. وقد ابتكر الثلاثة طريقة تسهّل عليّ الحفظ. كرّوا كلّ واحدة من الأدوات على ورقة مستقلّة، ذاكرين اسمها. وأعطوني كدسة من الأوراق طالبين إليّ حفظ أسماء الأدوات وأشكالها. فلا ينفع أن أحفظ الأسماء من دون الأشكال، والعكس صحيح أيضًا.

وراحوا يمتحنونني. فاستظهر لهم الأشكال والأسماء. وقد أعجبوا بتقدّمي السريع، وبدأتُ أرافقهم إلى قسم العمليّات، وأتابع ما يفعلونه، والطريقة التي بها يسلّمون الأداة إلى الطبيب.

لم تكد تمرّ عشرة أيام حتى نلتُ ثقتهم، فأبلغوا الأخت كريستين أنّي بتّ جاهزًا.

نشأت بيني وبينهم صداقة سقفها تغطية بعضنا بعضًا كي نبقى في منأى عن لوم الإدارة.

أحدهم كان مولعًا بسباق السيّارات، وبالسيّارات، يجمع المجلات المتخصصة في إحدى زوايا الغرفة، ويتباهى بأنه يعرف حتى أمكنة البراغي في هيكل هذه السيارة أو تلك. وهو معجب بماريو اندريتي الذي فاز قبل سنة، أي في 1978، ببطولة العالم لسباقات الفورمولا واحد. لقّبته بأندريتي. فتبنّى الجميع اللقب. وكان هو، لدى مناداته به، يردّ بلا تذمّر.

مكتبة الفكر الجديد

والثاني عاشقٌ للزجل. معبوده موسى زغيب الذي، في رأيه، لا يُعلى عليه. وهو يقتني كتبه وكاسيتات حفلات جوقته، "جوقة القلعة"، التي كان يستمع إليها قبل النوم، وفي الصباح لدى حلاقة ذقنه أو لدى كيّ أحد قمصانه. ولفرط ما سمعتُ تلك الكاسيتات حفظتُ أبياتًا كثيرة ارندحها بلا قصد وأنا أقوم بأشغال روتينية. كنتُ أغنّيها على طريقة موسى زغيب، مسبوقة بـ "الآخ" التي كان هو يستهلّ كل واحد من ردوده المرتجلة. وما إن أنتبه حتى أسكت وأكمل ما أقوم به صامتًا. سمّيته بو موسى. وهو راغب، متى تزوّج ورُزق مولودًا ذكرًا، في تسمية ابنه موسى تيّمنًا باسم شاعره المفضّل.

والثالث مشغوف بصيد السمك. لديه مجموعة من الصنانير منتصبة في إحدى زوايا الغرفة، والعدّة الكاملة يبقيها في صندوق السيّارة. حتى عندما يكون الجوّ عاصفًا يذهب إلى الصيد. فالسمك عند ذاك يجوع فيَسهُل صيده. وهو تمامًا مثل صيّاد الطيور المحترف، ومثلي أيضًا، يلتذّ بصيد السمكة لا بأكلها. ما يصطاده يهديه إلى أقربائه وأصحابه. وكثيرًا ما خصّ الأمّ الرئيسة بأكلة سمك تشاركها فيها الراهبات، وأحيانًا المطران إنْ صودف وجوده في المستشفى وقت الغداء. لهذا السبب كانت لديه حظوة كبيرة لدى معظمهن. من باب المزاح، سمّيته "غُبَس" وهو نوع من السمك الصغير. في البدء اعترض، وتمنّى عليّ، وعلى أندريتي وبو موسى أن نناديه باسمه الحقيقي. ثم غيّر موقفه وقبل الاسم الجديد شرط ألاّ يعرف به سوى نحن الأربعة.

كما أطلقتُ أنا على كلّ منهما لقبًا، كذلك سمّوني هم "حارس الموتى". لم أحتجّ لكنّي في أعماق ذاتي، أزعجني اللقب. كان ممكنًا

مكتبة الفكر الجديد

أن يختاروا أيّ لقب آخر، ولا اعتراض لديّ. لقّبوني به مع أنّهم يعرفون أنّي لم أطِقْ العمل في البرّاد، وطالما هم أنفسهم طلبوا إليّ أن أصبر، فلا شيء ثابتًا في الحياة، وخصوصًا في المستشفى.

لقبي وحده من بين ألقابهم استفزّ قريحة بو موسى، فارتجل قراديّة سرعان ما انتشرت في المستشفى:

بيفزع لو شايف خيالو   مارق عالحيط قبالو

عامل ع الموتى حارس   ومش قادر يحرس حالو

بو موسى كان أقرب الثلاثة إليّ. ربّما لأنّنا من المنطقة نفسها مع أنّ قريته بعيدة جدًّا عن قريتي. ردّد أنّنا نشرب الماء نفسه، وأنّ الماء لا يصير دمًا بدلاً من أن الدم لا يصير ماء.

خلال نوبته، نسهر معًا. نمزج الفودكا بالعصير ونشرب ونحن نستمع إلى واحدة من حفلات الزجل. نصلّي كي يستمرّ الوضع الأمني هادئًا. فالقصف المفاجىء في الليل قلّما مرّ من دون الإتيان بجرحى إلى المستشفى، فننهمك بإعداد غرفة العمليّات والاستعداد لاستقبال من تستدعي حالتهم جراحة مستعجلة.

وطالما استعنّا بأكل الشوكولا وبكمامتين بدلاً من واحدة، لتطويق رائحة الفودكا، التي قد تنشرها أنفاسنا، فنعلق في الفخّ. ومن الممكن أن نُطرد إذا ثَبتَ أنّنا نشرب في المستشفى، وإن خارج الدوام.

كنّا نتفادى الوقوف قرب طبيب البنج، لأنّ لديه حاسّة شمّ قويّة لم يضلّلها التمويه. وكان هو يستغلّ خوفنا من أن يشي بنا، فيطلب منّا، بنبرة آمرة، أن نجلب له قنينة الماء من هناك، أو أي شيء آخر بإمكانه هو أن يأتي به.

مكتبة الفكر الجديد

طبيب القلب كان يصل ثملاً في بعض الأحيان. يستدعونه فجأة فيترك الكأس والأصحاب ويأتي. يلبّي الواجب الإنساني الذي أقسم بشرفه على أن يؤدّيه كاملاً. يحتسي فنجانَيْ قهوة ثم يبدأ الجراحة. أتذكّر قوله إنّه مهما يشرب يصحُ حالما يجلس وراء مقود السيارة، وحالما يدخل غرفة العمليات. هنالك شيء ما في عقله الباطني يدقّ جرس الإنذار كي يسترجع قواه الفكرية لئلاّ يموت في حادث اصطدام، أو يقتل المريض خلال الجراحة.

أكثر ما كان يزعجني هو طلب الطبيب مني التخلّي عن كلّ شيء، والتفرّغ لمسح العرق عن جبينه. هذا يحصل حين تقتضي الجراحة مزيدًا من التركيز والجهد. كنت أقف قربه منقّلاً نظري بين يديه المشغولتين بالعمليّة ووجهه وعينيه. وكلّما رأيت العرق ينضح من جبهته، أسرعت إلى التقاطه بفوطة مطهّرة.

أحيانًا، كان يطلب مني أن أحكّ أنفه، أو وجنته، أو ذقنه. وعندما تستغرق الجراحة وقتًا طويلاً، يتمنّى عليّ أن أدلّك كتفيه المتشنّجتين. فأفعل. أكرّر التدليك متى راح يحرّك رأسه يمينًا ويسارًا، فتُسمع خلال هذه الحركة المتواصلة، طقطقة زردات عنقه. لم يكن مرغمًا على الطلب بعد هذه الإشارة. كنت أقف وراءه، وأعالج العضلات المشدودة حتى تسترخي.

كان الأطباء يطلبون ذلك مني أنا تحديدًا، لأنّي الموظّف الجديد الوحيد في القسم. لا يجوز أن يقوم بمثل هذا العمل الهامشي موظّف عتيق لديه من الخبرة ما يجعل حضوره إلى جانب الطبيب ضروريًا.

خشيتُ أن يصبح عملي محصورًا بمسح العرق عن وجوه الأطبّاء وتدليك أكتافهم وحكّ وجناهم وأنوفهم وذقونهم.

مكتبة الفكر الجديد

الشغل في قسم العمليّات مُسلٍّ إذا صودف موعد العملية قبل منتصف الليل. أمّا إذا صودف فجرًا، فالأشغال الشاقة أرحم إذ نفيق من النوم، مسرعين إلى ارتداء ثيابنا وإلى غسل وجوهنا.

بلا توقّف، نشتغل ثلاث ساعات، المدّة التي تستغرقها الجراحة العادية، وقد تطول إذا كانت الجراحة صعبة.

وطالما نزلتُ من غرفة العمليّات رأسًا إلى البرّاد، حيث ينتظرني عملٌ آخر. لا أصدّق متى ينتهي الدوام حتى أصعد إلى الغرفة وأنام. فرجلاي تعجزان عن حملي، وتبدأ يداي بالارتجاف، فلا يحلو لي لا الأكل ولا الشرب ولا الحياة.

مكتبة الفكر الجديد

20

استغربت أن يكون البرّاد هكذا. غرفة طولها أربعة أمتار وعرضها بالمساحة نفسها. ظننته واسعًا على غرار البرّادات التي رأيتها في الأفلام والمسلسلات، حيطانه ملأى بالجوارير حيث يُسجّى الموتى. ويحرسه شرطيّ أو موظّف كثيرًا ما يجسّد دوره ممثّل يوحي لمن يراه أنّه عائد للتوّ من الموت وليس حارسًا عاديًّا. وهو دومًا مدجّج بعدّته. مصباح في يده ولو كان الوقتُ نهارًا، وعلاقة المفاتيح بحزامه وعبوس لا يفارق وجهه. حارس البرّاد يجب أن يكون كذلك. تخيّل حارسًا للموتى قد يحضّك شكله أو سلوكه على الضحك، أو حتّى على الابتسام، وأنت في حضرة الموت. من الممكن حدوث ذلك في أفلام كوميديّة. لكنّ حتّى هذه تحترم مهابة المكان. وهو المكان الوحيد الذي يتساوى فيه البشر. فلا كبير ولا صغير. ولا غنيّ ولا فقير. ولا أحد معفًى من زيارته متى دنت ساعته التي لا يعلمها إلاّ الله.

لا أعرف المعيار الذي اختارتني بموجبه الأخت كريستين. أو هل هنالك أصلاً معيار.

لن أشغل بالي بهذه الأفكار. أريد أن أعمل في مستشفى لا أن أمثّل في فيلم. أعتقد أنّها لم تربط شكلي بعملي. لو أنّها وضعتْ

مكتبة الفكر الجديد

يدها على صدري، عندما راحت تحكي عن العمل الذي ينتظرني، لراجعت حساها، ولطلبت أن أريها عرض كتفيّ. في أثناء حكيها، لم يكن قلبي يدّق كعادته. كنت أسمع دقّاته هبوطها وصعودها متى تخيّلتني أنفذ ما أسمعه.

ردّ فعلي الداخلي هذا لم يكن هو نفسه عند رؤية الغرفة التي يسمّونها "البرّاد". أوّل وهلة، فكّرت أنّها مدخل للبرّاد المكوّنة صورته في رأسي. فوجئتُ لمّا قالت الراهبة: "هيدا البرّاد" مادّةً يدها إلى الأمام كمن يعطي أحدهم شيئًا. تابعتُ حركة يدها مذهولاً.

فرِحتُ لصغر الغرفة. وفرحتُ أيضًا لأنّها لا تشبه برّادات التلفزيون والسينما.

لم أسأل أين الجوارير التي يوضع فيها الموتى.

هنالك سريران فقط. على كلّ منهما جثّة. وأربع جثث على الأرض.

السرير طوله نحو مترين وعرضه أقلّ من متر، وعلوه متر. ترفعه أربع قوائم. بين القائمتين اللتين هما لجهة الرأس، يستقرّ محرّك كهربائيّ مستندًا إلى قاعدتَيْ حديد، مزوّدًا زرّين أحدها يطفئه والآخر يشعله. ودَوْرُه بثّ التبريد في لوح من المعدن الستانلانس ستيل حيث تُمدّد الجثّة. مرجّح أنّ قطعه تُركّب في مشغل محلّي. اكتشفتُ ذلك لاحقًا عندما انتفخت جثّة برغم وجودها عليه. ومن المفترض عدم حصول الانتفاخ. السبب أن المحرّك تعطّل فجأة، وإصلاحه يقتضي فكّه وأخذه إلى قسم الصيانة. وإنْ لم يستطع القسم إصلاحه، فلا بدّ من إرساله إلى المشغل، وقد تستغرق إعادته إلى العمل بضعة أيام. كنت أتولّى تحريره من القاعدتين ووضعه خارج

مكتبة الفكر الجديد

الغرفة مع أن هذا ليس في نطاق اختصاصي. فما من أحد من قسم الصيانة يجرؤ على دخول البرّاد. هذه حجّة ساقطة تتيح للمتسلّحين بها رمي العمل الذي يجب أن يقوموا هم به على الآخرين. والراهبة تغضّ النظر عن هذه المسألة رفعًا للمسؤولية. فلعلّ أحدًا ممن انتُدبوا لدخول البرّاد من أجل عمل ما، كان قلبه ضعيفًا لا يحتمل رؤية الجثث، فيُغمى عليه. وربّما لن يخرج من غيبوبته.

للغرفة بابان. باب نصفه السفليّ حديد ونصفه الأعلى زجاج أدكن مصبوبٌ على قضبان حديد رفيعة. والرؤية من خلاله متعذّرة. وهو يفضي إلى الممرّ الذي يربط قسم الطوارىء بمدخل المستشفى حيث مكتب الاستقبال وقاعة الانتظار ومكاتب الإدارة.

أمّا الباب الثاني فمقفل بإحكام منعًا لتسرّب الرائحة والميكروبات. يطلّ على فسحة ملأى بسيارات معطّلة وبخزّانات المياه التابعة للمستشفى، وموتورَيْن عاملَيْن على المازوت يوزّعان الكهرباء على أهالي الحيّ لدى انقطاع التيّار الكهربائيّ.

جدران البرّاد طُرشت بلون الكْريما. وقد تغيّر اللون لفرط تنظيف الغرفة بالمبيدات والموادّ القاتلة للميكروبات والمزيلة للرائحة.

يتصدّر الحائط المقابل للباب المفضي إلى الفسحة، صليبٌ على سيبة معدن صغيرة، موضوع على لوح فورمايكا تحمله قاعدتان على شكل الرقم ستة، تحوطه لمبتان من نوع شمعة مضيئتان على الدوام.

يتدلّى إلى يمين اللوح، شريط قصير ينتهي بكبسة لإطفاء اللمبتين وإنارتهما.

ليس وحده لون الجدران تغيّر. إنما أيضًا لون البلاط نتيجة رشّ أرض الغرفة بالأدوية المطهّرة المحتوية على مزيج كيماوي قويّ. ثم

مكتبة الفكر الجديد

شطفها بالماء الذي لا يقوى على إزالة رائحة الأدوية. رائحة قد تتسبب بصداع وغثيان. ومن الزوّار والممرّضين من يُصاب بدوار عندما يشمّها، أو يستفرغ ما في معدته. وتبقى مع ذلك أقلّ قرفًا من رائحة الإفرازات التي تلفظها الأبدان بعد مضي ساعات على استقرارها في البرّاد.

لعلّ رائحة الإنسان الميت أكثر الروائح قرفًا.

أيّام الصيد مررتُ قرب حيوانات نافقة: حصان عجوز، بقرة مريضة، حمار عديم الفائدة، كلب افترسه الجرب، هرّة دهستها سيّارة...

لكنّ رائحتها أدنى حدّة من رائحة جثّة ابن آدم.

حسبتُ أنّ رائحة الجثّة ليست متأتّية من تحلّلها بل هي مزيج من إفرازاتها والأعمال القذرة التي اقترفها صاحب الجثّة خلال حياته.

ما دحض هذه الفكرة أنّ روائح جميع الجثث متشابهة. ومن غير المنطقيّ أن يكون أصحابها كلّهم فاسدين. فالدنيا لم تخلُ من الصالحين.

كانت الروائح تخترق الكِمامة. وكنتُ أستخدم كمامتين عندما تصبح الرائحة حادّة جدًّا. ودوماً في حوزتي بضع كمامات عل سبيل الاحتياط. العمل بلا كِمامة مستحيل. مرارًا اضطررت إلى دخول البرّاد عاري الوجه لعدم توافرها. فأحيانًا كان القصف يتواصل أسبوعًا، وأكثر، فتُقطع الطرق والمعابر بين الشرقيّة والغربيّة. فيحول ذلك دون وصول الأدوية والمستلزمات الأخرى. وطالما جُلب الأطباء تحت القصف من بيوتهم بالدبّابة، أو بالسيّارات المصفّحة.

مكتبة الفكر الجديد

لمثل تلك الحالة، أدخر الكمامات. أمدّ الأخت كريستين بها بعدما أدّعي أنّي وجدت بطريق المصادفة كدسة منسيّة هنا أو هناك. أتفادى القول إنّي أخبّئها لخشيتي من عدم توافرها في أحد الأيام. كنت أخفيها في أمكنة لا تثير الشبهات. في الحديقة، مثلاً. ألفُّ رزمة من الكمامات في كيس من النايلون وأطمره في التراب. أضع فوقه قطعة من الخشب أو أيّ شيء يحميه من مياه المطر، ومن أشعّة الشمس. تجنبّت تخبئتها في خزانة الغرفة لئلاّ يظنّوا أنّي سرقتها في حال العثور عليها. مرّة، خبّأتُ كدسة في الفسحة. ولم أكرر المحاولة بعدما رأيتُ رجلاً يبول عليها. كانت الفسحة منذ المساء فصعودًا، ملتقى الذين دهمتهم الحاجة إلى إراحة أنفسهم. ولم تنفع مع هؤلاء عبارة "رجاءً ممنوع التبويل" المكتوبة على الجدران. ولم ينفع أيضًا رشقهم من شرفات المنازل بالبندورة وقناني المياه وغيرها من الأدوات التي إذا ارتطمت برأس أحدهم قتلته.

كنتُ أحبّ شكلي في الكِمامة، مغطّيًا بها أنفي وفمي أو تاركًا إيّاها معلّقة حول عنقي. اعتدتها فصرت أخرج من البرّاد، وهي على وجهي، ولا أفطن لها إلاّ حين أهمّ بالشرب من برّاد الماء في أوّل الممرّ لجهة قسم الطوارىء. وأحيانًا، كنت أحادث زميلاً لي من غير أن أنزعها، وأنتبه عندما أقرأ في نظراته أنّه يظنّني فاعلاً ذلك من قبيل السرساب، أو تجنّبًا لمواجهة نَفَسه. عندئذ، أخلعها وأضعها في جيب المريول أو أتركها مدلاّة على صدري.

مثلما ألفتُ شكلي بالكِمامة ألفتُ البرّاد. دومًا، تولد بيني وبين الأمكنة ألفة عميقة. يصبح المكان جزءًا من كياني، أنقله أنّى ذهبت، أقارنه بالأمكنة الأخرى، وأرجّحه عليها لأنّه هو مكاني، يخصّني

مكتبة الفكر الجديد

وحدي، أنتمي إليه تمامًا مثلما ينتمي هو إليّ. وما أشدّ ضياعي عندما أرغم على مغادرته. ويستمرّ الضياع ما استمرّ حضور المكان فيّ. ولا أشفى إلاّ بعد أن أتكيّف مع المكان الجديد.

هذا ما حصل لدى فراري من الضيعة، وبمقــدار أقــلّ لــدى مغادرتي الثكنة.

عندما اقتنعت بالعمل في البرّاد، بدأت تنشأ الألفة. كان لا بــدّ من الاقتناع لتقبّل الصعاب المرتقبة.

وكما لكلّ حرفة أسرارٌ ينبغي الاطّلاع عليها ليســتطيع مــن يزاولها النجاح فيها، كذلك لمعاملة الجثّة قواعد. إنّها حِرفة كسواها من الحِرَف، لكنّها أرقاها لأنّها متعلّقة بكائن بشريّ ميت.

صمّمتُ على إتقان هذه الحرفة، وانتظرتُ البــدء بتلقّــي أولى قواعدها.

مكتبة الفكر الجديد

21

تعلّمُ تجهيز الجثّة تمهيدًا لتسليمها إلى الأهل، أصعب المراحل. وهو يتضمّن الحشو والتنظيف.

لم أكن قد سمعت بمثل هذه التدابير التي تخضع لها الجثّة قبل دفنها.

قبل مجيئي إلى بيروت لم أرَ جثّة ميت.

في الضيعة، كنتُ إذا رأيت جنازة يتقدّمها نعش، أغيّر طريقي.

عندما توفّى خالي تفاديت رؤيته مسجًّى على السرير برغم إصرار أمّي على أن ألقي عليه نظرة الوداع. رأيت التابوت لدى مغادرة البيت. في الطريق إلى المدافن، حمل أصحابه النعش على الراحات ورقّصوه، ورقّصوا غطاءه. وهذا يحصل عادةً لدى وفاة أحدهم وهو في عزّ الشباب. أما المسنّون فتُحمل نعوشهم على الأكتاف.

هنا في البرّاد، اعتدتُ رؤية الجثث منذ الأيام الأولى.

أنصتُ إلى شرح الراهبة شأنَ من ينصت إلى حكاية شائقة لا تجري فصولها في سوى مكان واحد: البرّاد.

شرحتْ لي أهمّيّة تجهيز الجثّة. قالت إنّه ضروريّ لأنّ هنالك جثثًا تبقى أيامًا قبل أن يعرف ذوو الميت أنّها عندنا.

مكتبة الفكر الجديد

علّمتني أصول الحشو على جثّة رجل ستّيني صدمته سيّارة مسرعة لدى اجتيازه الأوتوستراد، فتوفّى على الفور.

خلال التطبيق، أوشكت أن أقول لها لستُ أهلاً لهذا العمل. لكنّي تمالكت و لم أتفوّه بكلمة.

ما جعلني أتراجع هو نظرتها إليّ، وهي تحمي فمها وأنفها بكِمامة. فبدت عيناها في تلك اللحظات جميلتين جدًّا. كانت تنظر إليّ، في أثناء الشرح، نظرات لا أعرف لماذا فسرّتها تفسيرًا قد تطردني لو اكتشفتْه.

عدا النظرات، جذبتني الطريقة التي بها تستخدم يديها الرشيقتين. يداها لم تخلقا لحشو الأموات والبقاء داخل القفّاز طويلاً.

حاولتُ استيعاب المعلومات التي كانت تتدفّق من فمها لفرط ما ردّدتها لمن جرّبوا العمل في البرّاد، و لم يستطيعوا الاستمرار. استحيت أن أطلب إليها التمهّل خوفًا من أن تستنتج أن عقلي غليظ.

كانت تنتقل من معلومة إلى أخرى عندما يتأكد لها أنّي فهمت. ثم تعود إلى المعلومات السابقة كي ترسّخها في رأسي. وبين وقت وآخر، تطرح عليّ أسئلة معيّنة كي تمتحنني.

لم أقل لها إنّي أرغب في كتابة المعلومات على ورقة كي أستعين بها متى خانتني الذاكرة.

لو لم ألجأ أنا وبو موسى وغبّس وأندريتي إلى الورقة والقلم لما حفظت بسرعة قياسيّة أشكال أدوات غرفة العمليات وأسماءها.

استسهلتُ التعامل مع هؤلاء. وهم كانوا متفهّمين ومتعاونين.

الراهبة أيضًا متفهّمة ومتعاونة. لكنّ هنالك شيئًا ما يقيني حذرًا وخجلاً إبّان الشرح. هو شعور طبيعي يساور المرؤوس حيال رئيسه. كنت مستعدًّا لبذل أفضل ما عندي كي ترضى عليّ.

مكتبة الفكر الجديد

تفاديت طرح الأسئلة لأنّ ذلك أحيانًا لا يدلّ على أن السائل لم يفهم إنما يدلّ على أنّه بطيء الفهم. هذه العادة ليست جديدة عليّ. رافقتني منذ مقاعد الدراسة. فلطالما كتمت الأسئلة في قلبي لئلاّ يظنّ الأستاذ، أو رفاقي في الصفّ، أنّي غبيّ.

لم أتخيّلني أقوم بما تقوم به الراهبة التي تتعامل مع الميت كأنّه حيّ. أسمعها تقول "فتاح تمّك" عندما بيدٍ واحدةٍ تفتح الفكّين وباليد الأخرى تضع القطن بينهما وتدفعه بإصبعها (أو بالملقط المعدن الطويل) إلى الداخل نحو البلعوم حتّى يمتلىء الفم. وكلّما أتمّت عملاً شكرت الميت على التجاوب. "برافو"، تقول لاثغة بالراء لثغة لطيفة، وتنتقل إلى مكان آخر.

في الأمكنة المتبقية، تلبث صامتة. ربّما لأنّ حشوها أيسر من حشو الفم. أو ربّما لأنّها اعتادت أن تخاطب الجثّة حين تجهّزها وحدها عند الضرورة. فالصوت، صوتُها، يؤنسها في تلك اللحظات الثقيلة، وقد يوهمها سماعها إيّاه أنّها ليست وحدها بين الجثث. تحتاج إلى عنصر حيّ في غرفة مسكونة برهبة الموت كي تكسر الخوف، خصوصًا متى صودف التسليم ليلاً. أحيانًا كانت تدندن أغنية تمضي بها إلى البعيد ولا تفقدها التركيز مع أنّ الغلط ليس مشكلة ما دام التعامل يجري مع جثّة.

لا أحد يصدق أنّ راهبة مثلها، جميلة رقيقة قد تحشو ميتًا وتنظّف جثمانه.

درسُ الحشو استغرق أقلّ من نصف ساعة.

الفم هو المكان الذي يقتضي حشوُه دقّةً وصبرًا. ينبغي ملؤه بالقطن جيّدًا وصولاً إلى البلعوم، ثم يُقفل بقطعة من اللاصق

مكتبة الفكر الجديد

الشفّاف. حشو الأذنين والمنخرين سهل أيضًا. ومثلهما حشو باب البدن.

ربطُ القضيب غير المطهّر أسهل من ربط القضيب المطهّر. الأوّل لا يحتاج إلاّ إلى خيط رفيع متين لربط القلفة بعد حذها إلى ما بعد رأسه.

أمّا القضيب المُطهّر فيُلفّ بقطعة من الشاش ويربط بها ربطًا مُحكمًا.

لا أقدر أن أصف شعوري عندما أساعدها في ربط غير المطّهر. كنت أهتاج عندما تفعل ذلك، ويدوم تهيّجي إلى ما بعد إنجازها العقدة. فأستأذنها وأسرع إلى التواليت وأريح نفسي وإلاّ يشبّ وجع شديد في خصيتيّ يشعرني متى تحرّكتُ أو مشيتُ كأنّ روحي تطلع من بين فخذيَّ.

بعد الظهر، حان موعد الامتحان. طلبت مني الراهبة حشو جثّة منخورة بالرصاص. هذا العمل لمن يشتغل في البرّاد يعادل معموديّة النار للعسكريّ. استغرق حشو ثقوب الجثّة نحو ساعة. كانت تراقبني من دون أن تتفوّه بكلمة. تنظر إلى الجثّة ثم تغيب، فتعود بعد بضع دقائق، تقف قبالتي، تهزّ برأسها، وتغيب مجدّدًا. ومثلها يفعل روبير مع فرق واحد، إنّها تريدني أن أتقدّم سريعًا كي تسدّ بي النقص الحاصل في البرّاد، وهو يريدني أن أخطئ لعلّ تراكم أخطائي يتسبب بالاستغناء عني، مع أنّي، إذا اجتزت الامتحان، أتقاسم وإيّاه المتاعب.

كان حشو هذه الجثة صعبًا.

وددتُ أن يساعدني أحدٌ منهما.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أسدُّ جرحًا فيسقط القطن إلى الداخل، ويستمرّ النـــزف خصوصًا بعد أن يُزال الدم الرطب الذي لم يبلغ بعدُ درجة اليبـــاس. الدم اليابس كان يوقف النـــزف لكنّه لا يمنع الإفرازات من العبور. وطالما انفجر الجرح بعد تفتّت الدم المتيبّس، وتدفّقَ الـــدمُ، فألتقطـــه بعدد من المحارم الورقيّة. ثم أعاود حشو الثقـــب بـــالقطن وأغطّيـــه بقماشة الشاش وأضع اللاصق الشفّاف على القماشة.

إنجاز حشو حتّة كهذه من غير أن أرتكب خطأً، دفع الراهبـــة إلى أن تربت كتفي، من باب التشجيع. حين رآها روبير تفعل ذلك لم يقدر على إخفاء امتعاضه، فأشغل نفسه بعمل هامشيّ ممثّلاً أنّه لم يرَ شيئًا.

لولا أن الراهبة تضع علامة على مستوى الاجتهاد، لنلتُ تنويهًا تسبقه عبارة "جيّد جدًّا". أسعدني أنّها أثنت عليّ في غيابـــي علـــى مسامع عدد من الممرّضات. الممرّضة هلا نقلت إليّ الكلام الطيّـــب الذي قالته عنّي الأخت كريستين.

تخطّيتُ درس الحشو. وبقي درس التنظيف.

مكتبة الفكر الجديد

22

التنظيف أسهل مئة مرّة من الحشو.

استنتجت ذلك حين راحت الأخت كريستين تصبّ مادّة مطهّرة من زجاجة شفّافة على قطعة الشّاش، وتمسح بها جثّة امرأة توفّيت خلال جراحة قيصريّة. ونجا الجنين. كلّما جفّت قطعة الشّاش، أدنتها مني فأدلق عليها من القنينة بعضًا من السائل، ثم تستأنف دهن الجثّة. تمرّر القطعة على الموقع نفسه بضع مرّات. بدأتْ بالذراعين والعنق ثم الصدر والبطن فالفخذين والساقين والقدمين.

لم تكن تشرح لي ما تفعل.

كان كافيًا أن أراقبها كي أتعلّم.

بين وقت وآخر، تنظر إليّ نظرة خاطفة. وعندما يتأكّد لها أنّي مُصغٍ، ولستُ شاردًا، تتابع الدهن. وهي سلّمت إليّ القنينة كي تشركني في العمل إذ كان بإمكانها أن تضعها قرب رأس الجثّة أو بين ساقَيْ المرحومة المنفرجتين قليلاً.

لّما أتى روبير طلبتْ منه أن يُساعدني على قلب الجثّة كي يُتاح لها دهن الظَهر والأمكنة الأخرى. ففعل. ثم دعته إلى الحلول محلّها وإكمال المهمّة. أخذ منها قطعة الشّاش، مدّها نحوي، بلّلتُها بالسائل ذي الرائحة الكريهة، وباشر التنظيف.

مكتبة الفكر الجديد

هي كانت تدهن الجثمان أفقيًا. أمّا هو فدهنه عموديًّا. أراد أن يفهمني أنّه لا يتبع طريقة الراهبة بل له طريقته. كان تصرّفه هذا مزيجًا من كبرياء المعتدّ بنفسه والخشية من منافس قد يتفوّق عليه.

وكم بدا المشهد مضحكًا حين حدّث الراهبة بالفرنسيّة وعيناه مسمّرتان فيَّ. شاء من ذلك أن يخبرني بأنّه يجيد لغة أجنبيّة. كشفت الأخت كريستين حيلته فأجابته بالعربيّة. وأدرك هو أن خدعته لم تمرّ فَبات يخفض صوته لدى شرحه لي المعلومات. خذلتْه الراهبة في حضوري فلم يبدر منه ما يوحي أنّه انزعج. لكنّه كان يغلي غضبًا. فضحته يداه المرتجفتان عندما راح يمسح الدم عن موقع الجرح.

تلقّنت أصول التنظيف في عشرين دقيقة.

وحده اسم المادّة المطهّرة لم يعلق بذهني مع أنّه سهل: "فورمول". كتبته على الورقة وردّدته في عقلي حتّى حفظته.

وفي إشراف روبير، نظّفت جثّة جديدة، مع إطلالات عابرة للأخت كريستين من قبيل الاطمئنان. كانت الجثّة لجندي حطّت رصاصة قنّاص في صدره. ظلّت على الطريق ساعات لاستحالة نقلها. في الأخير، هبّ فتيً، جرّها على وقع الرصاص حوله. ورافقها إلى المستشفى. شاهدتُه يبكي على مدخل الطوارىء. ظنّنت أن الميت قريب له. طلب أن أريه الجثّة. فأدخلته مخالفًا مضمون اللافتة المعلّقة إلى جانب الباب "ممنوع دخول من ليس لديه عمل". تأمّلَ وجه الجندي وتوارى و لم يعد.

الجثّة الثالثة التي نظّفتها وحدي بلا مراقبة. كانت لرجل مات ميتة طبيعيّة. دهمته ذبحة قلبيّة في سوق الخضر المجاور فنقله إلى

مكتبة الفكر الجديد

المستشفى عمّالٌ مصريّون يعملون في محطّة الوقود القريبة. تشاركت أنا وروبير في نــزع الثياب عن الجثّة، ثم في وضعها في كيس صغير. كتب روبير اسم الميت وكنيته علــى الكــيس، وأخــذه إلى رفّ الأمانات، ولم يعد ما دام هناك من يقوم بالاعمال التي كان يقوم هو بها منفردًا.

حين شدّدت الراهبة على ضرورة غسل الجثّة وتنظيفهــا فــور وصولها، لم أعِ أهمية ذلك إلاّ لاحقًا. فالجثّة، بعد مرور بضع ساعات على الوفاة، تيبس، ويغدو تجريدها من الثيــاب متعــذّرًا. فاليــدان تتحمّدان، إذا رُفعت إحداهما تُكسر عظامها، وتحديدًا المرفق. فيتدلّى نصفها ويتشوّه منظر الجثّة. أحيانًا لدى حدوث مثل هذه الحال، كنّا نلفّ مكان الكسر بخرقة، حتّى تبدو الذراع كأنّها مجبّرة، ونخفيها في الكمّ. قلّما اعترض أهل الفقيد على هذا التــدبير إذا اكتشــفوه، أو عرفوا به. الميت ليس في حاجة إلى أن تكون يده سليمة حتّى يصافح بها مستقبِله عند باب الجنّة أو باب الجحيم. كذلك لن تبقــى هــي وسائر أعضاء البدن بعد الدفن مثلما كانت قبله. فالديدان ســتجهز عليها من الداخل، والقوارض من الخارج.

في عداد قواعد التنظيف، تمزيق الثياب حفاظًا علــى ســلامة الجثّة.

نَقُصُّ القميص من مطلع الكمّ صعودًا إلى الكتــف ثم نفكّــك الأزرار ونحرّر الميت منه. نتبع الطريقة نفسها لدى قصّ الكنــزة أو البلوزة زائدًا قصّ جهة الصدر نــزولاً. البنطلون نفكّه بعد قصّه من أسفله طلوعًا إلى مكان الحزام. ثم جذبه من تحت الجثّة. وبالطريقــة نفسها نعالج الثياب الداخلية.

مكتبة الفكر الجديد

أعترف أنّي في مرّات عدّة، خالفت التعليمات. لم أقصّ الملابس بل أنــزعها عن الجثّة فيحدث أن تُكسر إحدى اليدين، تمامًا مثلمــا حصل عندما أعجبتني سترة من الجلد سوداء يدلّ ملمسها على أنّهــا ثمينة. لم أستطع تحرير الكمّ الأوّل فعالجته ببعض القــوّة فكُســرت الذراع من الكتف. ثم بات سهلاً تحرير الكمّ الثاني. رفعــتُ الجثّــة قليلاً حتّى تمكنتُ من دفع السترة إلى الجهة الأخرى، وإخراج اليــد من الكمّ.

حاولتُ أن آخذ السترة بلا كسر، فلم أقدر. ارتديتــها تحــت المريول، وخرجت بها من البرّاد متّجهًا إلى التواليت. ذهبت مســرعًا كي أوحي لمن يراني أنّي على وشك قضاء حاجتي في ثيابــي.

حالما أغلقت باب التواليت، وشعرت بالأمان، رحت أفكّــر في المكان الذي سأخبّىء السترة فيه.

كنت مرتعبًا.

أوّل مرّة أسرق شيئًا. ليس من أيّ كان. أسرق مــن ميــت. وليس أيّ شيء. أسرق سترة كان يلبسها. رائحة بدنــه ملتصــقة بها.

كلّما سمعت صوتًا قريبًا أو خطوات ازداد ارتباكي.

فكّرت أن أصعد إلى الغرفة حيث أنام، وأخفي السترة في مكان ما. ثمّ استبعدتُ الفكرة لأنّ الأغراض القليلة في الغرفــة لا تســمح بالتخبئة المضمونة.

وإذا افترضتُ أنّ أهل الفقيد فطنوا إلى غياب السترة، وطــالبوا بها، وعثروا عليها بعد التفتيش في الغرفة، فالتهمة ستتلبّسني. يليهــا الطرد من العمل والعودة إلى حياة التشرّد.

مكتبة الفكر الجديد

وحتى لا أبقى في هذه الدوّامة، قررتُ تسليم الستـــرة إلى رفّ الأمانات.

قبل اتّخاذ هذا القرار تردّدتُ. لكنّ صوت ضميري لم يهدأ إلاّ بعدما حسمت أمري.

مشيتُ نحو البرّاد مرتديًا السترة تحت المريول، أصلّي في قلبـــي ألاّ ألتقي أحدًا في الممرّ، فيكتشف سبب اضطرابـــي الذي جهـــدتُ لإبقائه مكتومًا.

حالما دخلت البرّاد وبدأت أخلع المريول، تخيّلت الراهبة تدخل وتراني لابسًا السترة. فماذا سيكون ردّ فعلها. هل تظنّ أنّي أقيســـها ليس غير، أو أنّي أنوي سرقتها متى جاءت على قياسي؟

أجيبها أعجبتني وأردتُ تجربتها. وأمازحها بالسؤال هل تليـــق بـــي؟

خلعتُ السترة وارتديت المريول و لم تأتِ الراهبة. شعرتُ براحة فائقة لَمّا سلّمتها إلى المسؤول عن الأمانات. فرفعها وتأمّلها. أجزم أنّه في قلبه تمنّى لو أنّها ملكه. وما أكد لي ذلك لامبالاته الـــتي أعقبـــت تحديقه في السترة، ورميها إلى الرفّ كما يرمي ثوبًا باليًا أو شيئًا ليس مكانه هنا. شاء بلامبالاته إيهامي أنّه غير مكترث للسترة.

السترة هذه لم تكن السترة الأولى التي رغبتُ في سرقتها. سبق أن قصصنا واحدة (لجهة الظهر فقط) يرتديها شاب في الثلاثين وصل إلينا جثّة، ورُميت السترة بين المهملات. بعد خروج الراهبة أخذتها، وضعتها في الكيس، قصدت خيّاطًا ماهرًا، سألته هل بإمكانه رتـــق السترة رتقًا يعيدها صالحة للبس. أجاب بأنّه سيبذل جهده. أودعتها لديه على أن أستردّها بعد يومين. لم أرجع. تركتها عنده. لا أعرف

مكتبة الفكر الجديد

هل أصلحها وينتظر أن أمرّ به لتسلّمها أم أهملها بعدما قطع الأمـــل. ربّما باعها وحلّل لنفسه الاحتفاظ بثمنها بدلاً لأتعابه.

تخلّيت عنها لأنّي لم أتخيّلني مرتديًا إيّاها. خشـــيت أن أتـــذكّر صاحبها عندما أرتديها. تشاءمت لها وندمت على فعلـــتي. كنـــت خططتُ أن أنظّفها في المصبغة بعد الرتق كي لا يبقى منها شيء من آثار الرجل ولا سيّما العطر الذي كلّما حرّكت السترة فاح منها.

كان يجب إبقاء السترة بين المتروكات. فلا أســـرقها وأهرّبهـــا كأنّي أهرّب سترة جديدة من متجر محترم.

ما أشدّ خساستي وتهوّري أحيانًا.

مكتبة الفكر الجديد

23

•

مضت ثلاثة أشهر على عملي في البرّاد. وما زلت أخجل من القول إنّي أشتغل فيه.

أردُّ حين أُسأل ماذا أعمل، هنا في المستشفى، بأنّي أحلّ مكان الممرض الغائب في النهار، وفي غرفة العمليّات في الليل.

قلّما أفصحت عن شغلي الأساسي مع أنّي في أعماقي كنت أتباهى به. فأنا الوحيد الذي بقي مدّة كهذه، والذي أتقن حشو الجثث وتنظيفها، وبرع في قسم العمليات. فشهادة الراهبة بي، وشهادات زملائي، خير دليل.

أتجنّب التعرّف إلى أشخاص جدد حتّى لا أُسأل عن نوع عملي. أخشى أن يغيّروا رأيهم فيّ عندما يعرفونه.

حين وافقتُ على العمل في البرّاد، لم يخطر لي أنّي قد أستمرّ فيه إلى اليوم. كنت قرّرتُ التخلّي عنه عندما أجد مورد رزق آخر. ظلّت هذه الفكرة تراودني إلى أن ألِفتُ العمل والمكان، وغدا تركهما صعبًا. أمّنا لي اللقمة والسرير والأمان. خصوصًا الأمان. فالذين قتلوا عزيزي لن يقدموا، إن عرفوا أين أنا، على قتلي في مكان مكتظّ، كالمستشفى.

هذه الأسباب الثلاثة جعلتني أبتكر للخجل أعذارًا كي أخفف من وطأته.

مكتبة الفكر الجديد

لحسن الحظّ أنّي لم ألتقِ أحدًا من الذين أعرفهم ويعرفونني.

فوجئت عندما عرفت أنّ ابنة خالي تسأل عني. جاءت في رفقة الطبيب الذي تعمل مربّيةً لابنه كي تجري بعض الفحوص المخبريّة. دلّوها على البرّاد. استعانت بإحدى الممرّضات كي تناديني. عندما رأيتها تمّنيتُ ألاّ تسألني ماذا كنتُ أفعل في الداخل. تعانقنا واتّفقنا أن نلتقي في الكافيتريا خلال استراحة الغداء. وهكذا كان. تغدّينا. ثم شربنا القهوة. سألتْ عن كلّ شيء إلاّ عن نوع عملي. وهذا ما أقلقني. فلو لم تكن تعرف لسألت. من الممكن أن يكون الطبيب أخبرها. لا أذكر أنّي رأيت الطبيب في قسم الطوارىء. لكنّي ألتقيه دومًا في الليل بغرفة العمليات. كان يكتفي بسؤال واحد بين مدّة ومدّة: "كيف الشغل؟". وكنت أجيبه بهزّة رأس ترافقها عبارتي المألوفة: "ماشي الحال". قلّما سألته عن ابنة خالي ليس لأنّي لستُ مهتمًا بمعرفة أخبارها، بل كي لا يفكّر أنّي أتملّقه.

إذا عرفتْ أنّي أعمل في البرّاد، فجائز أن تخبر أحدًا من أقربائنا، فينتشر الخبر في الضيعة. إنّها في الأخير امرأة. والمرأة يخنقها السرّ المتعلّق بسواها، إن لم تبح به.

لا أدري ماذا سيحلّ بأمّي وأبي عندما يسمعان أنّ ابنهما الوحيد يحشو الجثث وينظّفها في النهار، ويساعد الأطبّاء في قسم العمليّات في الليل. لن يصدّقا وإنْ رآياني بأمّ العين. فهما يعرفانني جيّدًا، ويعرفان أنّي قلّما شاركتُ في مأتم. وإن شاركتُ لدواعي القرابة واللياقة الاجتماعية فأمشي في آخر الجنازة. عندما توفّي جارنا الدركي إثر انقلاب درّاجته الناريّة به، أرسلني أبي لمناداة أمّي التي كانت مع نسوة أخريات متحلّقات حول الفقيد المسجّى

مكتبة الفكر الجديد

على السرير وسط غرفة الجلوس. كنّ يندبن وينحن ويبكين شباب الراحل.

لم أرَ جثّة جارنا. رأيت نساء متحلقات حول السرير الذي سُجّيت عليه. سمعت صوت النادبة. ثم تلاه نواح ونحيب يجرحان القلب. عدتُ إلى أبي زاعمًا أنّ أمّي ليست هناك. فعلاً لم أرها. كانت النسوة جميعهن يرتدين ثيابًا سوداء، وعلى رؤوسهن طرحات سود أيضًا، فَبَدَوْن متشابهات.

على مدى أسبوع عجزتُ عن النوم إلاّ مع طلوع الضوء. كنت كلّما أغمضت عينيّ رأيت جمعًا من النساء المتشحات بالسواد وهن جالسات وواقفات حول السرير، وسمعت ندبًا وحداءً وعويلاً.

وابنة خالي تعلم ذلك عني. وطالما كان تهرّبي من المشاركة في المآتم موضع تندّر لها ولإخوتها.

أسعدني أنها أشرفت على الانتهاء من فنجان القهوة، وقد تحدّثنا عن أمور كثيرة إلاّ عن المستشفى.

لكن سعادتي لم تكتمل إذ سألتني وهي تودّعني: "ما قلتلّي، شو بتشتغل هون؟".

قلتُ: "بقسم العمليّات". ومشيتُ.

كنتُ متيقّنًا من أنّ ردّ فعلها، إن أخبرتُها الحقيقة، لن يختلف عن ردود أفعال الغرباء. ربّما قد يكون أكثر قسوة.

كان بعض الزوّار الذين سبق أن رأوني خارج البرّاد أو داخله، يتجنّبون حتّى النظر إليّ، ويلتصقون بالحائط إذا صودف عبوري وإيّاهم في الوقت نفسه في الممرّ، كأنّهم يتفادون التقاط عدوى قاتلة إذا حفّت كتفي بأكتافهم.

وكان لدى بعضهم من الفضول المزعج ما يحثّني على تلافي التكلّم معهم. أحدهم لم يتورّع عن سؤالي هل جرّبت ممارسة الجنس مع جثّة، وما المشاعر التي خامرتني خلالها. لم أجب. عاودَ السؤال. تمنّيت عليه أن يحترم نفسه لئلاّ يرى شيئًا لم يره من قبل. عقدَ حاجبيه، واتّهمني بأنّي أنام مع الجثث. أغضبني. فلكمته لكمةً جعلته يترنّح ثم يقع. استغربتُ هذه الشجاعة التي دبّت فيّ. وأنا عادةً أتفادى العراك بالأيدي، لأنّي لم أخضه مرّة وخرجتُ سالمًا.

هذا النوع من التطفّل تخطّيته. لكن ما لم أستطع تخطّيه هو تلك النظرة التي كانت أحيانًا تصنّفني جلاّدًا، وأحيانًا في عداد المستفيدين من الحرب لأنّهم يسترزقون من ضحاياها.

وفي عيون بعض ذوي القتلى وجدتُ نفسي ضالعًا في الجريمة. هؤلاء أساؤوا معاملتي، وكنت أستوعب الإساءة فأردّ موقفهم العدائيّ إلى هول الفاجعة التي نزلت بهم.

بماذا أجيب رجلاً دخل إلى البرّاد ورأى قَدَم ميت على جثّة شقيقه، فسبّني بعد اتّهامي بأنّي أهنت أخاه؟

وماذا أقول لأمّ بصقت في وجهي لأنّي لم أسمح لها برؤية جثّة ابنها حتى لا تنهار عندما تشاهد الشكل الذي اتخذته الجثّة بعد أيّام من الوفاة؟

وبمَ أردّ على شابّة وصفتني بـ "الغراب" لأنّي قلت عن خطيبها جثّة. وهي لا تريد أن تصدّق أنّه مات برصاصة قنّاص حين كان في الطريق إلى بيتها؟

إهانات كهذه كنت أتلقّاها دومًا. في البداية، أزعجتني ثم اعتدتُها. احتكاكي بكثير من الناس الذين خسروا عزيزًا، علّمني أنّ

مكتبة الفكر الجديد

هنالك أشخاصًا لا يستطيعون السيطرة على أعصابهم لدى فقدان قريب، فيتفوّهون بكلمات نابية، أو يلعنون الله وقدّيسيه، أو يعتدون بالضرب على من يصادفونه.

لم يكن سهلاً احتكاكي المباشر بالموت ثماني ساعات يوميًا. هي مدّة الدوام. وأحيانًا، أضطرّ إلى العمل في الليل (عندما لا يكون لديّ شغل في قسم العمليّات) مساعدًا الراهبة على تجهيز جثّة مستعجلة.

طالما أمضيتُ النهار معزّيًا زوجة هذا الفقيد، ومواسيًا أبا ذاك الشهيد، ومطيّبًا خاطر أمّ خسرت وحيدها. ممنوع أن تفترّ شفتاي عن ابتسامة، عن طيف ابتسامة، كي لا أُتّهم بأنّ معشر الأموات جرّدني من إنسانيّتي، وغلّف قلبي باللامبالاة والقسوة. كنت أسعى إلى التخفيف عنهم بحكايات وأخبار عن مصاب أُناس آخرين يعادل مصابهم أو يفوقه. علّمني البرّاد أن البشر يتقبّلون مصيبتهم عندما يقارنونها بمصائب سواهم.

كثيرًا ما رويتُ مآسي من نسج الخيال، أو زدتُ شيئًا على مأساة حقيقيّة، متى شعرت أن وَقْعَ ذلك على الشخص المفجوع إيجابي. كنت أستشهد بأقوال يسوع المسيح وأمثاله التي تبثّ قبسًا من الرجاء في القلوب الحزينة. أقوال وأمثال ردّدتها الراهبة، فحفظتُها وصرتُ أكرّرها، لكنّني أتفادى مناقشتها أو شرحها. أردّدها مثلما حفظتُها حرفيًّا. وكلّما استشهدت بها في حضور الأخت كريستين نظرتْ إليّ وابتسمت ابتسامة طافحة بالرضى.

في المساء، ألوذ بغرفتي مكتئبًا. بو موسى (في ليالي دوامه) ينقلني إلى جوّ مختلف، خصوصًا عندما يحظى بمباراة زجليّة جديدة، فيعود لا يسمع غيرها إلى أن يظفر بمباراة أخرى. ولدى غيابه، وحدها كأس الويسكي تطرب مزاجي، وتهدهدني على أرجوحة النعاس حتى أنام.

مكتبة الفكر الجديد

24

منذ مقتل عزيزي، افتقدتُ الأمان.

لا أدري في يد مَن وقع دفتر يوميّاته. فاسمي مذكور فيه. هو نفسه أفصح لي عن ذلك.

صحيح أنّ عزيزي كان يكتفي بذكر الحرفَيْن الأوّلين من الاسم والكنية على طريقة الجرائد لدى نشرها أخبارًا تتضمّن أسماء الذين وقعوا في قبضة العدالة. لكن ليس صعبًا أن تقود هذه الإشارة إلى الشخص المقصود في عالم محصور، كالثكنة. فأنا فورًا عرفت الرفيقين اللذين قرأتُ الأحرف الأولى من اسميهما وكنيتهما في الورقة التي عثرت عليها بطريق المصادفة عندما كنت نائمًا في بيته.

وإنْ لم يكن اسمي غير وارد في الدفتر، فهل يقتنع الذي يقف وراء مقتل عزيزي أنّي لستُ مطّلعًا على محتوياته، أو أنّ عزيزي لم يخبرني بها. وإذا ظنّ القاتل أنّي أعرفها، أو أعرف بعضًا منها، فمن الممكن أن لا يعفو عني.

لا أحد يصدّق أنّ عزيزي لم يطلعني على شيء، و لم يخبرني أمورًا يجوز إدراجها في خانة المعلومات السريّة. كنت صديقه الوحيد تقريبًا. وصداقتنا معلنة، والثكنة كلّها تعرف مدى عمقها. ولا بدّ للصديق أن يفتح قلبه لصديقه. هذا تحليل منطقيّ مع أنّه غير واقعيّ

مكتبة الفكر الجديد

في حال تطبيقه على صلتي بعزيزي. فكلّ ما باح لي به هو أنّ المعلومات التي يحويها الدفتر خطرة، وأنها أكثر تشويقًا من روايات أغاتا كريستي التي أطالعها.

بعد موته بهذه الطريقة، عرفتُ لماذا لم يشأ إخباري بمكنونات قلبه. أراد أن يقيني في منأى عن الخطر. كان يدرك فظاعة الأسرار التي في حوزته، واحتمال القتل الذي سيكون عرضةً له من يعرفها ويحتفظ بها، ومن تنتقل إليه ويتكتّم عليها. عندما أوصاني بصون الدفتر إذا حدث له مكروه، لم أعِر الوصيّة أهميّة. حسبتها اعترافًا بثقته بي وبالمحبّة السخيّة التي يكنّها لي. كان يدرك أنّه رمى إليّ كرة النار حين جعلني قيّمًا على الدفتر. ودّ أن تلبث أسراره حيّة لدى شخص أمين كي تبقى شهادة على حوادث عبثيّة جرت في الحرب وعلى هامشها. اختارني أنا تحديدًا لهذه المهمّة إذ ليس له صديق سواي يأتمنه على كنزه الصغير.

حين جاءني خبره، فكّرت في الوصيّة. صمّمت على تنفيذها أيًا كان الثمن. وعدته ولن أخلف بالوعد وإنْ كلّفني ذلك حياتي. أعجز عن وصف الأفكار التي ساورتني حين لم أجد الدفتر تحت البلاطة. أفكار خلّفت دوارًا في رأسي استمرّ مفعوله بضع ساعات.

تمنّيت أن يكون عزيزي هو الذي أخذ الدفتر، قبل مقتله، وأخفاه. هذا احتمال وارد. ربّما إلهام مفاجيء نزل عليه، فدفعه إلى تغيير المخبأ.

ووارد أيضًا أن يكون الدفتر قد امتلأ، فأودعه المكان نفسه حيث الدفتران الآخران، كي يتسع مخبأ البلاطة لدفتر جديد.

وممكن أن يكون الدفتر سُرق ثم كان القتل. أو العكس.

مكتبة الفكر الجديد

في الحالين، النتيجة واحدة. ذهب عزيزي ضحيّة أسراره.

ومحتمل أن يكون العثور على الدفترين المطمورين سببًا لمقتله.

أمّا كيف عُثر عليهما وهما مخبّأان في مطرح مضمون، فلعلّها المصادفة وراء ذلك. طفل يلعب في التراب، وجدهما، لم يمزّقهما ثم يرمِهما، إنّما أخذهما إلى البيت. في البيت، قرأ أبوه محتوياتهما، فهاله ما قرأ، فسلّمهما إلى أحد المحازبين، وهذا سلّمهما إلى مَن يعلوه رتبة. على الأثر انتشرت المعلومات الواردة فيهما حتّى بلغت المعنيّين بهما، فقرّر أحدهم، أو عددٌ منهم جَمَعُهم الهمّ ذاته، الانتقام والتخلّص من كاتبها.

وغير مستبعد أن يحفر كلب دلّته غريزة الجوع على عظمةٍ جوار الدفترين، فأزاح التربة عنهما، ووقع عليهما عابر سبيل.

وممكن أن يكون المالك صمّم على حراثة الأرض، فغنم بهما. ولمّا اطّلع على مضمونهما، نقلهما إلى أقرب ثكنة، وقدّمهما إلى قائدها طمعًا بمكسب ما.

الأكيد أن الدفترين لم يُطمرا في التراب من دون أن يُغلفا بشيء يحميهما من المطر، ومن الرطوبة التي تفتك بهما إن كانا عاريين.

ووجودهما في علبة مثلاً، أو ملفوفين بكيس من النايلون، يثير الانتباه أكثر ممّا لو كانا من غير حماية.

ومستبعد أن يطمرهما عزيزي كيفما اتّفق، هو الحريص عليهما حرصًا فائق الوصف.

ومن غير المعقول أن يدوّن اسمه على دفّتيهما شأن تلميذ المدرسة. أجزم أنّ اسمه لم يرد في صفحاتهما الداخليّة. لكنّ المعلومات التي يحتويان عليها قد ترشد إليه إذا حطّت في أيدي المقصودين بها. يكفي

مكتبة الفكر الجديد

أن يكون قد ذكرَ حادثة صودف أنّه عرف بها، أو شارك فيها، وأبطالها معدودون، حتّى يكتشف أحد هؤلاء، أنّ عزيزي هو كاتبها.

يمكنني التأكيد أن اسمي غير مذكور في ذينك الدفترين لأنّهما كُتبا قبل مجيء إلى بيروت.

ولا أظنّ أنّ عزيزي أشار إليهما، وإلى مخبإهما، في الدفتر الثالث. فهو أذكى من أن يرتكب غلطة كهذه، وخصوصًا أنّه لم يُسقط من حسبانه إمكان فقدان الدفتر في أحوال شتى. فلمَ لا يبقيهما في مأمن؟

قد يكونان متضمّنين خواطر في الحياة والناس، التي يهوى عزيزي كتابتها على القصاصات وعلى علب السجائر، خلال الحراسة في الثكنة والمتراس، وفي أوقات متفرّقة. وكثيرًا ما قرأ لي ولآخرين أقوالاً من بنات أفكاره بنبرة مسرحيّة جذّابة. لكن لو أنّهما مقتصران على هذا النوع من الكتابة، لما أخفاهما تحت التراب. محتمل أنّه ضمّنهما، بالإضافة إلى الخواطر، مشاهداته خلال الحرب وإبّان القيام بالمهمّات، ومعلومات لا أدري كيف حصل عليها.

ليت كان بإمكاني الوصول إليهما ما دام الوصول إلى الدفتر الآخر متعذّرًا. لعلّي بذلك ألتقط رأس الخيط الذي قد يقودني إلى الفاعل. ليس لكي أنتقم منه لعزيزي، ولا لكي أشهّر به، فهذا فعل لا يُقدم عليه من هو مثلي يمشي لصق الحائط طلبًا للسلامة. بل لكي أسعى إلى معرفة أشياء عنه تسعفني على حماية نفسي. فأنا في دائرة الخطر ما دام غير دليل يفيد بأنّ عزيزي قُتل، وبأنّ أسراره هي التي قتلته. موته انتحارًا لم يصدّقه أحدٌ. أُشيع ذلك من أجل طمس الحقيقة. لكنّ هذه الشائعة هي التي أثبتت أنّ هنالك جريمة مدبّرة، وأن إطلاقها عقب عمليّة القتل كان مدروسًا.

مكتبة الفكر الجديد

الخوف جعلني أحلق شاربَيْ، وأقصّ شعري قصيرًا جدًّا. "على الزيرو" قال لي الحلاّق، وهو يطوّق عنقي بشريطين يتدلّيان من المنشفة.

لعلّ التغيير في الشكل يعوق التعرّف إليّ بسهولة.

تجنّبتُ التحوّل في طبقات المستشفى وممرّاتها إلاّ لدواعٍ مُلّحة خشية أن ألتقي رفيقًا ذا صلة بالجهة التي تبحث عني، فيشي بي.

كانت حدود تحرّكي مرسومة بدقّة. البرّاد، قسم الطوارىء، الكافيتريا، غرفة النوم.

إذا اضطررت إلى التنزّه في الشوارع المحيطة بالمستشفى، أمشي متلفتًا. أرتاب إن رايتُ عابرًا أطال النظر إليّ. أُسرّع خطاي كي أتجاوزه ثم أتوارى في أحد الزواريب، أو أدخل متجرًا وأروح أساوم البائع على شيء لا أريد شراءه ريثما يتّضح لي أن لا أحد يتعقّبني.

بات الحذر والارتياب والقلق جزءًا من طبعي.

شعور معذّب عكّر حياتي و لم أستطع التخلّص منه.

كلُّ شخص في نظري متّهم حتى يثبت العكس.

وكلُّ داخلٍ إلى المستشفى مُخبرٌ جاء يتحرّى عني. وكلُّ خارجٍ يخفي تقريرًا ضمّنه معلومات تتصل بي وبعملي وبساعة نومي وبموعد نهوضي وبسائر أحوالي.

كنتُ أشكّ في الجميع وخصوصًا خلال الأسابيع الأولى. حتّى روبير لم ينجُ من شكوكي. ظننتُه ممثّلاً بارعًا يلعب دور الخصم أو العدو من أجل إبعاد شبهة المُخبر عنه، والظهور بمظهر الموظّف القديم الذي يعامل موظّفًا جديدًا معاملة فظّة خوفَ أن يأخذ مكانه. كنت أعطي معلومات غير صحيحة عني إن صودف وجودي بين ممرّضين مقرّبين منه.

مكتبة الفكر الجديد

لم ينجُ كذلك زملائي في الدوام الليليّ ما عدا بو موسى الـذي كان يعيش في عالم منفرد، عالم الزجّالين والكأس.

أنام وعيناي مفتوحتان.

وأنهض في السابعة، أو توقظني ضجّة الشارع والضجة المتأتية عن استعداد الشباب في الغرف المجاورة للذهاب إلى العمل.

قلّما شبعتُ نومًا. وأنا إذا لم آخذ كفايتي من النوم أمضي يومي مكتئبًا، وقد تخرجني عن طوري مزحة، أو كلمة جارحة.

لازمتني هذه الحال وقتًا طويلاً حتّى اعتدتها.

العذاب عندما تألفه تخفّ وطأته التي كانت له عليك في أوّل ظهوره. تألفه حتّى إنّك تستعجب عندما ينتفي تأفّفك منه. وبمرور الأيام، تُسلّم أمرك للقدر وتقنع نفسك أنّ لدى الأشخاص الذين يريدون إيذاءك أو قتلك، أعمالاً يفعلونها أهمّ من مراقبتك وتجنيد أناس لكتابة التقارير عنك.

وتعزّيك فكرة أنّهم نسوك، أو اطمأنّوا إلى أنّك لم تبح بالأسرار التي يظنّون أن صديقك ائتمنك عليها. لو رأوك تشتغل في برّاد للجثث لأعفوا عنك وأشفقوا عليك. ولو عرفوا أنك تعمل وتأكل وتنام في المستشفى، وأبعد مكان تقصده هو فرن المناقيش على الرصيف المقابل لمدخلها، لأسقطوك من حساهم.

ولو أرادوا رأسك لوصلوا إليك. فالمدينة صغيرة والجميع يعرف الجميع. لستَ الوحيد الذي لا يعرف أحدًا فيها. الغرباء مثلك كثر. ومثلك أيضًا انتمى بعضهم إلى الأحزاب ليس إيمانًا بالعقائد التي يرفعها زعماؤها بل للعثور على سقف ولقمة وحماية.

المكان الوحيد الذي كنت أشعر فيه بالأمان هو البرّاد.

مكتبة الفكر الجديد

كانت الجثث تضفي عليّ هالة لا يراها سوى الذين لا يجرأون على رؤية ميت.

كانوا يخافونني عندما يعلمون أنّي لا أحرس الأموات فقط إنّما كذلك أحشو الجثث وأنظّفها.

في البرّاد، أصبِحُ شخصًا آخر. لدى احتيـــازي عتبتـــه يـــزول الخوف والارتياب اللذان يرافقانني خارجه.

كان الموتى يحموني.

مكتبة الفكر الجديد

25

لا تعدّ المنامات التي أبصرتُني فيها أنظّف وأحشو جثّة أمّي أو جثّة أبي أو جثّة أحد أقربائي.

كنت أخرج من المنام خائفًا، وأمضي اليوم مكتئبًا كأنّ صخرة على صدري.

لكنّ المنام الذي لم أستطع نسيانه هو ذاك الذي رأيتُني فيه بالبرّاد جثّةً مرميةً بين الجثث الأخرى.

أول وهلة ظننتُني نائمًا. رحتُ أهزّ بدني هزًّا بطيئًا ثم أقوى فأقوى. جسستُ الشريان في الرقبة، فلم أشعر بنبض الحياة. عندئذ تأكد لي أنّي ميت.

خفتُ أن تتحلّل جثّتي إن بقيتْ حيث هي وقتًا طويلاً. نقلتُ جثّة من لوح التبريد إلى الأسفل، وحملتُ جثّتي ووضعتها مكانها.

صُدمت حين رأيت بقعة من الدم بين كتفَيّ.

حاولتُ أن أرفع جثّتي من جهة الرأس لمعرفة مصدر الدماء. و لم أكمل المحاولة. خشيتُ أن أسقط أنا الحيّ الحالم مغمًى عليّ في البرّاد. إذ ذاك قد تجنّ الراهبة إذا رأت جثّتين للشخص نفسه في مكان واحد. جثّة على لوح التبريد وجثّة على الأرض.

وأبصرتُني أنا وهي وروبير واقفين حول جثّتي.

مكتبة الفكر الجديد

وددتُ في المنام لو تتولّى هي حشوها وتنظيفها. أعاونها وروبير عند الضرورة. تخيّلتها تمسك عضوي وتربطــه. ثم يفلــت فتعــاود التقاطه. وبعد تكرار تفلّته وإعادة التقاطه، تطلب مني القبض علــى رأسه كي يتسّنى لها عقد الخيط حوله.

لسوء الحظّ دعتْ روبير إلى اللحاق بها، وأســندت إليّ حشــو حثّتي وتنظيفها.

ساعدني روبير قبل ذهابه في نــزع ثيــاب الجثّــة. قصصــنا القميص والبنطلون والبروتيل. جمعنا الخِرَق ثم وضعناها في الكــيس النايلون. لما حاء دور الكيلوت، أخذتُ المقصّ منــه. اســتحيتُ أن يراني في عربي التامّ.

لم يستغرق التنظيف سوى دقائق مع أني توخّيت التمهّل. كنت كمن يودّع جثته.

وابصرتُني أحشوها كأنّها ليست جثّتي. لا أدري من أين أتــتني هذه الشجاعة. أقفلت العينين المفتوحتين على وسعهما. ثم أطبقــتُ أجفانهما باللاصق الشفّاف. واستأنفتُ التدبير المعتاد فأقفلتُ المنافــذ الواحد تلو الآخر.

حين جاء دور عضوي فقدتْ يداي القدرة على الحركة. إنــه عضوي الذي دلّلته أمّي عندما كنت صغيرًا. ولطالما تركتْ نصــفي السفلي عاريًا في الصيف كي تتباهى بأنها أنجبت مولــودًا ذكــرًا في موسم صودف أنّ معظم المواليد فيه إناث. إنّه عضوي الذي كنــت أيّام الفتوّة الأولى أستغرب كيف يزداد طوله وثخنه إن لاعبته قليلاً. وأتذكّر المتعة الأولى التي زلزلتني، وبرهنت لي أن هنالك حياة أخرى فوق الغيوم. وكثيرًا ما حلّقتُ بعدما استحضرتُ أجزاءً معيّنــة مــن

مكتبة الفكر الجديد

أجساد زميلاتي في المدرسة. ومرارًا، راقبتُ جارتنا متى راحت تكنس دارها، فتخيّلت نهديها الجميلين المدلوقين تحت ثوبها الفضّفاض ومضيت إلى الأعالي. إنه عضوي الذي نال رتبة الرجولة من بدويّة أربعينيّة يوم نلتها في كرم جدّي. إنه عضوي الذي كنت أتحسّسه لحظة استيقاظي، وأسرع إلى الحمّام كي لا تلاحظ أمّي انتصابه الصباحيّ. وهو عضوي الذي يناشدني أن أستره تحت المريول لئلاّ تكتشف الراهبة عصيانه. إنّه عضوي الذي أتخيّله بين نهدَيْ نهلا، زميلتي في قسم الطوارىء. إنّه هو، فكيف أخنقه بخيط رفيع و لم يزل في عزّه. تردّدتُ. لكن في النهاية، ينبغي مراعاة الترتيبات المُتبعة. عقدتُ الخيط حوله، وأحكمتُ العقدة.

وأبصرتُني مرتبكًا عندما حان أوان إلباس الجثّة الثياب تمهيدًا لتسليمها إلى أهل الفقيد، إلى أهلي. ما لديّ من الملابس في الخزانة لا يليق بجثّة درجت العادة على أن تذهب أنيقة إلى المثوى الأخير. لدى بو موسى بذلة سوداء لا يرتديها إلاّ في المآتم. لم أصدّق لمّا رأيته قادمًا وفي يده البذلة مدلاّة من العلاّقة، ومحفوظة هي والقميص الأبيض وربطة العنق السوداء في كيس كما لو أنّه أتى بها كلّها من المصبغة.

وأبصرتُ جثّتي على وشك التيبّس. أدركت ذلك من لمسي أصابع اليدين ومن صعوبة جعلها مستوية كأصابع اليد الممدودة للمصافحة. أريد لجثّتي أن تدلف إلى النعش ثم إلى المدفن سليمةً بلا كسور تمامًا مثلما جاءت إلى الدنيا. وهذا ما استدعى إلباسها القميص والبذلة بالسرعة القصوى. لكن ذلك احتاج

مكتبة الفكر الجديد

إلى بعض المعونة. قصدت إلى قسم الطوارىء وأطلعت الراهبة على الوضع. وللحال قالت لروبير أن يرجىء ما يقوم به ويسعفني.

رفع روبير الجثّة من ناحية الكتفين. فأدخلتُ اليد اليسرى في الكمّ الأيسر للقميص، ثم اليد اليمنى في الكمّ الأيمن. وفيما أقحمتُ أزرار القميص في الفتحات، تولّى هو عقد ربطة العنق، ثم طوّق بها ياقة القميص.

وألبسنا الجثّةَ السترةَ على الطريقة نفسها.

لم يكن إدخال الرِجلين في فتحتَي البنطلون صعبًا. عندما أتممنا ذلك، ابتعدتُ خطوتين لأرى المشهد كاملاً. بدوتُ كالعريس. هكذا ستقول أمّي عندما تراني.

وأبصرتُني وأبي في الصفّ الأمامي داخل كنيسة ملآى بالناس. ليست كنيسة ضيعتنا. كانت الكنيسة غريبة لكن جميلة. رأيت النعش، نعشي، أمام المذبح على طاولة مغطّاة بشرشف أبيض. وعلى واجهته، اسمي الثلاثي وتاريخا ميلادي ووفاتي:

عابر حبيب ليطاني

(1958–1979).

خلال تقديم التعازي على مدخل المدافن، سمعتُ كثيرًا من الكلام الذي قيل عني. أجمل ما قالوا إن الضيعة على بكرة أبيها مشت في جنازتي.

وأبصرتُني عائدًا وحدي من المقبرة. في الطريق التقيتُ فتىً يحمل صورة كبيرة لي. ربّما هي الصورة نفسها التي رقّصوها في موكب الجنازة.

مكتبة الفكر الجديد

كان الفتى يمشي كالتائه. عندما رآني توقّف ومضى ينقل نظره بين الصورة الكبيرة وبيني. ثم ابتسم ابتسامة هي مزيج من السخرية والمكر. شاء إفهامي بها أنّه يعرف أنّ الذي مات ليس أنا، وأنّ الذي بقي حيًّا ليس أنا أيضًا.

هذا الفتى لم يكن غريبًا. فقد كنته قبل أحد عشر عامًا.

كلّما استعدتُ المنام استعدتُ وجهه. ويخالجني شكّ في أنّي أنا، أنا الذي يعمل الآن في برّاد الموتى، ويحشو الجثث وينظّفها، ويشتهي الراهبة، لا يمكن أن يكون ذلك الفتى الذي يخدم في قدّاس الأحد ويربط للعصافير ويخاف من ظلّه في الليل.

مكتبة الفكر الجديد

26

أتأمّل في الجثث التي لم يأتِ أحدٌ بَعْدُ لتسلّمها، وقد بدأ الازرقاق يغزوها.

اعتدت منظرها. آنس إليها، إلى وجوه أصحابها، إلى ثيابهم، إلى الوضع الذي تيبّست فيه أبدانهم... ألفة غامضة تنشأ بيني وبينها.

أحفظ ملامح كلّ جثّة برغم التبدّل الذي يطرأ عليها ساعةً فساعة. ملامح كانت طافحة بدم العافية، لون الحياة. وراحت تذوي حتّى مال لونها إلى الصفرة المتّشحة بالزرقة، هذا المزيج هو لون الموت. كرهت اللون الأزرق الذي هو الإشارة الأولى لبدء ذبول البدن ثم تحلّله. ولطالما تفاديت النظر إلى السماء في أيام الصحو كي لا تذكّرني زرقتها بزرقة الموت.

كنت أحزن لدى رحيل جثث عرفتُ حكاية موت أصحابها.

بقيت ذكراهم تموج في وجداني. رائحة الرغيف والحبر والطبشور وعرق الكدّ في المعمل والفبركة والمطعم... ملتصقة بأرواحهم وأجسادهم. بائع الكعك وعامل الفرن وفتى باص المدرسة والمتسكّع والفقير الباحث عن رزقه في القمامة... هؤلاء وأمثالهم، كانت جثثهم تبعث الألم في قلبي، وتزعزع إيماني بالله.

ألا يكفي القهر اليومي الذي يسبقهم إلى اللقمة قبل أن يأكلوها؟

مكتبة الفكر الجديد

ماذا فعلوا كي يموتوا ميتة كهذه؟

هؤلاء هم "ضحايا الصدفة". ونحن الذين ما زلنا ننعم بالهواء والشمس وبالمباهج القليلة، "أحياء الصدفة".

الجثث التي كان رغد العيش يظهر عليها، لم تنل مني العطف نفسه الذي نالته جثث الفقراء والناس العاديين.

كان ذلك خارجًا عن إرادتي. وكثيرًا ما سخرتُ من جثّة يرتدي صاحبها بذلةً وربطة عنق ولا يزال العطر الفاخر يفوح منها. تبدو الجثّة المتأنقة متعالية على سواها. أو هكذا أراها أنا. أرى الجثث الأخرى ذليلة مقارنة بها. فأرفع قدم جثّة بائع العلكة وأضعها على صدر الجثّة المتأنّقة، أو أفعل أيّ شيء كي يستقيم ميزان العدالة.

لم أستطع أن أكون منصفًا مع أن هذا يخالف قوانين المستشفى.

كنت منحازًا إلى جثث المساكين الذين ظلمهم القدر فجعلهم أذلاّء على باب الحياة. انحزتُ إليهم لأنّي واحد منهم. أشعر أنّ أمورًا وافرة تجمعني بهم وتجمعهم بي. فسعيتُ إلى تأمين بعض الراحة لجثثهم في هذا المكان الذي لي سلطة عليه.

في بعض الأحيان، كنت أرجىء دورَ جثّة حانَ لتُسجّى على لوح التبريد، فأضع جثّة وصلت بعدها. والسبب أن صاحب الثانية فقير مقهور وصاحب الأولى ميسور مرفّه. وذلك لم يوقظ لديّ عقدة الشعور بالذنب.

كنت أفعل ما أفعله وضميري مستريح.

جثث كثيرة لم أعاملها معاملة الأحياء للموتى. أو كما هو مفترض أن يتصرّف شخصٌ يعمل عملي. مرارًا خاطبت ميتًا وأفشيت له ما في أعماقي.

مكتبة الفكر الجديد

ليس صحيحًا أن الإنسان يموت عندما يتوقّف قلبه عن النبض، ويتعطّل دماغه.

لطالما شعرتُ بأني لستُ وحدي في البرّاد، مع أنّ لا أحد معي.

كنتُ أشعر بأنّ المكان ممتلىء، وأن مساحته الضيّقة تكاد تنفجر لامتلائها، وتحديدًا حين يحلّ السكون.

كان السكون يحرّر الأرواح من هياكلها فتهيم حولها.

كنت أسمع الأنفاس المحمّلة بكلمات مبتورة وبأصوات تريد أن تقول شيئًا ولا تقول.

لم أتوهّم ذلك.

في البدء، أقنعت نفسي بأنّ ما أسمعه أوهام بأوهام. أو أصوات تقيم في خيالي ليس إلاّ.

لم أجرؤ على الإفصاح عنها.

خشيت أن يقولوا إنّ بي مسًّا من الجنون، أو إنّي أستحضر الأرواح وأتصل بالشياطين.

الآن، تأكد لي أنّ ما سمعته، وما أسمعه، ليس من وحي الخيال. ولا ناجمًا عن تأثري مثلاً بالأفلام. فأنا قلّما أشاهد التلفزيون هنا في المستشفى. وما كنت أشاهده في الضيعة لا يمتّ بأدنى صلة إلى أفلام الرعب. ولا أذهب إلى السينما إلاّ لأشاهد أفلامًا خليعة، كلّ فيلمين بتذكرة واحدة، في صالة العرض المتواصل.

مرّات، تعمّدت النزول إلى البرّاد آخر المساء. في هذا الوقت، يخلو المستشفى من الزائرين وأهل المرضى، وتضؤل الحركة في قسم الطوارىء، فيغدو للسكون مفعولٌ غامض.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أزور البرّاد لأصغي إلى الهمهمات التي تضجّ بها السكينة. وكثيرًا ما سألت نفسي كلّما رأيتُ الأجسام تلفظ ماءها وسوائلها المقرفة، هل يلفظ العقل على غرار الجسم هواجسه ومخاوفه وأسراره وذكرياته. يلفظها تمتمات يحتضنها السكون ويتحوّل بها. كنت على يقين من حدوث ذلك. فما يتناهى إليّ هو إفرازات النفوس والعقول لا ما ينقله الهواء كما يحلو لبعضهم أن يقول تعليقًا على مسألة كهذه.

فالعقول والنفوس تُفرغ ما فيها كي تصعد إلى السماء خاوية من هموم الأرض.

فيما أتأمّل أحوال الجثث، أجتاز حدود المنطق، فأتخيّل الأدمغةَ لحظة الموت تقذف محتوياتها والنفوسَ مكنوناتها، مثلما تقذف الآلة الطابعة (الدكتيلو) الورقة بعد نقر الكلمات عليها. فتظهر تلك المحتويات والمكنونات مكتوبة على أوراق متسلسلة، من فتحتَيْ الأذنين، أو من الفم لكونه البوابة الأوسع. أوراق يحتفظ بها أقرب المقرّبين إلى الغائب على أن لا يقرأها هو ولا أحد من الناس، إلاّ إذا أوصى الميت له، أو لسواه، بالاطلاع عليها والتصرّف بها لما فيه المنفعة العامة فقط.

مُجحف في حقّ البشريّة أن تموت محتويات العقل ومكنونات النفس بموت البدن. افتراضًا أنّ هذا المشروع قابل للتنفيذ، فمن يدرك مقدار الغنى الذي سيزخر به التاريخ الإنساني، وعدد المنجزات التي سيشهدها الغد البعيد. فكم من عالِم مات، والأفكار التي لم ينفّذها، ماتت برحيله. وكم من شاعر فارق وعشرات القصائد لم يتسنَّ له تدوينها. وكم من عاشق لقي وجه ربّه وفي قلبه الكثير ممّا لم يقله

مكتبة الفكر الجديد

للحبيبة. وكم من أمّ صرعها المرض ولا تزال أمومتها خصبة، يمكنها أن تملأ العالم حنانًا...

هذه الأفكار وغيرها تراودني في البرّاد. وترافقني.

لم يسبق أن أحببت التأمّل الفلسفيّ، فطوال عمري كنت أمقت الفلسفة وجفافها ولا أستلطف أدعياءها. مدرّس الفلسفة الذي لقنّنا في السنة الثانوية الثالثة نظريّات سقراط وأفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي... كان ظريفًا. لطالما ركّب على الفلاسفة، القدامى والمعاصرين، نكاتًا وطرائف، فيجذب بها عقولنا المراهقة. كنّا نصغي إلى النكات، لا إلى الدرس، ونرى جميع الفلسفات في ابتسامة ابنة الجيران، وفي القشعريرة التي تولّدها فينا نظرةُ طالبةٍ من طالبات ثانويّة البنات.

في البرّاد، وجدتني أتفلسف.

مواجهة الموت اليوميّة حرّضتني على التفكير.

لم أتفوّه بشيء من تأمّلاتي لأحد. هي تأمّلات تخرج من تلقائها. وتتلاشى من تلقائها. بين خروجها وتلاشيها تحلّق نفسي فوق غيومها المتشابكة وبين ألغاز الوجود.

بو موسى عندما سمعني أتحدّث عن همهمات الأرواح والأصوات المكبوتة، قال إنّه خائف عليّ، ونصحني بعدم البقاء طويلاً في البرّاد بعد الدوام.

أندريتي لم يعلّق.

أمّا غُبّس الذي لا يبتسم وإن زكزك نفسه، فضحك كثيرًا.

منذ ذلك الحين، احتفظت بأفكاري. فعمّق هذا حبّي للعزلة. أصبح البرّاد المكان الوحيد الذي أجد فيه الدفء والأمان، وبات

مكتبة الفكر الجديد

الموتى رفاق عزلتي، الذين ينصتون إلى أفكاري وهــم في صــمتهم العميق. لم أكن أكلمهم أو أبــوح هواجســي ومخــاوفي بصــوت مسموع، لكنّهم كانوا يسمعونني.

كنت أشعر أن كلماتي تستقرّ في أرواحهم التي لم تفارق جثثهم بعد، أو فارقتها لكنّها لم تزل تدور حولها. شــعور جعــل عــزلتي مفتوحة على العالم، كأنّ هذه الجثث ليست سوى نوافذ أطلّ منــها على السماء.

مكتبة الفكر الجديد

27

كانت الساعة التاسعة إلاّ ربعًا تمامًا عندما دوّى انفجار كبير هزّ المستشفى.

انفجار من فرط قوّته ظننته في الحيّ المجاور، فتسارعت خفقات قلبي وتراخى جسمي كانّ دوارًا دهمني فجأة.

حالٌ من الفوضى العارمة سادت المكان.

كنتُ في البرّاد، أستعدّ لبدء نهار جديد بعد ليل أمضيت نصفه في قسم العمليّات. لم أقوَ على الوقوف فجلستُ على طرف لوح التبريد. عندما استرحت نهضت. أسرعت إلى الحمّام وغسلت وجهي الذي بدا في المرآة أصفر، لا ينقصه سوى بعض الزرقة ليغدو كوجه الميت. قلّة النوم وراء ذلك، والهمّ الذي يرافق كلّ انفجار يحصل في منطقتنا، وفي الضواحي المتاخمة.

صفّارات سيّارات الإسعاف تقترب، ومع اقترابها يستنفر المستشفى. ويروح المرضى وزوّارهم يتابعون من النوافذ المشهد الذي كثيرًا ما تكرّر هو نفسه منذ بدء الحرب.

قال الراديو إن سيّارة مفخخة بكميّة كبيرة من الموادّ الناسفة، فُجّرت في شارع سكني مكتظّ، قرب الفرن.

الضحايا بالعشرات وعدد الجرحى كبير جدًّا.

مكتبة الفكر الجديد

هلع عظيم دبّ بين الأهالي.

هذا يسأل عن أمّه التي ذهبت إلى السوق و لم يرها بعد.

هذه تبحث عن أخيها الذي ترك البيت قبل دقائق من الانفجار.

طفلة في الطريق تبكي والمخاط على فمها واللعبة على صدرها ولا أحد يلتفت إليها. لعلّ أمّها التي كانت ترافقها، خطفها الموت المباغت.

امرأة تطلّ من الشرفة في الطبقة الثالثة وهي تولول. ابنها يعمل خبّازًا في الفرن، وأنباها قلبها أنّ مكروهًا أصابه.

مسلّحون من بضعة أحزاب أبعدوا المتجمهرين بإطلاق النار في الهواء مخافة أن تكون هنالك سيّارة أخرى مُعدّة أيضًا للانفجار.

تفرّق الناس ليس خوفًا من انفجار ثانٍ بل خشية أن يختلف المسلّحون على تقاسم النفوذ. ومن نجا من انفجار السيّارة قد يذهب قتيلاً برصاص أبناء منطقته.

سيّارات الإسعاف تروح ملأى وتعود لتمتلىء مجدّدًا بالجثث والأشلاء.

عجوز يسأل لماذا الناس مضطربة وهو يلعن فتًى أوشك أو يوقعه أرضًا بغير قصد. طرشه أنقذه من معرفة الخبر المزعج.

هذا بعض ممّا سمعته.

وددتُ أن أذهب إلى موقع الحادث، لكنّ ذلك متعذّر في حال كهذه.

وحدي في البرّاد (روبير في إجازته الأسبوعية) والمسعفون يأتون بالحمّالات فأعاونهم على إفراغها.

مكتبة الفكر الجديد

أشلاء مختلفة الحجم، وأنصاف جثث، وجثث.

لم يبقَ متسعٍ في البرّاد.

لفتتِ الراهبةُ المسعفين إلى ضيق البرّاد، وإلى ضرورة أخذ الدفعة الجديدة من الضحايا إلى مستشفى آخر. عاتبتهم، وهي تعرف بعضهم معرفة جيّدة، بالقول إنّهم يتصرّفون كأن ليس في المنطقة سوى هذا المستشفى. وتمنّت أن لا ترى وجوههم بعد الآن.

أتعبني فرز الجثث الجديدة عن الجثث القديمة، ورصفها في مطرح منفصل. فمن الممكن أن يعاود المسعفون أخذ قسم منها، إلى مستشفيات لديها برّادات قادرة على الاستيعاب.

أفردتُ للأشلاء فسحةً في إحدى الزوايا بعدما فرشتُ تحتها بطانيّتين من بطانيّات الإعاشة التي اعتدت استعمالها تحت الجثّة النازفة لامتصاص الدم. كنت ألُفُّ البطانية بعد انتهاء وظيفتها، وأضعها في الكيس النايلون وأرميه في برميل النفايات.

رششتُ الغرفة بالمادّة المطهّرة لمّا باتت الرائحة قويّة.

عددتُ الجثث بعدما تأكّد لي أنّ المسعفين احترموا طلب الراهبة. إحدى وعشرون جثّة كاملة، منها خمس عشرة جُلبت اليوم، وجثتان نصفيّتان، الأولى مبتورة أفقيًّا. لم يبقَ منها سوى الرأس والبطن والصدر ويد مقصوصة من المرفق، واليد الثانية سليمة. وكان القميص عليها معفرًا بالوحل والمياه، لعلّ قوّة عصف الانفجار قذفت بها إلى البعيد. والجثّة النصفيّة الثانية مبتورة عموديًّا، فُقدتْ منها الرِجل واليد اليمنى إلى الكتف.

أمّا الأشلاء فلم أحصها. كان منظرها والطريقة التي سُتِفَت بها كافيين لإشاحة نظري عنها. جلبت بطانية ثالثة وغطّيتها بها.

مكتبة الفكر الجديد

لم يسبق أن رأيت هذه الكميّة من الأعضاء المقطوعة التي لم يزل بعضها محتفظًا بخِرَقٍ من الثياب.

أوّل مرّة، بعد اعتيادي الشغل في البرّاد، تمنّيت لو أنّي عملتُ عملاً غيره كي لا أرى هذا المشهد المروّع.

مشهد الأشلاء واللحم الممزّق ذكّرني بالبقايا التي كان اللحّام الوحيد في الضيعة يرمي بها في زاوية خارج ملحمته، لصق حافة قناة المياه الجارية تحت قضبان الحديد. كان كلّ الذباب في العالم يلتقي على تلك البقايا.

لن أنسى هذا المشهد، مشهد الأشلاء، ولا ما جرى لاحقًا عندما راح أهل الضحايا يدورون على المستشفيات بحثًا عن الأعضاء الناقصة من الجثامين. كان هؤلاء يتوسّلون إليّ بأعزّ ما لديّ بأن أساعدهم في التفتيش في كومة الأشلاء عن يد مثلاً، ذاكرين شكل السّاعة التي قد تكون لا تزال في معصمها، وماركتها. أو عن رِجل أو أي شيء من جثّة الفقيد.

لم أكن قادرًا على بعثرة البقايا من أجل البحث عن العضو المفقود.

كنت أطلب من الأهل أن يُدخِلوا أحدهم حتّى يبحث هو في الكومة. بعضهم عرض عليّ مالاً كي أعفيه من ذلك وأتولّى أنا التفتيش. لم أقبل. ولن أقبل وإن دفع طالب الخدمة مالاً يعادل وزنه.

أمضيتُ النهار واقفًا بلا أكل ولا استراحة. حتّى إن علبة السجائر بقيت مثلما هي. نقصت منها سيجارتان نفختهما مع فنجان القهوة. وكانت أذناي معلقتين بالراديو الذي كثيرًا ما نلجأ إليه في ساعات القصف، ولدى وقوع حوادث كبيرة مثل هذا

مكتبة الفكر الجديد

الانفجار. كان الراديو يبثّ فلاشات عن الحدث المأسوي، وتجعلنا الموسيقى المعتادة التي تمهّد لكل خبر جديد على أعصابنا حتّى سماعه. وبين ملحق وملحق، تُذاع أغانٍ وطنيّة حماسيّة تنساب بصوت خفيض أسمعه بصعوبة. كان الواقفُ على مقربة من الراديو، يتولّى رفع صوت المذياع لدى بدء موسيقى الملحق، وخفضه بعد إذاعة الخبر. هذا الواقف قد يكون زائرًا أو مريضًا أو ممرّضًا أو الأخت كريستين نفسها.

كلّ ما حدث قبل الظهر وبعده في كفّة، وما حدث ليلاً في كفّة.

جاء شابان، أحدهما يحمل مسدسًا ظاهرًا تحت قميصه. قال إن ابن عمّهما قضى في الانفجار. و لم يجدا جثّته في أيّ من البرّادات. وجدا فردة من حذائه بين الأغراض التي جمعها المسعفون وأودعوها مقرّ الصليب الأحمر القريب. أذنتُ لهما بالبحث في كومة البقايا، ورحت أراقبهما. تفحّصا جميع الأشلاء. وأعادا الفحص مرّة ومرتين و لم يجدا عضوًا واحدًا يمتّ إلى نسيبهما. عندئذ قال لي حامل المسدس الظاهر تحت قميصه إنّهما مضطرّان إلى أخذ بعض القطع من الكومة لإيهام أهل الفقيد بأنّها من جثّة ابنهم الغالي. وقال يجب أن يكون في التابوت شيء من الجثّة، غير الحذاء، فلا يجوز إقامة جنازة لحذاء.

وتذكّرت قصّة فيلسوف يونانيّ رواها لنا أستاذ الفلسفة، مفادها أن فيلسوفًا رمى بنفسه في فوّهة بركان كي يضع حدًّا لحياته، فتلقّفته النيران ولفظت الحمم حذاءه إلى الخارج. مات الفيلسوف وبقي الحذاء.

مكتبة الفكر الجديد

تجنّبت أن أردّ على المسلّح الغاضب. ثمّ بنبرة من يضمر شرًّا، قال سنأخذ هذه اليد وهذه الرِجل. ورفع اليد من الأرض وأشار بإصبعه إلى الرِجل. قلتُ له إنّك تغشّ أهل الراحل، وتسرق أعضاء من جثثٍ قد لا يجد أهل الموتى سواها. فهل يُعقل أن يحمل هؤلاء تابوتًا خاويًا؟ وللحال وضع مسدسه في رأسي، وبيده الأخرى شدّني نحوه من قبّة المريول، وهددني. أفهمني أنّي لو كنت أعرفه لسكتُّ. لم أساله من أنت. لستُ معنيًا بمن يكون، أو ابن من هو. توسّلتُ إليه أن يُبعد المسدس كي نبحث معًا عن حلّ. غضب وقال إنّ الحل الوحيد هو إعطاؤه ما طلب، وإنّه سيقتلني إن رفضتُ.

أذعنتُ.

لستُ مستعدًّا للذهاب ضحيّة رخيصة من أجل أشلاء.

فهو لم يكن يمازحني. كان الشرّ يبرق في نظراته. ولا شيء يمنعه من قتلي.

فالمنطقة سائبة، والزعران المتلطّون بأسماء الأحزاب يتحكّمون في رقاب العباد، والويل لمن يجرؤ على الاعتراض.

ومن يحمل سلاحًا ظاهرًا تحت قميصه، يهدد به الناس هو واحد من هؤلاء.

رحتُ أستعطف حامل المسدس وابن عمّه بالكلام الوجداني على حرمة الموت وضرورة احترام الميت، لعلّ أمرًا يحدث فينقذني من الموقف الصعب. كأن تأتي الراهبة، وهي أحيانًا تقوم بجولتها الليلية في مثل هذا الوقت. أو يأتي مريض في حال الخطر يرافقه بعض من أهله، أو يعبر أحد الممرضين...

لكنّ أيًّا من هذه الاحتمالات لم يحصل.

مكتبة الفكر الجديد

قال لي صاحب المسدس أعطني كيسًا أضع فيه اليد والرِجل، أو أيّ شيء ألُفّهما به.

أعطيته كيسًا وجرّبت مجدّدًا مخاطبة ضميره كي أثنيه عمّا يفعل.

سألته هل يقبل أبو الفقيد دفن أشلاء غرباء حين يعرف أنّها ليست لابنه. وتابعتُ مع أنّه لم ينظر إليّ، قلت إن هذه اليد التي تضعها الآن في الكيس ليست اليد التي قبّلها الأب عندما كان ابنه صغيرًا، ولا اليد التي صافحته وصافحها عندما أصبح الفقيد شابًا. كما أن هذه الرِجل...

لم يدعني أكمل، أفلتَ الكيس واستلّ مسدسه الذي كان على الأرض قربه، وهجم عليّ. تركتُ البرّاد راكضًا في الممرّ. ظننته سيلحق بي لكنّه لم يبرح مكانه.

فكّرتُ في إبلاغ الراهبة وتراجعت. فهي تستريح في بيت الراهبات، والوصول إليه دونه محاذير في منتصف الليل. وإذا ذهبتُ لإبلاغها فليس مضمونًا أن أجدهما لدى عودتي.

لذا رجعتُ فورًا. خشيتُ أن يأخذا قطعًا أخرى غير اليد والرِجل.

حين وصلتُ إلى البرّاد، فوجئت بأنّهما غادرا.

ولّما تناهى إليّ هدير محرّك السيّارة، أسرعت إلى مدخل الطوارىء.

كانت السيّارة قد أقلعت. قبضة السائق خارجة من نافذتها، وإصبعه الوسطى مرفوعة في الهواء.

مكتبة الفكر الجديد

28

لم يسبق أن حدث لي ما يحدث الآن: اشتهاء شابّة ميتة.

قالوا إنّها قُتلت أثناء تبادل النار بين عناصر حزبيّة غير منضبطة. الرصاصة استقرّت في مؤخّر جمجمتها فأردتها على الفور. كانت المسكينة تنزّه كلبها قرب المنزل عندما لعلع الرصاص في الشارع. بقيت هي غارقة في دمها على الرصيف وذهب الكلب إلى البيت.

أرفع الشرشف عنها لجهة قدميها.

أتأمّل عريها تأمّلَ من يبغي حفظ تفاصيله.

ثم أردّ الشرشف.

هيّبت رؤية جسدها عاريًا. بدا كأنّه لشابّة نائمة لا ميتة. بياضه ليس ذلك البياض المفرط في النصاعة والموحي بالبرودة. إنّه بياض متّشح بحمرة خافتة. لم يدهمه الشحوب برغم حصول الوفاة قبل قرابة ثلاث ساعات.

وجهها متناسق التكاوين. بلا مساحيق. أجفانها المُسدلة حجبت لون عينيها. شعرها كستنائيّ مجعّد كأنّ الهواء جفّفه بعد الاستحمام لا المجفّف الكهربائيّ. نهداها ليسا متوسطّي الحجم بل أكبر قليلاً، مشدودين مع بعض الارتخاء الذي يمنح النهد الشكل المغري. لون

مكتبة الفكر الجديد

بشرتهما أشدّ بياضاً من محيطهما الذي، كمحيط أعلى الكتفين والخصر، يحتفظ بآثار سمرة ضعيفة ناتجة من الحمّام الشمسيّ في الصيف.

الزغب على فخذيها يدلّ على غربتهما عن الشمع المزيل للشعر وشفرة الحلاقة. زغب لمّاع، تزداد شقرته مقارنةً بسواد شُعيْرات عانتها ذات الهندسة الجميلة (مثلّثٌ رأسه إلى تحت). كانت الشُعيْرات طويلة بعض الشيء، ربّما لم يحصل الاعتناء بها منذ أيّام البحر. من تكوّرها استنتجتُ أنّها ليست قاسية. لعلّ نعومتها تعادل نعومة شاربَيّ في أوّل عهد المراهقة.

فيما أنظر إلى فرجها الصغير، وبظرها المسترخي بين الفلقتين الزهريّتين، راودني السؤال هل هي عذراء أم لا. وسوس لي شيطاني أن أستكشف، فخذلته، لم أصغِ إلى ندائه المتكرّر.

حدّقتُ إلى قدميها فأذهلني جمال أصابعهما المطليّة أظفارُها باللون الباذنجاني. من المرجّح أنّ متخصّصة بهذا النوع من التجميل نفّذت عملها على خير ما يرام. بدتا كأنّهما لم تعرفا المشي بل الطيران. تخيّلتني ألمسهما متمهّلاً تمهّل زائر متحف لدى لمسه تحفة نادرة. وتخيّلتني مُخففًا في لجم نفسي عن تقبيلهما، إصبعًا بعد إصبع.

في لحظة تخلّ، خامرتني رغبة قويّة في أن أجعل رِجليها منفرجتين وأجذب جسدها إلى أن تستقرّ مؤخّرتها على طرف اللوح، ثم أرفع قدميها على كتفَيّ حتّى يسهل الإيلاج. رسمتُ المشهد في رأسي فوجدته مثيرًا، وتنفيذه يسيرًا. للحظة ظننتُني مبتكره، لكنّني عدت فتذكّرته هو نفسه في أحد الأفلام الخليعة.

مكتبة الفكر الجديد

محزنٌ أن يجتاح الذبول جسدًا كهذا الجسد. جسد لا بدّ أنّ رجالاً كثرًا تمنّوا لمسه أو عناقه أو امتلاكه، وأسكنوه مخيّلاتهم ونسجوا حوله أحلامًا واستيهامات.

لم أقدر أن أعامله كجثّة. فهو لا يزال يستفزّ المشاعر والمخيلة، وأشعر بأنّ الحياة تموج فيه برغم صمته المفتوح على التحلّل والخراب.

كنت أنظر إليه كأنّي على حافّة الانخطاف. أفقتُ حين هُيّيء لي أنّ هنالك صرير دواليب كرسيّ متحرّك في الممرّ. وثبتُ إلى الباب بعد تغطية الفتاة. مددتُ رأسي فلم أرَ أحدًا.

أغطّيها بعض الوقت ثم أرفع الغطاء وألبث ممسكًا به كأنّي أوشك أن أبسطه على جسدها. فالحيطة ضرورية في حال كهذه. فإذا ضبطتني الراهبة ناظرًا إليه نظرة الجائع، فستعاقبني بأن تحرمني الدنوّ من جثث النساء، وتحصر بها وبروبير وحدهما جميعَ الإجراءات المتعلّقة بجثثهن.

وقد تفتّق خيالي عن فكرة بديعة. لوّثتُ الغطاء بشيء من الدم الذي تنزفه إحدى الجثث، حتّى إذا رأت الأخت كريستين الجثّة مكشوفة أزعم أنّي أغيّره.

كنت مضطربًا.

أتفقّد الممرّ بين وقت وآخر. أقطعه ذهابًا وإيابًا كي أوهم من يراني أنّي أتمشّى قتلاً للوقت. وعندما أطمئن، أعود إلى البرّاد، أرفع مجدّدًا الغطاء، أتأمّل جسد الصبيّة كأنّي أراه أوّل مرّة مع أنّه، خلال غيابي القصير عنه، لم يفارقني. كان يتراءى لي أينما نظرت.

لم أباشر تجهيزه للتسليم بناءً على طلب الراهبة، الذي أعلمتني به إحدى الممرّضات. وهذا يحدث عادةً لأسباب مختلفة. لم أستغرب.

مكتبة الفكر الجديد

تمنّيت إعفائي من حشو الجثّة وتنظيفها. خشيتُ ألاّ أحترم حرمة الموت إنْ توليتُ أنا مهمّة التجهيز. فالشهوة أحيانًا لا تعترف بالأصول، تجرف ما يعترض سبيلها، متجاهلةً صوت الضمير.

إن عُهدت إليّ المهمّة فلا شيء يمنعني من أن أطبّق الأفكار التي راودتني قبل قليل، خصوصًا إذا بقيتُ وحدي في البرّاد.

لن أغفر لنفسي مثل هذه الخطيئة في حال اقترافها.

صلّيت كي أنجو من هذه التجربة التي سقطتُ فيها تفكيرًا ولا أنوي السقوط فيها تطبيقًا.

أصلّي وأتذكّر جسد الفتاة مُكرهًا. الصلاة تستحضره بدلاً من إبعاده.

لا أدري سرّ انجذابي إليه هو تحديدًا.

رأيت جثث فتيات ونساء، وبعضهن جميلات، وما تحرّكت شهوتي. هنا، في البرّاد، وهناك في قسم العمليّات، عرفت جسد المرأة معرفة حقيقيّة. وفي معسكر التدريب، تسنّى لي نكاح امرأة سيارة الهوندا، و لم أُقدم.

في الضيعة، كنت في الرابعة عشرة، عندما عرّفتني به بدويّة تكبرني بعشرين عامًا. لطالما ضاجعتها تحت شجرة التين، وفي العرزال الذي رفعه جدّي في الكروم.

وعرفته فتًى في المجلاّت الخليعة التي كنت أستعيرها من بو زهراب. وهو شيخ متصابٍ يبيع علنًا على عربته ذات الدواليب الثلاثة، الترمس وغزل البنات والحلوى والبرازق.

كنت أخبّىء المجلّة تحت ثيابي وأهرول إلى حيث يمكنني أن أخلو بنفسي.

مكتبة الفكر الجديد

أجساد فتيات المجلاّت لا تختلف عن جسد الصبيّة المسجّى على لوح التبريد. الفرق أنّ تلك الأجساد مُشاعة، فلا حصر لعدد الذين أخرجوها من الورق الملوّن، وناموا معها في خلواتهم. أمّا جسد الفتاة الممدّد الآن على مرمى يدي، فلا يشاركني فيه أحد. بمقدوري أن أفعل به ما أشتهي.

ولسبب أجهله، تمنّيت لو باستطاعتي ترك البرّاد فلا أرجع إلاّ بعد أن تغادره الفتاة.

الهروب لن ينسيني مشهد استلقاء جسدها على اللوح. لكنّه يجنّبني ارتكاب ما قد أندم عليه طوال حياتي.

لا أضمن أنّ بإمكاني البقاء لامباليًا أكنتُ أنا ساهيّء الجثّة أم الراهبة التي قد تطلب مني مساعدتها ما دام روبير غائبًا.

إذا ساعدتها فسأكون مرتبكًا. بل سيتضاعف ارتباكي إذ سيُتاح لي عقد مقارنة مباشرة بين الفتاة والراهبة. ولن أحكم حكمًا منصفًا لأنّي سلفًا منحاز إلى الأولى وإنْ كنت لا أنكر إعجابي بالثانية. ليس لانحيازي صلة بفرق العمر بين الاثنتين، ولا لأنّي رأيت جسد الفتاة عاريًا و لم أرَ من الراهبة سوى وجهها ويديها وعنقها. سبب انحيازي هو نظرة الوداع، التي كنت كلّما رأيت الصبيّة خلتُني أراها للمرّة الأخيرة.

في خيالي مضيتُ بها إلى زمن الطفولة. ها هي تحتضن لعبتها وتغفو بعد أن تخبرها أمّها حكاية مسلّية أو تغنّي لها واحدة من أغانيها المفضّلة.

وإلى عمر التاسعة، فأراها قبالة المرآة تزيّن فمها بإصبع أحمر الشفاه وهي تنتعل سكربينة والدها، وتحمل جزدانها.

مكتبة الفكر الجديد

وإلى الرابعة عشرة، فأراها قرب الشباك منتظــرة مــرورَ ابــن الجيران، والرسالةَ التي سيقذف بها إليها، فتقرأها. ثم تخبّئهــا تحــت المخدّة أو في كتاب.

وتخيّلتها شابّة تمشي. تُرى هل في مشيتها اختيــال وإغــواء أم رزانة يرافقها دلال خفي؟

وتخيّلتها تتكلّم. هل رفيع هو صوتها أم معتدل أم عريض؟ وهل نطقها سريع أو متمهّل أو بين بين؟

وتخيّلت ابتسامتها وعبوسها، أنينها عندما تتوجّع وتأوّهاتها لدى بلوغها الرعشة، هدوءها وغضبها.

كنتُ تائهًا في دوّامة الأفكار لمّا تناهى إليّ حديث متقطّع مــن إحدى غرف قسم الطوارىء.

سترتُ الصبيّة. ووقفت بالباب وقفة مَن ملّ الانتظار.

جاءت الأخت كريستين ترافقها إيزابيل "جوكر الطــوارىء" كما نطلق عليها. عندما رأيت إيزابيل تأكّد لي أنّي معفًى من العمل.

ودّعتهما وغادرتُ و لم أعد إلى البرّاد إلاّ صباح اليوم التالي.

لكنّ جسد الفتاة لم يبارحني. جسدها لا جثّتها.

مكتبة الفكر الجديد

29

قبل النوم، اعتدتُ أن أتمشّى على سطح أحد مباني المستشفى.

هذه الاستراحة تعيدني إلى الضيعة.

كنتُ كلّما تأمّلت النجوم تذكّرت أمّي تأمرني عندما تراني أنظر إلى السماء، بأن لا أعدّ النجوم لئلاّ تمتلىء يداي بالثآليل.

لا أدري من أين استقتْ هذه المعلومة. ولطالما شغلت بالي وبال رفاقي الذين هم أيضًا سمعوا من أمّهاتهم التحذير نفسه.

حين كبرتُ قليلاً، رحتُ أجلس في المساء على سطح بيتنا، وكان من تراب مخلوط بالتبن، وأراقب النجوم وحركة الغيوم العابرة تحت القمر.

سقطت نظريّة أمّي عندما عددتُ النجوم. وانتظرتُ شهرًا، ولم يظهر على جلد يدي بَثْر صغير مستدير يشبه الحِمَّصة أو دونها، يسمّونه بالعربية الفصحى: الثؤلول. ونسمّيه في الضيعة: التالول.

كثيرًا ما خطر لي سطح بيتنا وأنا هنا في المستشفى، حيث أمضي النهار بين الجدران الأربعة والممرّات. وإذا تمشّيت في الباحة فلا أرى إلاّ مباني مطوّقة بمبانٍ. فأشعر أنا ابن السهل بالاختناق.

آخذ الراديو وأصعد. أمشي على مهل، مُلصقًا الجهاز الصغير بأذني، ناظرًا معظم الوقت إلى الفضاء. أتأمّل القمر قبل أن يرتمي وراء

مكتبة الفكر الجديد

البنايات. في المدينة، ليس ممكنًا التمتّع برحلته. هل للعشاق في بيروت صلة حميمة بالقمر كتلك التي يقيمها به عشّاق الضيعة. ليس عاشقًا من لا يحبّ القمر. وكي تحبّه يجب أن تراه في تحوّلاته المتنوّعة. في نقصانه واكتماله. في مطلع ظهوره وآخر مشواره. في صفائه عندما يكون وحيدًا واعتكاره عندما تستره الغيوم.

تغيّرت نظرتي إلى قمر الضيعة منذ أن بدأت أتلصص على ابنة الجيران. نشأ بيني وبينه تواطؤ لطيف. وحده كان يتابع مغامرتي العاطفيّة. ولطالما استعنت بضوئه لدى الصعود إلى السطح ولدى النزول. وقد أودعته سرّي وأدرت له الظهر مطمئنًا. فلم أسمع مرّة أن القمر طعن أحدًا من الخلف. هذا يحصل في عالم الناس فقط.

على سطح المستشفى، لا أراه إلاّ وقتًا قصيرًا، فأطيل النظر إليه من باب التعويض. وعندما يتوارى، أبحث في الإذاعات عن محطّة لا تذيع أغاني حماسيّة ولا تبخّ السُمّ في أخبارها وتعليقاتها. كنت أترك الإبرة على الإذاعة التي تبثّ إحدى مسرحيّات فيروز. هذه المسرحيّات التي لم يملّ أبي سماعها، وقد حبّبها إليّ لفرط امتداحه فيروز. كان يقول إنّ صوتها مفضل على الأخوين رحباني، إذ لولاه لما وصلت قصائدهما إلى الناس.

خلال مشيي الليلي، كنت أتفادى الدنوّ من الفسحة المشرفة على بيت الراهبات. فما إن أطلّ على زاوية من البيت حتّى أتراجع. خشيتُ أن تراني إحداهن فيوسوس لها الشكّ، فأصبح موضع ظنون قاتلة.

لا أدري كيف خرقت ذات ليلة هذه القاعدة. ربّما دفعني إلى ذلك فضولي لمعرفة شيء خاص عن الأخت كريستين. رحتُ أمشي في الفسحة المحظورة مُغطّى بالظلمة والحذر. احتزتها مصغيًا إلى الراديو،

مكتبة الفكر الجديد

ورأسي إلى الأرض. أمّا عيناي فكانتا متّجهتين إلى النوافذ ذات الستائر المتشابهة.

هنالك عشر غرف. لكل راهبة غرفة. وفي البيت، غرف إضافية للضيوف. فضلاً عن صالون كبير ومخزن للمون وصالة واسعة لتناول الطعام ومطبخ تديره طبّاخة تعاونها شابّتان في إشراف الأخت كليمانس.

لم أزر بيت الراهبات. الزيارة غير متاحة إلاّ للذي لديه عمل. أو لذوي الراهبات. هلا وصفته لي. تسنّى لها دخوله مرّات عدّة. وشاركت الراهبات في الغداء.

الغرف العشر مطفأة مع أنّ الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف.

الراهبات ينمن باكرًا لأنّهن معتادات النهوض فجرًا، بغية الاستعداد لحضور قدّاس الصباح.

ظننتُني أحلم حين انتشر في إحدى الغرف ضوءٌ شحيح. هو ضوء نوّاصة موقعها في زاوية الغرفة. لعلّ قاطنتها استيقظت لدخول الحمّام أو لسبب آخر.

ببطء مشيت حتّى أصبحتُ في محاذاة الغرفة. لم أرَ ظلاً. يدلّ ذلك على أن المقيمة فيها لم تخرج بعدُ من الحمّام أو لم تنهض من السرير. ربّما دهمها أرق وجافاها النوم فأنارت النوّاصة واستعانت بكتاب ما، قد يكون الإنجيل، لتغلب الأرق بالقراءة. فلا شيء يستدرج النعاس مثل المطالعة. الأخت كريستين تقول إنّها لا تنام من دون أن تقرأ. وإنّها تقرأ أيّ كتاب إلاّ الإنجيل. لماذا؟ سألتها إذ فاجأني اعترافها هذا. قالت: "لأنّي حافظتو حرف حرف".

مكتبة الفكر الجديد

ممكن أن تكون راهبة الغرفة المضاءة هي الأخت كريستين. تُرى ما الكتاب الذي تبقيه في متناول يدها قرب السرير؟ بالعربيّة هو أو بالفرنسيّة؟ هل تقرأ كي تتسلّى أم لتتثقّف؟ بأيّ نوع من الكتب تهتم؟

لم أبحث عن أجوبة برغم أنّي متشوّق لمعرفتها.

تجذبني معرفة أمور حميمة عن أشخاص أكنّ لهم إعجابًا. عاداتهم اليوميّة. غرفة نومهم. محتويات جواريرهم، خزائن ثيابهم، مكتباتهم... كلّ شيء يتصل بهم ولا أعرفه.

عندما افكّر في الأخت كريستين، وأنا أنظر إلى الضوء المتسرّب من النافذة، أتخيّل السرير الذي تغفو عليه. ألوان الملاءة والشرشف وغطاء المخدّة. ولون بيجامتها أو الثوب الذي تلبسه لدى النوم.

وأذهب أبعد من ذلك. فأتخيّل ثيابها الداخلية، فهل هي مختلفة عن تلك التي ترتديها النساء المدنيّات؟ وهل هنالك ثياب للنوم خاصة بالراهبات؟

أقطع الأسئلة حالما تراءى لي ظلّ. الضوء الخافت ضاعفَ حجمه، فتعذّر عليّ تعيين الأوصاف التي قد تقودني إلى معرفة هويّة صاحبته.

أرى الظلّ يحني ويختفي.

أطفأت الراهبة النوّاصة وعادت إلى النوم.

مكتبة الفكر الجديد

30

أحببتُ العمل في إشراف الأخت كريستين خلافًا لمعظم زملائي وزميلاتي. فهم يفضّلون العمل مع الشيطان على العمل معها مع أنّهم يقرّون بأنّها الراهبة الوحيدة التي استطاعت إنقاذ قسم الطوارىء.

الراهبات اللواتي سبقنها إلى إدارته أخفقن في المهمّة. وكاد ينهار القسم في الفوضى والخراب.

جاءت هي فأوقفته على رجليه وبات أكثر الأقسام في المستشفى إنتاجًا وتنظيمًا.

بشخصيّتها القويّة فرضت نفسها.

لم تفعل شيئًا استثنائيًا. وزّعت الأدوار، ووضعت الشخص المناسب في المكان المناسب، واعتمدت نظام المساءلة. هذا تحديدًا ما كان غائبًا وتسبّب ببلوغ القسم مرحلة متقدّمة من التدهور.

النجاح اللافت الذي أحرزته الأخت كريستين عزّز موقعها، فأصبحت كلمتها مسموعة لدى الأمّ الرئيسة، المسؤولة عن المستشفى، وعن الراهبات العاملات فيه. وانهالت عليها التهانىء. حتى المطران هنّأها شخصيًا في احتفال أقيم لمرور ثلاثين عامًا على إنشاء المستشفى.

مكتبة الفكر الجديد

الحفاظ على النجاح والخوف من خسارة منجزاتها دفعاها إلى التشدّد في إدارة القسم ومعاملة الممرّضين والممرّضات معاملة لا تخلو من الحزم. هذا ما جعل مبغضيها أكثر من محبّيها.

لم تكن تستريح. فنجان القهوة التي كنّا نعدّها صباحًا في القسم، كانت تشربه وهي واقفة. ما رأيتها مرّة جالسةً حتّى عندما عادت من ضيعتها الجنوبيّة وهي تعرج متعكزةً على عصا. قالوا إنّ قدمها زلّت بها وكُسرت ساقها. وقال بعضهم إنّها وقعت عن الدرّاجة الهوائيّة ولولا تدخّل العناية الإلهيّة لسقطت في الوادي.

كانت صارمة ومتذمّرة دومًا، توبّخ الجميع على مسمع من المرضى وذويهم. لم تُطق الغلط ولا الذين يهملون واجباتهم فلا يقومون بأعمالهم على حسب الأصول.

راهبة جبّارة. لم أعرف، أنا تلميذ مدرسة الراهبات حتّى نيلي شهادة السرتيفيكا، راهبة مثلها. عرفتُ راهبات قاسيات كالأخت فينومان التي درّستنا الجغرافيا. كانت هذه الراهبة تضربنا بقضيب من خشب السنديان لأسباب تفهة. مثلاً، إذا تثاءب أحدنا خلال الشرح. إذا لفظنا اسم بلد أو مدينة لفظًا لا يجاري لفظها البيروتيّ له. إذا لم يقف تلميذٌ لدى دخولها الصفّ. وكثيرًا ما عاقبتني بالركوع في الزاوية قرب الباب لأنّي أنظر إلى العصافير في الخارج لا إلى الخريطة، موضوع الدرس.

الأخت فينومان ظالمة لأنها كانت تقسو على تلاميذ صغار لأمور لا تستحقّ القصاص. أمّا الأخت كريستين فعادلة لأنها تدير القسم مستلهمةً قوانين المستشفى. لم تظلم ممرّضًا أو ممرّضة. كانت تستشرس إذا حاولت راهبة أخرى التدخّل في شؤون القسم، فتوقفها عند حدّها.

مكتبة الفكر الجديد

إنّها من طينة مختلفة. قليلات هنّ اللواتي يشبهنها.

مَن ترضى عنه محظوظ، لا يجرؤ أحد من الموظّفين الكبار على الإساءة إليه أيًا كانت غلطته. أما زملاؤه فكانوا يعاملونه معاملة ظاهرها الودّ وباطنها الحسد.

أنا كنتُ من المحظوظين. في الأسابيع الأولى، لم أكن أشعر بأهمّية الحظوة التي لي عندها. حظوة أجهل سببها. هل وراءها توصية الطبيب الذي تعمل لديه ابنة خالي أم سبب آخر؟

كنت الوحيد الذي اعتاد أن يضحكها. لم يرَ أحدٌ من العاملين في القسم أسنانها قبل مجيئي.

هم يقولون ذلك.

لم يعرفوا أنّي كنت أخبرها نكاتًا من الزنّار ونزولاً. أراهن الليرة بألف على أنها كانت ترويها هي أيضًا لأخواتها الراهبات في اجتماعهن المسائيّ. لم تكن تخجل من مطالبتي بنكتة جديدة عندما يمرّ يوم أو أكثر من دون أن أحكي لها واحدة. كانت تبدو غير مكترثة متى جاءت النكتة من العيار الخفيف. أمّا إذا كان عيارها ثقيلاً فتقهقه. تضع يدها على فمها وتتابع ضحكًا مكتومًا.

بتّ أستجدي النكات كي أضمن رضاها، وأؤلّفها عند الاقتضاء. لكنّ الأخت كريستين كانت تميّز الأصيلة من الملفّقة.

أُعجبتُ بها منذ رأيتها. ثم وجدتني أفكّر فيها.

ما جذبني ليس شكلها فقط بل شيء غريب أجهل سرّه. كان صوتها وحده يقيم فيّ. وكنت في خلوتي السريّة أستحضره بعذوبته النادرة، وأستحضر أيضًا أصابع يديها كي يبدأ طيراني. ولم يغب عن رحلة خيالي فمها بشفتيه المكتنزتين، ولا سيّما السفلى الناتئة أكثر

من أختها العليا. وطالما خُيّل إليّ أن الكلام يستريح عليها قليلاً قبل أن يبلغ محدّثها.

كان كافيًا سماعي صوتها كي يساورني ذاك الشعور الذي يطيّب المزاج، ويجعل العمل في البرّاد محتملاً.

متى وقفتْ بجانبي لدى تنظيف جثّة، تصبّب العرقُ مني وعلت دقّات قلبي، فخشيت أن تسمعها لشدّة قوّتها. كانت الارتجافة تسيطر على أطرافي فيتعذّر عليّ إخفاؤها. ويدبّ البرد فيّ برغم الحرارة الناتجة من الحركة والجهد.

كان القفّازان يخفيان برودة يديّ لا ارتجافهما. لحسن الحظّ أنّ الأخت كريستين كانت، في الأسبوعين الأوّلين، تردّ الارتجاف إلى الخوف وعدم الخبرة. وجاريتها في استنتاجها هذا لئلاّ أكشف المشاعر التي أكنّها نحوها. وكانت الثياب تمتصّ العرق المنساب من مسامي وتستر انتصاب عضوي الذي ليس لي دالّة عليه في مثل هذا الموقف.

ما جعلني أقبل الاستمرار في العمل بالبرّاد هو الحبّ. لولاه لما صمدت طوال هذه المدّة. فأنا الوحيد من جميع الذين سبقوني لم يدر ظهره ويرحل بعد شهر أو شهرين.

أوّل مرّة أختبر مثل هذا الشعور الجميل والمُعذّب في الوقت نفسه.

مرّات، كان يمضي التوهّم بي إلى مكان لا أجرؤ على بلوغه في حال الوعي التامّ.

مثلاً، كتبتُ لها رسالة، قلت فيها إنّي أحبّها، ولولاها لما بقيتُ في البرّاد لحظة واحدة.

مكتبة الفكر الجديد

احتفظتُ بالرسالة آيامًا. ثم برأس سيجارة مشتعلة أحدثت فيها ثقوبًا، ومزّقتها.

شممتُ رائحة الكلمات مع كلّ ثقب.

كان قلبـــي هو الذي يحترق وليس الرسالة.

مرّةً، قرّرتُ أنّ أفصح لها عن إعجابـــــي، وجهًـــا لوجـــه، ونحن نهيّىء جثّة، أو أغتنم فرصة مؤاتية تصلح لبوح كهـــذا. هيّأنـــا معًا جثثًا كثيرة، وتسنّت لي فرص كثيرة و لم أفصح، فبقـــي القـــرار معلّقًا.

ظننتُ أنّ اعترافي يمهّد لاعترافها أيضًا.

ليست امرأة عادية لتأخذ هي المبادرة وتفتح قلبها.

إنّها راهبة نذرت العفّة والطاعة والفقر. ومخالفتها النذر خطيئة لا يستطيع حلّها منها سوى قداسة البابا. لكنّها في الوقت عينه، امرأة من لحم ودم، لجسدها حقوق عليها، قد تلجمها بالصلاة والإماتـــة بعض الوقت وليس كلّ الوقت. وإذا استطاعت لجم جوع الجســـد، فليس هيّنًا لجم إنحياز القلب إلى الحبّ، عندما تهبّ عاصفته.

ربّما أحبّتني وتنتظر أن أفصح أنا أوّلاً.

ليست أوّل راهبة تعلق بالحبّ، وتتخلّى عن الثوب وتتبع نـــداء قلبها. ولن تكون الأخيرة.

أمّي كانت راهبة. ولمّا أحبّت أبـــي غادرت الدير مـــع أنّهـــا خالفت إرادة إخوتها الثلاثة عندما ترهّبت. قالت لهم هذه دعـــوتي، فدعوني وشأني. لم يدعوها. قالوا أنتِ أختنا الوحيدة ونريد أن نفرح بك، ونرى لك صبيانًا وبنات. أوهمتهم أنّها لن تخذلهم كي يفكّـــوا طوق الحراسة عنها. لكنّها في أعماق ذاتها كانت مصرّة على موقفها.

مكتبة الفكر الجديد

ذات فجر، هربت بالثياب التي عليها، مع سائق سيّارة أجرة، ابن الضيعة. أوصلها هذا إلى الدير ووعدها بأنّه إذا سُئل فسيقول إنّه لم يرها ولا يعرف عنها شيئًا.

أبي الذي علّم اللغة العربية في مدرسة الدير، أُعجب بالراهبة التقيّة التي كانتها أمّي، فأقنعها بأنّ حبّه لها كبير، وبأنّ تأسيس أسرة مسيحيّة ناجحة لا يقلّ قدرًا عن نذر نفسها عروسًا للمسيح. اقتنعتْ وتزوّجا قبل تسعة عشر عامًا. وأنا ثمرة حبّهما. أنجباني بعد سنة من زواجهما. واكتفيا بي بلا إخوة وأخوات عن سابق تصميم لا لسبب آخر.

ليس في نيّتي أن أتزوّج الأخت كريستين. فهي تكبرني، في الأقلّ، سبع سنوات. أكيد أنّها لن تقبلَني زوجًا. هذا إذا افترضتُ أنّها قرّرت خلع ثوب الرهبنة والعودة إلى الحياة العادية.

أتراني أحبّ في الأخت كريستين الراهبةَ التي كانتها أمّي. أمّي البعيدة التي أتخيّلها الآن تقلّب صُوَري لعلّ ذلك يروي اشتياقها إليّ. أمّي التي لم أجد حنانًا يعادل حنانها، وابتسامةً ملأى بالرضى كابتسامتها، وخبزًا أطيب من الخبز الذي تعدّه مرقوقًا على الصاج. وأتخيّلها تصغي، ويدها على قلبها، إلى أسماء القتلى يتلوها المذيع بعد كل جولة قصف، وتأخذ نفسًا عميقًا حين لا يرد اسم ابنها في عداد الضحايا.

لا، لم أرَ أميّ في الأخت كريستين التي منذ أن رأيتها رأيت المرأة فيها لا الراهبة.

أحيانًا، يزيّن لي الواقع الغامض أنّها تبادلني حبًّا بحبّ، فيكتسي العالم ألوانًا زاهية بديعة.

مكتبة الفكر الجديد

وأحيانًا، أشعر أنّي أعيش حبًّا من طرف واحد، مـــن طـــرفي، فترتدي الأيّام ثوبًا أسود.

بين حين وآخر، يقدح الأمل مجدّدًا عقب تصرّف يبدر عنـــها فأترجمه ترجمةً تلائم أهوائي، وأروح أبني أحلامًا سرعان ما أكتشف أنّها ليست سوى أوهام.

فيما كنتُ أحبّ الراهبة ولا أرى أحدًا غيرها، كانـــت نهـــلا، زميلتي في القسم، تكنّ لي حبًّا خفيًا. روبير لفتني إلى ذلك. "بتأكلك بعينيها" قال وهو يتباهى بأنّه خبير في النساء، وفي ألاعيبهن. تأكّد لي إعجابها بـــي عندما أسترجعتُ بعض المواقف.

فهي لطالما تودّدتْ إليّ في الكافيتريا، وبقيتْ على مدى أسابيع تجلس حيث أجلس إلى الطاولة نفسها، ونتقاسم أطباقنا. أنا أتنـــاول الصحن اليوميّ الذي يعدّه مطعم المستشفى وهي تجلب شـــيئًا مـــن البيت. وغير مرّة، همست لي خلال الغداء أنّها تتمنّى لو أنّ المكـــان خالٍ كي تضع قدميها على ركبتيّ لتريحهما من الوقوف الطويـــل. لم أكن آخذ رغبتها هذه على محمل النيّة السيّئة. كنتُ أصدق أنّها تَعِبة، وتودّ أن تستريح. فقد كنّا كلّنا في القسم نمضي ســـاعات الـــدوام الثماني واقفين.

بضع مرّات طلبت إليّ أن أدلّك كتفيها اللتين كانتا تؤلمانها حين يضربهما وجع تسمّيه "الوتّاب". كانت تزعم أنّها تستعين بـــي لأنّ يديّ قويّتان، وقد اعتادتا طرد الوتّاب وإراحة كتفيها. حين أدلّكها، وهي مرتدية المريول وتحته بلوزة أو تي شيرت، أتعمّد إدخال يـــديّ

مكتبة الفكر الجديد

حتّى تلامسا كتفيها، فأشعر بنعومتهما، وأروح أدلّكهما على مهل حينًا، وحينًا ببعض الخشونة التي طالما أصرّت عليها في مواقع معيّنة من ظهرها. وكلّما مرّت أصابعي على الكتفين وفي أعلى الظهر استرخت هي كاتمةً تأوّهات تشي بأنّني أسعدها. وسعادتها هذه ليست ناتجة من غياب الألم بل من أحاسيس يولّدها عبور يديَ اللطيف على جزء من جسدها.

في أثناء التدليك، تدير رأسها يمنةً ويسرةً فأسمع الصوت الذي تحدثه زردات العنق لدى الاستدارة المتكرّرة، واكتشفتُ لاحقًا أنّ تدليك موخّر رقبتها تدليكًا هو مزيج من الشدّة واللين، يثيرها ويلهب شهوتها. كنت أركّز على هذا الموقع المرهف فتتلوّى بصمت خشية أن يلاحظ أحدٌ مدى انفعالها. كنتُ أهتاج أيضًا، وأخفي ذلك بالتكلّم مع نهلا نفسها، أو مع إحدى زميلاتنا، كلامًا سطحيًا للإيحاء أنّ الأمر ليس سوى تدليك بريء، وأن لا شيء يحصل في جسديْنا.

وتذكّرتُ أنّها كثيرًا ما تطوّعتْ لتدليك كتفَي كلّ زميلة طلبت إليّ فعل ذلك. كانت تريدني مدلّكًا حصريًا لها. وأنا لم أكن أبالي بمثل هذه التصرّفات. كنت في مكان آخر. وفي رأسي امرأة واحدة هي الأخت كريستين.

نسيت عدد المرّات التي لم ألبِّ فيها طلب نهلا تدليك كتفيها، متذرّعًا كلّ مرّة بحجّة مختلفة: يداي تؤلمانني، أهيّىء جثّة مستعجلة...

رفضتُ لظنّي أنّ الأخت كريستين ستغضب إذا رأتني ألمس امرأة سواها، فتنتقم مني أو من نهلا أو منّا نحن الاثنين بطريقة وحده الله يعرف حبكتها وتوقيتها. فأنا كنت أغار حين أراها وروبير

مكتبة الفكر الجديد

يتهامسان، أو حين تمزح معه وتضحك على تعليق أطلقه أو على واحدة من نكاته. إذا كانت مواقف عادية كهذه، توقد الغيرة فيّ فكيف تواجه هي ملامسة يديّ جسد امرأة على مدى عشر دقائق، وأحيانًا يطول التدليك أكثر من ذلك. كنت أتفادى إيذاء مشاعرها ليس بامتناعي عن تدليك نهلا وغيرها من ممرّضات القسم، بل بامتناعي أيضًا عن المزاح معهن في حضورها.

عندما تراني أدلّك نهلا، تعبر مسرعةً من دون أن تلتفت نحونا كأنّنا غير موجودين. فأستحي وأتمنّى لو بمقدوري أن أتكوّر حتّى إذا صَغُر حجمي هان عليّ الاختباء.

وحدث العكس في أحيان أخرى. تعمّدتُ الظهور سعيدًا وأنا أدلّك نهلا، أرفع صوتي إذا مرّت خلال التدليك و لم تنتبه لنا فعلاً لا تمثيلاً. كنت أبغي معرفة ردّ فعلها. فإذا كانت تحبّني تغضّ النظر مرّة، مرتين، ثلاث مرّات. وفي الأخير تكشف أوراقها المستورة. أمّا إذا كنتُ لا أعني لها سوى أنّي موظّف كباقي الموظّفين، فلن تكترث.

لكنّ نظراتها السريعة العابرة إلينا، وتحديدًا إليّ، كانت تحمل اللامبالاة والاكتراث في الوقت نفسه. أو هكذا حلّلتُ نظراتها تلك. لربّما فهمتُ اللامبالاة خطأً لأنّي في أعماقي أردتها أن تعلن غيرتها. وأكثر من ذلك، أردتُ أن تأمرنا بالامتناع عن مثل هذه الحركات، أيّ التدليك، إبّان الدوام.

لو أنّ ذلك حصل لكنت أوّل السعداء في العالم.

لكنّه لم يحصل. فبقيت في أرجوحة الحيرة. وقد طالت هذه الحال حتّى اعتدتها. فالحيرة تخنق الحبّ إن لم تلمع نجمة اليقين من وراء الظنون.

مكتبة الفكر الجديد

قد تكون نهلا الوحيدة التي شكّت في انجذابي إلى الراهبة. لكنّها تتظاهر بأنّها لا تعرف مطمئنةً إلى أنّ الانجذاب لن يتعدّى حدوده، ومتأكدة أنّ الراهبة لن تنزلق إلى تجربة قد تدمّر، إذا افتُضحت، مستقبلها الواعد الذي ينتظرها في الرهبانيّة.

كذلك أثبتت لها الوقائع أنّي في عين الراهبة لستُ سوى موظّف غمرته ببعض الرعاية في بدء عمله لئلاّ يشعر بأنّه غريب. وهذا لم يكن جديدًا، فقد عاملتْ الأخت كريستين الذين اشتغلوا قبلي المعاملة نفسها. ونهلا غير بعيدة من أجواء القسم، تعلم الشاردة والواردة وما يُحاك في الزوايا. بحدسها الأنثوي كانت لتكتشف أنّ الراهبة تضمر لي شعورًا خاصًا. فعيناها ليستا في ظهرها. ولا تنقصها النباهة ودقّة الملاحظة ولا الخبرة المتأتية من كثرة احتكاكها اليومي بنماذج متعدّدة من الناس.

بعدما صارحتني نهلا بإعجابها بي باتت غير قادرة على إخفاء غيرتها، تعبّر عنها بأساليب شتّى: تركّز على العمل ولا تحكي إلاّ الكلام الضروريّ، تتغدّى وحدها فلا تجالسني كعادتها في الكافتيريا (هذا إذا اشتعلت غيرتها قبل الظهر)، تتفادى النظر إليّ إن التقينا في الممرّ أو في مكان آخر، وإذا نظرتْ ففي نظرتها عتب شديد، تغادر لدى انتهاء الدوام بلا كلمة وداع، ومن دون أن تحادثني كعادتها بضع دقائق عند باب البرّاد إذا كان لديّ عمل، أو على مدخل القسم.

لكنّ حردها لا يصمد طويلاً. اجتماعنا الصباحيّ، نحن موظّفي الطوارىء، حول ركوة القهوة، يمحو ترسّبات الأمس. ولطالما حملت هي إليّ فنجان القهوة، إشارة إلى أنّها تنوي بدء يومها بفتح صفحة جديدة.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أشرب قهوتي، ورأسي غالبًا إلى الأرض متفاديًا النظر إلى الراهبة لئلاً أخدش مشاعر هلا. وأتجنّب أيضًا النظر إلى هلا لظنّي أنّ ذلك قد يزعج الراهبة. التغيّب عن الجلسة ليس واردًا، مع أنّه يعفيني من هذا الحرج. كنت أستأنس بالأحاديث والتعليقات التي تتخلّلها، وأستمتع برائحة القهوة التي تملأ المكان أكثر من شربها.

أوّل مرّة، أحسستُ بحرارة أنوثة هلا، وتمنّيت لو أننا وحدنا في منأى عن الجميع، كانت ظهر يوم 1979-10-9. هي التي تذكّرني دومًا بهذا التاريخ، لأنّه على قولها، ذكّرها بأنّها لا تزال حيّة. (سمّت الصحف ما تخلّله "حرب المستشفيات" بعد القصف المتبادل على مستشفيات المنطقتين الغربيّة والشرقيّة). كنّا منهمكين بالعمل عندما راحت القذائف تتساقط حول المستشفى، فاجتمعنا كلّنا، ممرّضين وممرّضات ومرضى ومريضات وزوّارًا في واحدة من أكثر غرف القسم أمانًا. صودف أن وُجدتُ أنا وهي في الزاوية نفسها.

كان القصف يهزّ المستشفى والصلوات والأدعية ترافق ارتجاف القلوب واصطكاك الرُكَب وأنين الموجوعين.

بقيتْ الحال هكذا إلى أن حطّت قذيفة في الطبقة العليا. فاستدارت هلا وغمرتني، مرتجفة خائفة، فغمرتها وركن وجهي بين عنقها وكتفها. اشتممتُ عطرها وهو مضمّخ بعرقها، وكنت قد اشتممته مرارًا لدى عبورها قربي في الصباح قبل أن تتبدّد كثافته. يتعذّر عليّ وصف نعومة جلدها، وذاك الدفء الذي لفحني وانتشر في كياني. كذلك شعرتُ بدغدغة شعيراتها المتسرّبة من قلنسوة بيضاء

مكتبة الفكر الجديد

تحتضن شعرها الأسود الذي، عندما تحرّره من القلنسوة، ينساب إلى منتصف ظهرها. ورحت أنــزّه شفتيّ بخفّة من قمّة كتفهــا إلى مــا وراء أذنها، مرورًا بمنحدر عنقها الجميل. وبرغم الخوف ودقّة الموقف، أيقظت نــزهة شفتيّ القشعريرة في جســدها، فظهــرت حُبيْبــات استكشفها فمي على الفور.

صلّيت في قلبــي أن ينهمر المزيد من القذائف على المستشــفى كي لا يتوقّف عناقنا. استجاب الله صلاتي. هبطت قذيفة في بيــت الراهبات، فارتفعت الأصوات والابتهالات مجدّدًا. لبثتُ أنــا ونهــلا متعانقين. وقد تشبّثت بــي ذراعاها تشبثًا قويًّا لم أعرف هل مــردّه إلى الهلع أم إلى الرغبة التي أشعلها في بدنها عناقنا القصير أم إلى الاثنين معًا. التصاقها بــي جعل جسدي يختلج اختلاجات عميقة فأغمضت عينيّ كأنّي في حال الانخطاف. لم أشأ فتحهما قبل امتلائــي منــها. شعرت بنهدها يحفّان بصدري، وبفخذَيْها تحفّان بفخذَيّ. ورحــتُ أُدنيها من وسطها نحوي لعلّها تحسّ مدى هياجي. للحظات تخيّلتــها تهبط، تخفي رأسها تحت مريولي وتهدّىء انفعالي.

حين ماج فمها على عنقي، اجتاحني حبور شــفيف. وكــان لهاثها مشبّعًا بالرغبة التي قد يكون أوقدها الخوف من الموت المحتمل، وربّما الوشيك. لستُ أعرف أين قرأت أنّ الرغبة تهبّ مــع دنــوّ الموت.

كانت يداها تغمرانني كأنّها شاءت أن تفارق الحياة وهي تعانق أحدًا تحبّه.

هدأ القصف وبقي الجميع في أمكنتهم تحسّبًا لتجدّده. وبقيــت أنا وهي في الزاوية. كانت تقف أمامي تراقــب الوجــوه المرتعبــة

مكتبة الفكر الجديد

والصفراء لشدّة الخوف، وتصغي إلى التعليقات الطالعة من هنا وهناك. لم يبق جسدانا ملتصقين كي لا نثير انتباه أحد. أدنيت ركبتيّ نحو ساقيها، وأدخلتها بينهما فأطبقتهما عليها. هذا الوضع لم يكن مكشوفًا لوقوف آخرين قدّامنا. وبين حين وآخر، أضع يدي اليسرى على خصرها الأيسر، فترفع يدها بعدما تتأكد أنّنا في مأمن من العيون، وتمسك يدي. تشبك أصابعها بأصابعي، ثم تفكّها وتروح براحتها تتحسس قفا يدي. أبتعد قليلاً عنها وأنظر إلى الناس نظرة من يبغي التمويه حتّى لا يلاحظ أيّ منهم ما يجري بيني وبينها.

لّما تأكد لنا أن القصف توقّف إذ عدنا لا نسمع أصداء الانفجارات، ولا الصفير الذي كان يولّده عبور القذيفة، غادر الجميع الغرفة، وعدنا إلى العمل.

في القسم، أمضيتُ وهلا بقية النهار نتبادل نظرات ملأى بالرغبة الناقصة التي لم يتسنَّ لنا إشباعها.

كان ذلك الوقت الذي لم يتعدَّ الساعة، كافيًا لأن ينقلني وينقلها من ضفّة إلى ضفّة. فصرنا نلتقي على انفراد. يقبّل أحدنا الآخر كأنّ لن يكون هنالك لقاء ثانٍ. تكرّرت قبلاتنا المسروقة، في القسم عندما يخلو لنا الجو ثوانيَ معدودة. في المصعد الذي كنّا نهبط به ونصعد مرارًا ما دمنا وحدنا. على الدرج المفضي إلى الكافتيريا.

كنت كلّما قبّلتها وعدت إلى البرّاد، تفاديت النظر في عينَي الأخت كريستين لئلاّ ترى في عينيَّ ما لا أريد أن تعرفه.

مكتبة الفكر الجديد

لم تدعُني لهلا إلى بيتها. في أحاديثنا خلال الغداء، مرّرتْ رسائل كثيرة أفهمتني فيها أنّ بيتها لم يدخله رجل منذ اختفاء زوجها. حتّى إخوته. ولطالما ذكرت أنّ لجاراتها ألسنة أين منها ألسنة الأفاعي، وأن ابنها واعٍ ولن يكون مسرورًا إذا رأى رجلاً غريبًا مع أمّه في البيت.

وأنا لم آتِ على ذكر بيتها مع أنّي تمنّيت أن تدعوني إلى فنجان قهوة، دعوة بريئة تخفي وراءها ما تخفي. فلقاءاتنا السريعة في المستشفى باتت مُعذّبة لكلينا. وليس هنالك من مكان نطفىء فيه رغباتنا المشتعلة.

لو أنّ الغرفة التي أنام فيها آمنة، لدعوتها إليها على رغم أنّي متيقن من أنها لن تقبل. كنت حاولت إقناعها بالدعوة بعد إعدادي خطّة مُحكمة. فالغرفة خالية معظم النهار. المشكلة هي في الوصول إليها، إذ ينبغي المرور بعدد من الغرف التي كثيرًا ما تبقى أبواب بعضها مفتوحة. وهي مخصصة لأطبّاء متمرّنين، يستريحون فيها بين مناوبة ومناوبة، وبين عمليّة وعمليّة. وهؤلاء غير ثابتين، يداومون ستة أشهر، ثم يغادرون ويجيء فوج آخر. لذلك ما إن تتوطد علاقتي بغالبيّتهم حتّى تنتهي مدّة التمرين، ويرحلون. كان ممكنًا تحت ستار الصداقة، أن أطلب من الذين يتّفق وجودهم في الغرف إغلاق الأبواب ريثما ينقضي الأمر. لكن الواقع، ويا للأسف، ليس كذلك. لا أستطيع أن أطلب إلى شخص ليس بيني وبينه سوى تحيّتي المساء والصباح، أن يغلق باب الغرفة.

لستُ متأكدًا أنّها قد تأتي وإنْ افترضتُ أن الوصول إلى الغرفة سهل. فهي حذرة. تخاف على سمعتها خصوصًا أن الجميع، هنا، يعرفونها ويحترمونها. وحذرها يبلغ حدّ السرساب. فالقبلة التي نتبادلها

مكتبة الفكر الجديد

خلسة كثيرًا ما تقطعها وتذهب مسرعة، وتتركني واقفًا مذهولاً من ردّ فعلها غير المنطقي، خصوصًا عندما تكون الفرصة سانحة. اعتدت سلوكها هذا، وصرتُ إذا تصرّفتْ خلافًا له أستغرب، وأسأل نفسي ما الذي دفعها إلى تغييره. كنتُ أردّ التغيير إلى الشوق الذي لا يمكنها ترجمته إلاّ بالقبلة.

بقينا على هذه الحال، قُبل مختلسة هنا وهنالك، إلى أنّ أشفق بو موسى عليّ وأعارني سيارته الفولسفاكن ليلة واحدة. وعدته بأنّي سأطلب إلى المرأة التي أخرج معها أن تصحب في المرّة المقبلة صديقتها، كي يتعرّف هو إليها. لم أخبره بأنّي على علاقة بنهلا، وبأنّها هي تلك المرأة التي أستعير سيّارته من أجلها. إنّه يعرفها جيّدًا. ولستُ ضامنًا أنّه لن يفشي السرّ إذا بحت له به. ثم لستُ من الذين يفاخرون بمغامراتهم النسائيّة، والتي غالبًا تكون من وحي الخيال.

فرحت نهلا عندما عرفتْ بأمر السيّارة. اتفقنا على المكان والزمان والتقينا بعد ثلاث ساعات من دوام العمل. قدتُ بها السيّارة، وكان المطر تلك الليلة يهطل خفيفًا. قالت إنّها تكره الشتاء. لكنّها تحبّ التنزّه بالسيّارة حين يكون الجو ماطرًا، وتبادل القبلات تحت المظلّة. وتمنّت لو أنّ في السيّارة مسجّلة لنسمع معًا شريط كاسيت يتضمن أغاني لفيروز. وفتحت جزدانها وأعطتني الشريط كي أستمع إليه وحدي وأتذكّرها.

عندما وصلنا إلى الموقع الذي دلّني عليه بو موسى، وهو يجاور منتجعًا مشهورًا، ركنتُ السيّارة على رابية قريبة من البحر. كان صوت الموج مسموعًا، والزبد الذي يفترشُ الشطّ يلمع في العتمة. ولو لم تنشر لمبة عمود الكهرباء البعيد بقايا ضوئها علينا، لما رأى

مكتبة الفكر الجديد

أحدنا وجه الآخر. أحببت هذا المكان لأنّ الطريق إليه غير نافذ، ولا يعبره إلا الذي يقصد المتنجع.

سررتُ لمّا رأيتها مطمئنة. وكرّرتْ ما سمعته منها وقد حفظتُه. قالت إنّي أوّل رجل تقيم به علاقة منذ زواجها، وإنّ هذه أوّل مرّة تحبّ رجلاً يصغرها بثلاث سنوات. وحلفت بابنها أنّها لو لم تكن تحبّني وتثق بي ثقة عمياء لما قبلت الخروج رفقتي ليلاً. وقالت إنّ ما جرى ويجري بيننا لا تعدّه خيانة، لأنّه وليد الحبّ لا الجوع الجسدي. وأخبرتني أنّ قلبها ينبئُها بأنّ زوجها ليس مفقودًا، وبأنّه لن يعود.

وقالت إنها لا تعرف أحدًا اختفى سنتين في الحرب وعاد. وبكت. وضعتْ رأسها بين يديها محاولةً كتم بكائها، وحنت حتّى لامس وجهها ركبتيها.

تركتها تبكي لربّما كانت في حاجة إلى هذا البوح كي تستريح.

ثم عدلت في قعدتها وخلعت الجاكيت ورمتها إلى المقعد الخلفي.

ودنت نحوي فغمرتها.

عندما هدأت، رحتُ أقبّل عنقها قبلات ناعمة، فاسترخت وشدّتني صوبها، ثم أرجعت رأسها، وقبّلتني كما لم تقبّلني من قبل. أولجتْ لسانها في فمي، فأخذتُه، ثم أولجتُ لساني في فمها، فأخذتْه. استعذبتُ ذلك وعاودتُ الكرّة، فاستجابتْ.

فيما كنت أقبّلها، تسللتْ يدي من تحت الكنزة الرقيقة، وأبحرتْ في رحاب كتفيها وأعلى ظهرها. ثم عثرتْ على فتحة السوتيان. وقد عالجتُها ببعض الصعوبة حتّى فُكّت الربطتان.

مكتبة الفكر الجديد

لم يصدر عنها أيّ موقف. قلت في نفسي ربّما لم تشعر بأنّي فككتُ رباط مشدّ النهدين. خشيتُ أن ترفض فتظنّ أنّي استدرجتها إلى هذا المكان من أجل هذه الغاية فقط.

لم يكن ظنّي في محلّه.

بدت متجاوبة حتّى إنّها لم تحرّر شفتيّ من فمها إلاّ لتسترجعهما. وحين حرّرتا مجدّدًا انحدرتُ على الفور صوب نهديها اللذين بدَوَا من تحت البلوزة جميلين. كانت السوتيان لا تزال عالقة بهما، فأخرجتها، وأخذتُ أتشمّمها مغمّضَ العينين وأتنشّقّ الرحيق في الموقعين المكوّرين حيث يبيت النهدان.

تأمّلتُ نهديها بعدما باتا في متناولي. كانا مشدودين وصلبين برغم كبرهما.

مرّغت وجهي بهما. قبّلتهما. لهوتُ بهما. مصصتُ حلمتيهما. عضضتُهما بشفتيّ. وجدتُ صدرها مثلما تخيّلته قبل أن أراه. لا أنكر أنّي كنت رأيت قسمًا منه من دون أن تدري هي، ومن دون أن تتعمّد كشفه بغية إغوائي. فكثيرًا ما اضطرّتْ إلى الانحناء، خلال العمل، لرفع مريض، أو لالتقاط شيء من الأرض، فيظهر جانبٌ من صدرها. وكنت كلّما احتجت إلى الرفقة لدى طيراني السرّي تذكّرتُ مشهد نهديها في القسم.

عاونتها على خلع بنطلونها الجينز. ثم ترجلّتُ وانتقلتُ إلى الجهة الأخرى. فتحتُ الباب، وأرجعتُ مقعدها إلى الوراء، فاسترختْ هي عليه، ورسوتُ فوقها بعدما تخلّصتُ من بنطلوني الجينز أيضًا. وراحت السيّارة الصغيرة تهتزّ بنا. وهُيّىء لي، للحظات، ونحن في عزّ حراكنا العاصف، أن المكابح حُلّت من فرط

مكتبة الفكر الجديد

الاهتزاز، وهوت السيّارة بنا إلى الشاطىء ثم إلى البحر.

بينما كنّا نترجّح على إيقاع جسدينا، راح المطر ينقر سطح السيّارة وزجاجها مولّدًا لحنًا لطالما تمنّيت أن أسمعه، وأنا مع امرأة، وفي موقف كهذا الموقف. لكنّي الآن لم أنتبه إلى ذلك اللحن إلاّ عندما هممنا بارتداء ثيابنا.

لهاثنا الذي كسا الزجاج منعنا من رؤية ما حولنا. فبتنا كأننا مقيمان داخل سحابة. سجينان لم تعنِ لهما الحرية سوى البقاء في قفص الضباب الذي نسجاه بأنفاسهما وأخبارهما وتأوّهاتهما. بإصبعها كتبت على بقايا لهاثنا "بحبّك" ورسمت قلبًا مطعونًا بنبلة. ثم تحت الكلمة والرسمة وقّعت اسمها، وارتمت عليّ وعانقتني.

لدى العودة، أسندت رأسها إلى كتفي طوال الطريق. وبقيت يدها في يدي إلى أنّ وصلنا إلى مقربة من مكان سكنها. نزلت في الشارع الموازي للشارع الذي يقع فيه بيتها خشية أن يراها أحد من الجيران تترجّل من سيّارة غريبة في منتصف الليل. ومن باب الحرص كذلك، لم تشأ وهي تنزل أن تقبّلني. إنما اكتفت بتقبيل رأس إصبعها، إصبعها نفسها التي كتبت بها "بحبّك" على الضبابة، وأدنته إلى فمي فقبّلته.

انتظرتُ حتّى توارت في عتمة الزاروب. ورجعتُ إلى المستشفى.

مكتبة الفكر الجديد

31

عالم المستشفى عالم قائم بذاته.

هذا ما اكتشفته بعدما عشتُ فيه. كانت نظرتي إليه من الخارج مختلفة تمامًا عن نظرتي إليه من الداخل.

لمّا سمعت الأخت كريستين تصف المستشفى بالكباريه، استغربتُ.

فوجئتُ براهبة تقارن مكانًا ذا طابع صحّي وإنسانيّ كالمستشفى بمكان ذي طابع تجاريّ وماجن كالكباريه. وسألتُ نفسي كيف تعقد مقارنة كهذه، وهي لم تجتز عتبة كباريه، ولا تعرف كواليس لياليها. وأجبت نفسي أيضًا ربّما روبير الذي اشتغل بعض الوقت في إحدى الكباريهات، أخبرها عن تلك الكواليس. أو ربّما استمدّت معلوماتها من الأفلام والروايات.

لم أفهم وقتذاك لماذا أطلقتْ هذا الوصف الذي أرفقتْ به ذات مرّة انطباعًا ارتدّ إلى رأسي في مناسبات عدّة. قالت إنّ المستشفى، كالكباريه، يزوره الغني والفقير، الأزعر والآدميّ، الملحد والمؤمن، السارق والذي يأكل رغيفه بعرق جبينه، الطاهرة والعاهرة... وقالت إنّك مضطرّ إلى مسايرة الجميع وتحمّل ثقل دمهم ورائحة أبدانهم وغباوة بعضهم، وإنّ عليك مع ذلك الابتسام والصبر.

مكتبة الفكر الجديد

لا أعرف شيئًا عن الكباريهات. مرّة واحدة ذهبت مع غيفـــارا وحنكليس وشرنّو إلى كباريه "Weeds". والتقينا دومينو الذي دبّ على الأربعة في الـــ "بيست" وتناوبت الفتيات على امتطائه. ليلة لا تُنسى. لذا لا يمكنني الزعم أنّي زبون بارات وخبير كباريهات. روبير أخبرني عن عمله في كباريه Étoile de l'aube. فتكوّنت لديّ فكرة عن تلك الأمكنة.

كما لا شيء يبقى مستورًا في الكباريه فكذلك في المستشـــفى. كأنّ للحيطان آذانًا وعيونًا أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. وطالما أشيعت أخبار وحكايات تحار وأنت تصغي إليها هل حـــدثت فعلاً أم ابتكرتها مخيّلة لا تقتات إلاّ من النميمة وهتك الأعراض.

كلّ صباح تنتشر أخبار جديدة. والصباح الذي لا يحمل خـــبرًا طازجًا، يعاودُ إحياء الأخبار البائتة.

الممرّضة الفلانيّة تتسلّل إلى عيادة طبيب القلب، حالمـــا تجـــد الفرصة مؤاتية. وتخرج من العيادة بعد ربع ســـاعة، والبهجـــة تمـــلأُ وجهها. ويعود الدكتور إلى العمل، كأن شيئًا لم يكن.

والممرّضة المسؤولة عن قسم الأشعة، غرّرتْ بمريض وسيم لدى تهيئته لجلسة التصوير، فأذعن الرجل لمداعباتها. وكانت زميلاتها على السمع في الغرفة الملاصقة.

وطبيب البنج الذي يبدو قدّيسًا، ضُبط في التواليت مع عامـــل التنظيفات. قالوا إنّ العامل هو الفاعل، والطبيب هو المفعـــول بـــه. بقيتُ متشككًا في الخبر إلى أنّ بدأ الطبيب يتحرّش بـــي. أفهمته أنّي أحبّ النســاء. وكي لا يعاود عرضه عليّ، قلت له إنّي أقبل العلاقـــة معه شرط أن أنام مع زوجته أيضًا.

مكتبة الفكر الجديد

والعامل ليلاً على السنترال، كان يتنصّت على المكالمات، ويبتزّ المريضات المتزوّجات اللواتي يقمن علاقات سريّة. بعضهن خضعن لابتزازه. وأتى اليوم الذي علق فيه بين يديّ امرأة عرفت كيف تنتقم منه. لبث أسبوعًا طريح الفراش بعدما أرسل زوجها أو عشيقها من أدّبه بضربات عصا غليظة في مرأب المستشفى.

ومرارًا قُبض آخر الليل على ممرّض في سرير مريضة، أو ممرّضة بين فخذَي مريض ليس لداعٍ صحّي إنما لأنّ الليل طويل وشاءت أن تبهجه وتبهج نفسها.

حتّى الراهبات لم يسلمن من سُمّ الألسنة.

الأخت فونتين شوهدت تضع يدها على مؤخّرة الطبيب المتمرّن ألفونس. قبل ألفونس كانت مؤخّرة ودبع محطّ يد الراهبة في ذهابه وإيابه. يطلقون عليها راهبة المؤخّرات الجميلة.

والأخت فابيولاّ التي ناهز عمرها الخمسين تميل إلى الشبّان. كلّما التقت أحدًا منهم قرصت خدّه وداعبت وجنتيه براحة يدها. وللحال يصطبغ خدّاها المنفوخان بالحمرة. ويلمع شيء غريب في عينيها. سمّوها "شفيعة الصبيان".

أمّا الأخت كريستين فكانت أكثر أخواتها عرضة للأقاويل، لأنّها أجملهن، لا بل أجمل من جميع الممرّضات وسائر الموظّفات. قالوا إنّ المطران متيّم بها، وهو لا يرفض لها طلبًا. وقالوا إنّها تحبّ سماع النكات الخليعة. (هذا صحيح. ولي أدلّة عليه). وقالوا إنّها معقّدة من جنس الرجال إذ لا يُعقل أن تترهّب صبيّة بجمالها لو لم تعش قصّة حبّ خائبة. وقالوا إنّ كرهها للرجال قلب شهوتها حتّى صارت ميّالة إلى النساء. (هذا عارٍ من الصحّة. ولديّ أدلّة أيضًا).

مكتبة الفكر الجديد

وتحدّثوا عن بخلها الشديد. قالوا إنّها لا ترمي شيئًا يمكن الاستفادة منه. ففي علبة البسكويت الفارغة تضع أدوات الخياطة. وتحتفظ بقناني الزيت بعد نفاد محتواها وترسلها إلى أمّها فتملأها هذه ماء ورد أو ماء زهر أو خلاً، أو أيّ مشروب من المشروبات التي تعدّها في الضيعة. وتبقي بجامع الحلاوة لتضع فيها بقايا الطعام. وقالوا إنّها في صغرها لطالما لحست غطاء الـ "آيس كريم"، كأنّ ذلك في عداد التعليمات "يُرجى لحس الغطاء".

أقاويل ساخرة وحارقة لم ينجُ منها أحدٌ حتّى الذين يفبركونها.

لا أعرف ما يُحكى عني في الخفاء.

هل رأتني عيون الحيطان أنظر إلى الراهبة بعين عطشى جائعة، وأتأمّلها وهي تمشي إلى أن تتوارى.

لحسن الحظّ أنّ تلك العيون غير قادرة على رؤية رغبات القلوب ومخبآت الصدور.

مرارًا تساءلتُ أنا ونهلا هل يعرف أحدٌ قصّتنا. هل يعرفونها ولا يتداولونها إلاّ في غيابنا. هل الراهبة على علم بها وتكتم السرّ لأنّها تكنّ لنهلا ودًّا واحترامًا، ولي شيئًا من العطف.

وطالما تمنّينا لو أنّ أحدًا من القسم يخبرني أو يخبر نهلا ما يلوكه الآخرون عنّا. كنّا نتحرّق إلى معرفة هل بقيت قبلاتنا الخاطفة بمنأى عن العيون والألسنة. صحيح أنّنا كنّا نتغدّى معًا في غالبيّة الأيّام. لكنّ قلّما جلسنا وحدنا إلى الطاولة في الكافيتريا. دومًا كان هنالك شريكات وشركاء في الجلسة. فالطاولات قليلة والموظّفون كثر والاستراحة قصيرة. وفنجان القهوة الذي تصبّه لي في لقاء الصباح،

مكتبة الفكر الجديد

وتحمله إليّ ليس دليلاً على أنّ ثمّة علاقة تجمعنا. فهي أحيانًا تصبّ القهوة في فناجين الآخرين، وتحملها أيضًا إليهم.

أعترف أنّ الأقاويل استهوتني، ولا سيّما تلك التي تليها تتمّات. تمامًا كالمسلسل التلفزيوني، ننتظر الحلقة المقبلة لنتابع القصّة. كانت تسليتنا شبه الوحيدة في غمرة أوجاع الناس ومتاعب العمل.

هنالك حكايات بلا نهاية. بعضها يبعث على الملل لغياب الإثارة. وبعضها يشدّ بك إلى السؤال عن آخر فصولها.

وهنالك أخبار فظيعة عن أطبّاء يسترون سواد قلوبهم ببياض الرداء الذي يلبسونه. وددتُ لو أنّي لم أسمعها كي لا أُسقط الهالة التي لطالما نسجتها للطبيب. كنت أعدّه نصف إله. فهو الذي ينقذك من الموت متى استبدّ بك المرض، ويخفف ألمك، ويرعاك حتى تشفى.

لم أصدّق أنّ طبيبًا يجري جراحة لمريض، ليس لأنها ملحّة، بل لغاية تجارية بحت، المستفيد منها هو والمستشفى. أمثال هذا الطبيب كثر، يوهمون مرضى بأنّ حالهم الصحيّة تستدعي الجراحة، فيدخل هؤلاء المستشفى. وفيهم أشخاص استدانوا أو باعوا قطعة أرض أو رهنوا حلى زوجهاتهم أو أمّهاتهم لتأمين تكلفة العمليّة. أطبّاء يتّجرون بآلام الفقراء مستغلّين جهلهم في أمور الطبّ وثقتهم المطلقة بهم، ليقودوا هم أفخم السيارات، ويقيموا في أجمل البيوت، ويعلّموا أولادهم في أعرق المدارس. ينبغي، لدى اكتشاف جرائمهم، شنقهم من أقدامهم على مداخل المستشفيات، ثم رمي جثثهم إلى الكلاب.

كنت أظنّ أنّ السمسرة محصورة ببعض مجالات التجارة وقطاع العقارات. فوجئت بأنّها منتشرة أيضًا بين الأطبّاء. فإذا أرسل طبيب إلى زميل له مريضةً، نوع مرضها لا يدخل في إطار اختصاصه،

مكتبة الفكر الجديد

طالب بحصّته. وطبيب يبيع إلى مرضاه بنصف السعر الأدوية التي يتلقّاها بالمجان من شركات العقاقير على سبيل الدعاية. وطبيب يرشو عامل السنترال وممرّضين وممرّضات كي يدلّوا المرضى عليه لا على الطبيب المنافس.

في المقابل، هنالك أطباء عمّال خير. عندهم الطبّ رسالة وليس مهنة. وهم، ويا للأسف، قلّة.

خلال عملي في قسم العمليّات، عرفتُ غالبيّة أطباء المستشفى. بمرور الوقت، أصبحت أميّز الطبيب الماهر من الطبيب الذي يرتجف خوفًا متى حصل أمرٌ غير متوقّع خلال الجراحة. أمرٌ يشبه الخطأ، أو يتخطّى مداركه العلميّة. كان الطبيب حين يرتكب غلطةً، يرتبك، ويربك الطاقم الذي يساعده. كنت اكتشف، أنا الموظّف الجديد، وقوع الخطأ عندما يروح طبيب البنج الرابض خلف رأس المريض، يتبادل والطبيب المتمرّن المساعد، والممرّضة المعاوِنة، نظرات يخالطها القلق والاضطراب. كانت نظراتهم هذه تخيفني، فاستنتجُ منها أنّ المريض ذاهب لا محالة إلى البرّاد. هذا إذا لم تتدخّل العناية الإلهية، وتنقذه بأعجوبة.

كثيرًا ما رأيت مرضى يدخلون قسم العمليّات أحياءً، ويغادرونه جثثًا.

في البرّاد، كنت أعامل جثث هؤلاء معاملة خاصّة لأنّي رأيت أصحاها وحادثتهم لدى تهيئتهم للعمليّة.

في مكان كقسم العمليّات، يصبح الموتُ أحدَ طقوسه. يخلّف حزنًا عابرًا يتلاشى فور خروج الجثّة من القسم.

عالم قاسٍ هو عالم المستشفيات.

مكتبة الفكر الجديد

32

مرّ أسبوعان مرهِقان جدًّا. شغل متواصل في غرفة العمليات ليلاً وفي البرّاد نهارًا.

التعبُ يهدّني وأشعر أنّي غير قادر على حمل جسمي. إذا تسنّى لي الجلوس بعض الوقت، تعذّر عليّ الوقوف إلاّ بعد جهد.

الأنكى أنّك لا تسمع إلاّ أوامر وكلمات تدلّ على أنك مقصّر. العبارات التي تعزّي العامل وتطيّب خاطره، محذوفة من التداول.

ممنوع أن تتذمّر أو أن ترفع صوتك وإن أُرغمت على الشغل ساعات إضافية خارج الدوام.

كنت أتأهّب للصعود إلى المطعم كي أتغدّى قبل إغلاقه للتنظيف تمام الرابعة، عندما نادتني الراهبة. وعلى الفور عرفتُ ما ينتظرني. مناداتها لي ولسواي في أثناء الدوام تختلف عن مناداتها بعد انتهائه. في الأولى نبرة آمرة، أمّا في الثانية فشيء من اللطف والتودّد.

لم أسألها ما تريد بعدما رأيت عددًا من العمّال والممرضين يتّجهون إلى المخزن.

كانت هناك شاحنة مملوءة أدوية ومواد طبيّة. قالوا إنّها هبة من جمعيّة خيريّة في ألمانيا الغربيّة. هذه الشاحنة ليست الأولى. سبقتها شاحنات من جمعيّات أخرى نقلنا حمولتها إلى المكان نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

استغرق إفراغ الشاحنة ثلاث ساعات. وقفنا، وعَدَدُنا عشرون، صفًّا من الشاحنة إلى داخل المخزن، بين الواحد والآخر قرابة المتر. كانت الكرتونة تنتقل من الأول إلى الثاني إلى الثالث إلى... العشرين انتقالاً سريعًا في بدء إنزال الحمولة ثم تبطؤ الحركة بعدما يحلّ التعب وتتراخى السواعد.

امتلأ المخزن.

صناديق تضاف إلى صناديق أصبحت مأوى للجرذان والفئران.

أكيد أن بعضها بات غير صالح للاستعمال. لا تشي بذلك الرائحة فقط بل الكرتونات المرصوفة في الزوايا، والتي يستحيل الوصول إليها بيسر. وهي من مخلّفات الهبات التي تتدفّق على الجمعيّات والمستشفيات. فلم يستفد منها المنكوبون والمهجّرون، وهي في الأصل، مُرسلة إليهم.

لست أدري لماذا يحتفظ المستشفى بجميع هذه الأدوية التي تفوق حاجته.

لم أسأل أحدًا لئلاّ يصل السؤال إلى آذان المسؤولين ويزعجهم. فأصبح في عداد المغضوب عليهم. هنا، في المستشفى تمامًا كما في الثكنة، من الحكمة ألاّ تسأل إلاّ إذا كان السؤال يتعلّق مباشرةً بعملك.

لكنّ ثمّة سؤالاً لم يفارقني وقد غيّر نظرتي إلى كثير من الأمور، هو لماذا يقبض المستشفى من المرضى ثمن الدواء المُتبرّع به. ولا يستثني من الدفع جرحى القصف والمعارك والفقراء.

رأيت جرحى، وهم غير منتمين إلى أيّ من الأحزاب، ينزفون ساعات على مدخل قسم الطوارىء ولا يجدون طبيبًا معالجًا، لأنّ

مكتبة الفكر الجديد

المستشفى رفض استقبالهم زاعمًا أنّ ليس لديه أسرَّة فارغة. ومنهم من قضى في الطريق وهو يبحث عن مكان له في مستشفى آخر.

لا أستطيع ذكر الحالات الصعبة التي عاينتها. وهي كثيرة تقطّع القلب.

أمّ في الأربعين من العمر مُصابة بشظيّة في الصدر، تموت على وقع بكاء أطفالها الثلاثة لأنّها لا تملك حقّ الاستشفاء.

عامل مصريّ يرقص بيده نصف المبتورة، طالباً من وسط الباحة الخارجيّة للمستشفى، طبيبًا يريحه من الوجع. عجوز متشرّد بقي على مدخل الطوارىء طوال اليوم إلى أن فارق الحياة.

مشاهد مؤثّرة لم توقظ الرحمة في القلوب.

المنتمون إلى الأحزاب، وأقرباؤهم حتّى الدرجة العاشرة، يجدون الأبواب مشرّعة، وينعمون بخدمة ورعاية سخيّتين. ولا صيحة احتجاج تصدر عن أحد لدى دخول زوّارهم وخروجهم بجزماتهم الموحلة وأسلحتهم وفوضاهم. الإدارة، كبيرها وصغيرها، تسترضيهم بالابتسامات والتحيّات.

ولطالما أفرغنا من الصناديق أدويةً تحمل دمغة تدلّ على أنّها هبة. وكنّا، بناء على أمر الإدارة، وفي إشراف إحدى الراهبات، ننزع الدمغة. كانت الأخت كريستين تكرّر أن للمستشفى دَيْنًا كبيرًا في ذمّة الدولة، وأن مردود بيع الهبات يسدّ العجز ويؤمّن قسمًا من رواتب الموظّفين.

المستشفيات وحدها المستفيدة من الحرب. أثرى أصحابها ومع ذلك هم دائمو التشكّي وبسط يد الشحاذة. مبدأهم "النقّ سياج النعمة".

مكتبة الفكر الجديد

كان قسم الطوارىء يستهلك جزءًا من هذه الهبات. ويقبض ثمن العلاج نقدًا من المريض الذي غالبًا لا يستغرق علاجه دقائق معدودة (تجبير يد أو قدم، حروق من الفئة الثالثة وما دون، شكّ إبرة كزاز إثر عضّة كلب...)، فيدفع ويمضي.

كانت الأخت كريستين تتولّى شخصيًّا قبض المال، وتضعه في دِرج الطاولة الصغيرة التي تكتب عليها الإيصالات وهي محنية.

ما تفعله الراهبة سرقة موصوفة. لا تفسير آخر لبيع التبرّعات التي تصدّق بها أوروبيّون وعرب، على أمل أن توزّع مجّانًا على فقراء هذا البلد المنكوب.

كان الموظّفون عارفين كلّ ما يجري، ومشاركين فيه من حيث يدرون أو لا يدرون. لكنّهم لا يستطيعون الاحتجاج الذي، إن حصل، قد يؤدي إلى الاستغناء عن خدماتهم. لم يكن أحدٌ منهم راضيًا عن راتبه. فوجئت لمّا علمت أن هنالك موظّفين يقبضون أكثر من الحدّ الأدنى بقليل برغم أنّهم أمضوا في العمل ما يفوق العشرة أعوام.

أنا أيضًا أشعر أنّي مغبون. الراتب الذي أتقاضاه، مع أنّي موظّف جديد، لا يعادل الجهد الذي أبذله.

لا أحد سواي في المستشفى يشتغل في مكانين: البرّاد وقسم العمليّات.

ولا أحد مثلي يداوم في النهار والليل.

يصل بي الإحساس بالإجحاف إلى حافّة الكفر، كلّما رأيت الراهبة تلعب بالمال وهي تحسب غلّة اليوم، ونحن العمّال الكادحين،

مكتبة الفكر الجديد

نحرم أنفسنا من الثياب والأكل، ولا يعفينا الحرمان من أن يقتـــرض بعضنا من بعض، أو من طلب سلفة على الراتب.

العدل ليس موجودًا في هذه الحياة.

مكتبة الفكر الجديد

33

كلّما انتابني الشعور بالغبن رحت أبحث له عن أعذار مخفّفة كي تقلّ وطأته عليّ.

لكنّي أحيانًا، كنت أحتقر نفسي بعد التعب وسماع كلمات التأنيب بدل التقدير. وفي ساعة صفاء، وضعتُ خطّة للتغلّب على الغبن واستعادة الاعتبار.

هذه الخطّة، على غرار كلّ خطّة، كانت تنتظر الساعة الصفر لبدء التنفيذ.

دنت تلك الساعة عندما نسيت الراهبة علاّقة المفاتيح على الطاولة وذهبت مُسرعة بعد سماعها صراخًا في الغرفة المجاورة.

كنتُ في المرصاد وانتهزتُ الفرصة التي طالما انتظرتها.

حملتُ العلاّقة ولحقت بها كي أعطيها إيّاها. وبحركة لا يتقنها سوى لاعبي الخفّة المحترفين، طبعتُ مفتاح الجارور (الأخت كريستين تسمّيه الدِرْج) على معجونة كنت أحتفظ بها لهذه الغاية في علبة الكبريت. ثم أعدتُ العلاّقة إلى الطاولة و لم أسلمها إلى الراهبة. ولحسن الحظّ أنّ أحدًا لم ينتبه لي. أو هكذا خمّنتُ.

الصراخ أمّن الجوّ المناسب. واستغللتُه. الفرصة لا تأتي مرّتين. المعجونة في جيبي منذ قرابة الأسبوعين و لم أستطع خلالهما نسخ

مكتبة الفكر الجديد

المفتاح. حرصتُ على أن تبقى العلبة سليمة. كنت أخبئُها تحت إحدى الجثث. آخذها عندما يحين وقت صعودي إلى الغرفة.

لّما انتهى دوامي، أبدلت ثيابي وانطلقت إلى محلّ لصبّ المفاتيح يقع في منطقة بعيدة من المستشفى. علمًا أن هنالك محلاً مثله في الجوار.

في مثل هذه الأمور، يجب الاحتراز.

ما من أحد يعرف ما تخفيه الأيّام.

ربّما لاحظت الراهبة أنّ المال ينقص في الجارور، وشكّت في أنّ يدًا غريبة امتدّت إليه مستخدمةً المفتاح لا بالخلع والكسر. عندئذ من الممكن أن ترسل المفتاح الأصليّ مع ممرّض تثق به إلى المحلّ المجاور ليسأل صاحبه هل صبّ أحدٌ عنده مفتاحًا مثل هذا المفتاح. وإذا ردّ الرجل بالإيجاب فستنهال عليه الأسئلة:

هل تتذكّر أوصاف هذا الذي صببتَ له المفتاح؟

متى زارك؟

أتعرفه إذا رأيته؟

قبل أن أتبنّى فكرة صبّ المفتاح، لطالما رأيت الجارور ملآنَ أوراقًا نقدية من جميع الفئات، بعضها تتسرّب أطرافه إلى خارجه. وقَدرتُ مراتٍ على جذب طرف الورقة بإصبعَيّ مستفيدًا من طول ظفريهما. كنت أطويها فور خروجها من الجارور وأطبق عليها يدي أو أضعها في جيب المريول. ومرّات عندما كانت الغرفة، حيث الطاولة، خالية من الممرضين، حاولت جرّ الجارور إلى الوراء، فربّما نسيت الراهبة إغلاقه.

في المحلّ، كان شخص واحد يجلس إلى طاولة عتيقة. لم أعرف أهو صاحبه أم العامل. أعطيته المعجونة، وطلبتُ إليه صبّ مفتاحين.

مكتبة الفكر الجديد

حين تأمّلَ العلبة خشيتُ أن يصدر عنه استفسار غير مطمـــئن. لأنّ كثيرًا من السارقين يلجأون إلى هذه الطريقة. لكنّه نظر إليّ واكتفـــى بذكر التكلفة. لم أساوم خلافًا لعادتي. دفعتُها، وادّعيــت أنّ لـــديّ عملاً أنجزه. قبل أن أنصرف، سألته متى أرجع لأخـــذ المفتـــاحين.

"ساعة مش أكتر"، قال وهو يقابل المعجونة بواجهة المفـــاتيح وراءه كي ينتقي المفتاح المناسب لينشىء فيه أخاديد شبيهة بأخاديد مفتاح المعجونة.

شئتُ صبّ مفتاحين لسببين. فإن أضعتُ واحدًا أستعمل الثاني. من الممكن ألاّ تُسنح الفرصة مرّة أخرى، فتنســى الراهبــة علاّقــة المفاتيح وأعاودُ طبع المفتاح على المعجونة.

أمّا السبب الثاني فهو احتمال أن لا تطابق أخاديـــدُ المفتـــاح أخاديدَ قفل الجارور فأضطرّ إلى بَرْدِها قليلاً أو كثيرًا.

وليس مستبعدًا أن أسيء البَرْد، فأشوّه أخدودًا، فيصبح المفتاح بلا فائدة. عندئذ أبردُ المفتاح الثاني مستفيدًا من تجربتي مع المفتاح الأوّل.

تجنّبتُ الانتظار في المحلّ كي لا يحفظ الرجل قسمات وجهـــي ويلاحظ لكنتي إذ لا يُعقل أن أبقى صامتًا. فإن لم أفتح أنا الحـــديث فقد يفتحه هو. واللياقة تقتضي بأن أسايره وأبادله الكلام. فـــالعودة بعد ساعة حلّ جيّد. فقد ينسى وجهي إذا رآني لحظات قليلة. ويُطبع في ذهنه إذا لبثت عنده مدى ساعة.

هذا أيضًا من باب الحيطة. فقد يُسأل هو كذلك في حال رفـــع دعوى على مجهول بعد اكتشاف الطريقة التي حصلت بها السرقة.

رجعتُ بعد عشر دقائق مـــن الموعـــد. أخـــذتُ المفتـــاحين وعدتُ سيرًا.

مكتبة الفكر الجديد

أحبّ المشي في المساء بعد نهار قضيته واقفًا.

فيما كنت أمشي تخيّلتني أراقب الغرفة حيث الجارور وفي اللحظة المؤاتية، أسرع إليه ممسكًا بالمفتاح، محاولاً فتحه.

شعرتُ برجفة الخوف تضرب جسمي كلّه مع أنّي ما زلت على مسرح الخيال. فماذا سيحصل لي عندما أنتقل إلى مسرح الواقع؟

تراءت لي سيناريوات مختلفة.

الأول، فُتِحَ الجارور بسهولة. دار المفتاح في القفل دوران المفتاح الأصليّ. استللتُ بعض الورقات النقديّة. (لا لزوم للطمع كي لا يُفتضح الأمر، فتلحظ الراهبة أن المال نقص. بهذه الطريقة، تدوم الخطّة والنعمة في الوقت عينه). أنسحب من الغرفة على جناح الخفّة، وأتّجه فورًا إلى البرّاد. أخفي المال تحت مؤخّرة إحدى الجثث. أو في جيب جثّة لم تُنظّف بعد. ثم آخذه لدى انتهاء العمل وأصعد به إلى الغرفة، وأضعه في الكيس الذي أرمي فيه كلساتي المتّسخة. فأضمن أنّ أحدًا لن يقدم على الدنوّ منه للرائحة الكريهة المنبعثة.

والثاني، لم يُفتح الجارور. أدخلتُ المفتاح وأدرته يمينًا وشمالاً وما أكمل الدورة. فخرجتُ من الغرفة مصطنعًا هيئة اللامبالي الذي يدندن أغنية ليوحي أنّه مُحاط بسرب من الملائكة. وأروح أفكّر في أي من الأخاديد عرقل فتح الجارور كي أبرده قليلاً، ثم أعاود التجربة.

والثالث، أسمع، وأنا على وشك فتح الجارور، صرير مفاتيح أو وقع خطوات أو سعلة خفيفة، فأتوارى.

والرابع، كاد يدفعني إلى التخلّي عن المحاولة. لكنّني لم أعره أهميّة. واستبعدتُ حصوله ما دمتُ متنبّهًا ودارسًا كل خطوة.

مكتبة الفكر الجديد

حين وصلت إلى المستشفى، دهمني إحساس مخيف.

أحسستُ أنّ جميع العاملين في قسم الطوارىء يرون المفتــــاحَيْن في جيبــــي، ويعرفون نيّتي المبيّتة، وما أنوي فعله.

مررتُ بينهم مرور المحكوم بالإعدام نحو منصّة الشنق.

مكتبة الفكر الجديد

34

البرّاد مزراب ذهب.

كلمات همس لي بها شخص ادّعى أنّه عمل بضع سنوات في برّاد أحد المستشفيات.

لم أفهم قصده إلاّ لاحقًا. وبمرور الأيام، تأكّد لي ذلك.

تذكّرته حين ضبطتُ روبير في الجرم المشهود. رأيته يدسّ في جيب بنطلونه ورقة نقديّة أخذها من والد قتيل فرغ للتوّ من تهيئة جثمانه.

لم يكن الرجل من أقربائه وجيرانه الذين أعرفُ غالبيتهم، وكثيرًا ما ساعدتهم حين يأتون إلى المستشفى في غيابه.

الارتباك الذي بدا عليه حالما رآني أيقظ لديّ غير تساؤل. قادتني التساؤلات إلى الشكّ بعدما استرجعتُ مشاهد مماثلة. فطالما رأيتُه يحكي على انفراد مع أحد ذوي الفقيد. كنت أظنّه يواسيه أو يعرفه أو يتعرّف إليه. فهو من الذين يحبّون إقامة علاقات والتدخّل في خصوصيّات الزوّار.

سرعان ما بات الشكّ يقينًا. فكلّما خطا روبير خطوة سعيًا إلى التقرّب مني خطا الشكّ عندي خطوة نحو اليقين. واكتشفت لماذا كان يكرهني ويلفّق أخبارًا تشكك في كفايتي وإخلاصي للعمل.

مكتبة الفكر الجديد

كان ينوي بأخباره تلك أن يزرع في عقل الإدارة فكرة عاطلة عني لعلّها تأخذ بها وتطردني. عندئذ يخلو له الجوّ ويستفرد بالإكراميّات.

ظنّ نفسه منتصرًا عندما اتفقنا على اقتسام الإكراميّة.

"فِفتي فِفتي" قال وهو بيده يحزّ الهواء نصفين. هاتان الكلمتان اللتان تعنيان القسمة بالتساوي، مألوفتان في ضيعتي، وخصوصًا على ألسنة لاعبي القمار. لكنّي لا أذكر أنّي نطقتُ بهما.

كنت في حاجة إلى المال. فمن عانى مثلي في مدينة لا ترحم الغرباء، ينبغي له أن يدّخره تحسّبًا للأيّام الآتية.

لكنّ الاتفاق لم يدم طويلاً.

كان روبير شكّاكًا. يشكّ في مقدار كلّ مبلغ أقبضه، ويجزم أنّي أكذب عليه وأطعنه في الظهر. ومرارًا اتّهمني بالطمع. وأنا لم أكذب. كنت قانعًا بما يجود به أهل الموتى. وأعطيه نصف الإكراميّة حين نصبح بمنأى عن العيون.

شكّه الدائم فيّ دفعني إلى الشكّ فيه.

رحتُ أراقبه.

تأكد لي غشّه غير مرّة. كان يضع ما يقبضه في جيب، وحين يقبل نحوي يستلّ من الجيب الآخر ورقة نقديّة مدّعيًا أنّها هي التي قبضها للتوّ.

لمّا تمادى شعرت أنّه يستغبيني. وما اعتدت السكوت على تصرّف كهذا. واجهته في اللحظة الحاسمة. أقسمَ أنّه لا يغشّني. لم أصدقّه. أصرّ فاصررتُ على أن يريني ما في جيبه الثاني. فاعترف وطلب أن أسامحه زاعمًا أنّه لم يسبق أن فعل ذلك.

أدّت الشكوك المتبادلة إلى أن نعقد اتفاقًا جديدًا.

مكتبة الفكر الجديد

كان الاتفاق الجديد ناجحًا إذ بعده جرت الأمور على أفضل ما يرام. وقوامه بند واحد: يأخذ كلّ منا البخشيش كاملاً، أيّا كان مقداره، بدل تنظيف الجثّة، بشرط احترام المداورة. فلا يحقّ لأحدنا أن ينظّف جثتين متتاليتين ويقبض عليهما إلاّ إذا تعذّر على الآخر تلبية دوره لداعي العمل. وكي يستقيم التعادل، يحقّ له لاحقًا أن ينظّف جثّتين ويقبض البخشيش عليهما.

كذلك اتّفقنا على أن تبقى علاقتنا الشخصيّة محدودة، حتّى لا نثير الشبهات وسط الموظّفين الذين يتسلّون بالكلام بعضهم على بعض. فالجميع يعرفون أنّنا أشبه بعدوين. فإذا حضر هو انسحبت أنا. وإذا حضرت أنا انسحب هو. وإذا بقينا نحن الاثنين في المكان نفسه، تجنّب أحدنا النظر إلى الآخر إلاّ بطرف عينه.

حافظنا على هذه الصورة المألوفة. فاستمرّت علاقتنا متوتّرة في الظاهر. وتبيّن لاحقًا أن تلك الخطّة مفيدة لكلينا. وستنقذني من ورطة كادت تتسبب بطردي. ولن أقول بإمكان إرسالي إلى السجن. فقد بات هو ينقل إليّ ما يُحكى عني في غيابي. وعاملته بالمثل. ولطالما تبادلنا المعلومات همسًا، ونحن ننظّف إحدى الجثث، محنيّين فنبدو للعابر، وخصوصًا للراهبة، مكبّين على العمل.

كنت أخشى أن تلتقط الأخت كريستين إشارة تكشف تواطؤنا، فتتشوّه صورتي لديها. وتندم لأنها عاملتني معاملة طيّبة وخذلتُها.

من الممكن، إنْ عرفتْ، أن ترفع الغطاء عني، فأغدو فريسة سهلة للذين يضمرون لي الأذية. والعمل بلا غطاء في المستشفى دونه دسائس لا يعرف الموظّف كيف تنزل عليه ومتى.

مكتبة الفكر الجديد

اعتقد أنّ الأخت كريستين كانت تعرف بأمر البخشيش وتغضّ النظر. لست أنا وروبير وحدنا نتلقى بخشيشًا. فغالبيـــة الممرضـــين والممرّضات يفعلون ذلك. سبق أن منعت الإدارة هذه العادة حرصًـــا على صيت المستشفى، لكنّها تراجعت عن قرار المنـــع بعـــد تعـــذّر التطبيق. الرواتب ضئيلة وموجة الغلاء تعلو يومًا فيومًا ويأتي من يمنع عنك الإكراميّة، كأنّه بذلك يحارب فضيلة العطاء، التي توصي بهـــا جميع الأديان. فالمسيح الذي تجسده الصلبان المتدليّة علـــى صـــدور الراهبات، هو نفسه قال للثريّ بعْ كل شيء ووزّعه علـــى الفقـــراء واتبعني، فكيف تصدر الأمّ الرئيسة أمرًا يقضي بمنع العطاء؟

من الإكراميّات وحدها، كنت أجني مبلغًـــا يســـاوي ربـــع راتبـــي. ومنعًا لإثارة الشبهات، اســـتمررت في الاســـتلاف علـــى راتبـــي.

حين أصبحت تخبئة ثروتي الصغيرة عبئًا علـــيّ، قـــرّرت فـــتحَ حساب في مصرف يقع في منطقة بعيدة من المستشفى.

كنت سمعت أنّ المصارف بدأت تدفع فوائد عالية. وإيداع المبلغ الذي في حوزتي يكسبني بعض المال يبقى، على قلّته، أفضل مـــن لا شيء.

لم أطمع بالفائدة قدر ما طمعت بأن تكون مدّخراتي في مأمن. وهل هنالك مكان أكثر أمانًا من المصرف؟

وهكذا كان.

كانت تخبئة الدفتر أسهل من تخبئة رزمة الأوراق النقديّـــة. في لوح الخشب أسفل الخزانة، لجهة الأرض، ألصـــقته بعـــدما لفّفتـــه بكرتونة على مقاسه. فبات من الصعب اكتشافه إلاّ مصادفة.

مكتبة الفكر الجديد

علّمتني أغاتا كريستي أن المخبأ الجيّد هو المخبأ الذي لا يـدفع أحدًا إلى الظنّ بأنّه مكان صالح للتخبئة.

عاملة التنظيف التي تكنس وتمسح الغرفة مـرّتين في الأسـبوع تكتفي بإمرار المكنسة فالممسحة تحت الخزانة. راقبتها ولاحظتُ أنّها تقوم بعملها هذا على الوتيرة نفسها.

كان لا بدّ من الاحتراز. فإذا عرف أحدهم بالدفتر، وبالرصيد المدوّن فيه، فقد يطرح أسئلة مُحرجة. لا أستطيع من الراتب وحـده أن أجمع مثل هذا الرصيد مع أنّي لسـتُ مبـذّرًا، أصـرف علـى الضروريّ، والضروريّ هو الأكل. كنت أتغدّى في مطعم المستشفى طبقًا يوميًا ثمنه ثلاث ليرات. الموظّفة المكلّفة ملء الصحون تضاعف حصّتي بدل تغزّلي بعينيها السوداوين الجميلتين، وتشبيهي إيّاهما بعينَي سميرة توفيق. أمّا الترويقة فكانت منقوشة بالصعتر أو بالجبن. والعشاء سندويشة لبنة أعدّها في الغرفة. ومن باب الاقتصاد، حاولتُ وقـف التدخين وفشلت. يوميًّا أدخّن علبتَي "ونستون" طويل، ثمنهما ليرتان ونصف الليرة. وإذا أطلت السهر فقد آتي على نصف العلبة الثالثة.

لكن بعدما فُتح باب رزق آخر غير البخشيش، أصبحتُ أُكرّم نفسي في الخفاء، أتروّق صحن فول مرّتين في الأسبوع بمطعم صـغير خلف المستشفى، وأتغدّى فيه حين لا يعجبني طبق شـبيهة سمـيرة توفيق.

وباب الرزق الجديد يقف روبير وراءه.

مكتبة الفكر الجديد

35

لم يشرّع لي روبير باب الرزق الجديد إلاّ مُكرهًا.

مَرِضت أمّه فاضطرّ إلى أن يغيب عن العمل في إجازة غير مدفوعة، كي يبقى قربها. ليس لديها أحدٌ يهتمّ بها سواه، بعد وفاة زوجها، أبي روبير، وهو في الخامسة والخمسين من العمر.

فوجئتُ به يهمس لي أنّه يبغي اطّلاعي على موضوع مهمّ. وطلب أن ألتقيه مساءً في مكان يقع على بُعد شارعين من المستشفى.

ذهبتُ ووصلتُ في الوقت المتفق عليه.

كان ينتظرني في سيّارته. ما إن جلستُ إلى جانبه حتّى وضع يمناه على كتفي، وقال إنّه ينوي إخباري بسرّ متمنّيًا إضافته إلى أسرارنا الأخرى المشتركة. قال إنّ الأيّام أثبتت أنّي جدير بالثقة. لكنّه استحلفني بحياة أمّي كتمان ما سيبوح به.

استعجلته أن يخرج من مثل هذه المقدّمات، ويدخل في صلب الموضوع. فما بيني وبينه يمكن البناء عليه ما دام مصيرٌ واحدٌ يجمعنا. ولا موجب لتكرار عبارات تتصل بالثقة والكتمان وغيرهما، بعدما باتت وراءنا. وإلاّ فلا لزوم للقائنا هذا.

بعد صمت، سألني هل تعرف بو رضوان. رددتُ بالإيجاب.

مكتبة الفكر الجديد

بو رضوان هو سائق الـ "بيك أب" الذي يجلب إلى المستشفى قوارير الغاز والأوكسجين مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع. كان يأتي إلى قسم الطوارىء كي توقّع له الراهبة إيصالاً بالتسليم. كلّما التقيته سلّم عليّ سلامًا ليس دارجًا إلاّ بين أولاد القرى. هو سلام من كلمتين أعدُّهما من أجمل التحيّات، لتضمّنهما دعاءً طيّبًا. وهما "يعطيك العافيه". فقلّما سمعت أحدًا من أبناء المدينة يحيّي بمثل تلك التحيّة.

قال روبير إنّ بو رضوان سيكون شريكنا الثالث أو الأحرى سأكون أنا شريكهما الثالث.

لم أعِ ماذا يقصد.

ما شأن بو رضوان ليكون شريكًا لنا؟

وما صلته بعملنا نحن في البرّاد ليشاركنا؟

ثم فيمَ سأكون أنا شريكهما الثالث؟

قبل أن أطرح هذه الأسئلة، ابتسم روبير تلك الابتسامة التي تدلّ على مدى مكره، وقال إنّه يتشارك وبو رضوان في المردود الذي يكسبانه من القوارير. سكتَ مراقبًا وقع كلامه عليّ. وطلب أن أضيّفه سيجارة مع أنّه عادةً لا يدخّن. أعطيته واحدة وأشعلتها له.

سألني هل تريد الحكاية من بدايتها أم من النهاية.

بدا كأنه يلعب بأعصابي. هممتُ أن أفتح الباب وأنصرف، فأمسك بي من ذراعي، ومضى يحكي.

حكى أنّ بو رضوان هو صاحب الفكرة.

والفكرة أنّ بو رضوان اكتشف إمكان إنزال ثلاث قارورات ملآنة من غاز الأوكسجين المستعمل في غرف العمليات وأخذ بدلاً

مكتبة الفكر الجديد

منها ثلاث فارغات من أصل أربع، ومحاسبة الراهبة على أساس أنه أنزل أربعاً ملأى. لكن ذلك لا يتمّ من دون الاتّفاق مع المشرف على التسليم والتسلّم. والمشرف هو روبير الذي أوكلت إليه الأخت كريستين مساعدة بو رضوان في التنزيل والتحميل. اتّفقا وأصبحا يتقاسمان ثمن القارورة، وهو ثمانون ليرة. ولم يكتشف أحدٌ سرّهما برغم مضي نحو تسعة أشهر على الاتفاق.

قال روبير إن بو رضوان وافق على أن أكون أنا شريكًا ثالثًا بعد أخذ وردّ طويلين، ليس لغياب الثقة بل لرفضه قسمة المبلغ على ثلاثة.

ففي رأي بو رضوان أنّ مثل هذه القسمة يجعل المكسب زهيدًا غير جدير بالمخاطرة. وحين أخفق روبير في تغيير موقفه، نزل على رغبته وقَبِل أن تبقى حصّة بو رضوان كاملة على أن أقاسمه أنا حصّته.

فيما كنت أصغي إليه، وجدتُ تفسيرًا لمجيئه في يوم عطلته الأسبوعيّة عندما يصادف يوم مجيء بو رضوان إلى المستشفى. كان كالعادة يساعده، وطبعًا يقبض حصّته ثم يمرّ بقسم الطوارىء، يسلّم ويرحل. ولطالما علّل مجيئه غير المتوقّع تعليلاً كان الجميع، وفيهم الراهبة، يصدّقونه. يدّعي أنّه نسي شيئًا وجاء لأخذه، أو أنّ لا شيء مفيدًا يقوم به في البيت فجاء كي يتسلّى ويساعدنا عند اللزوم، أو أنّه جاء ليتغدّى لأنّه يحبّ الطبق اليوميّ الذي يعدّه مطعم المستشفى. فقد كان لكلّ يوم طبق معيّن. وكان كلّ منّا ينتظر اليوم الذي يُعدّ فيه طبقه المفضّل. وحده روبير لم يعلن اسم طبقه المفضّل. كان الطبق المعدّ يوم مجيء بو رضوان هو طبقه المفضّل، وإن لم يكن كذلك.

مكتبة الفكر الجديد

لماذا يتنازل لي روبير عن نصف حصّته ما دام بمقدوره الاحتفاظ بها كلّها؟

وما الداعي إلى أن يعرض عليّ المشاركة ما دام الأمر لا يقتضي ذلك؟

خشي أن تنتدبني الراهبة في خلال غيابه الذي قد يطـــول، أو تنتدب أحدًا غيري، لمساعدة بو رضوان. عندئذ، يكون الاثنان، هو وبو رضوان، خاسرَيْن. لذلك استبق ما قد يحرمه ويحـــرم شـــريكه، مبلغًا لا بأس به. وباختياري شريكًا، يضمن حصوله علـــى نصـــف حصّته وإن بقي غائبًا مدّة طويلـــة. فالحصّـــة معروفـــة ولا مجـــال للتلاعب.

قبلتُ العرض. ولم ينسَ أن يذكّرني بأنّي في غيابه، سأتفرّد أيضًا بإكراميّات البرّاد.

وقال إنّه سيطلّ على المستشفى بين وقت وآخر كـــي يـــراني. وطمأنني إلى أن الاتّفاق سيبقى قائماً وإنْ عاد إلى العمل.

وأطلعني على الخطّة التي وضعها هو وبو رضوان لكـــي يقـــع اختيار الراهبة عليّ تحديدًا وليس على أحـــد آخـــر، للمســـاعدة في إنـــزال القارورات. والخطّة غير معقّدة، المهمّ نجاحهـــا مـــن المـــرّة الأولى. وهي تقتضي بأن يأتي بو رضوان إلى قسم الطـــوارىء بـــين العاشرة والثانية عشرة عندما يكون الشغل في ذروته. فـــإذا وجـــد المرضيْن اللذين قد تختار الراهبة أحدهما، مشغولين، وأنا قاعدًا بـــلا عمل (يجب أن تراني الراهبة في تلك اللحظات، في القسم)، يطلـــب إلى الأخت كريستين شخصًا للمساعدة. إذّاك من المنطق أن تختارني. فإنْ حدث ذلك فهذا يعني أنّي سأكون المساعد الدائم.

مكتبة الفكر الجديد

بعد يومين من الاتّفاق، حان موعد التطبيق. جاء بو رضـــوان القسم أوّل مرّة، فلم يجدني. مرّ بالبرّاد فرآني مكبًّا على جثّة. رأيته أنا أيضًا، فهززتُ برأسي، إشارةً إلى أنّي علمت بوصوله.

بعدما انتهيت، رحتُ أتجوّل لعلّ الراهبة تراني. وقـــد رأتـــني. ورأيتُ الممرضيْن كليهما مشغولين، فأشرتُ على بـــو رضـــوان أن يدخل. دخل وكلّم الراهبة التي كانت تمازح طفلة ممسكة بفســـتان أمّها. وللحال نادتني وطلبت مني معاونته.

نجحت الخطّة وطبّقنا الاتفاق.

لكن ذلك، ككلّ شيء في الحياة، لم يَدُم. حلّ سائق آخر محلّ بو رضوان لسبب خاصّ متعلّق بالشركة.

رفض السائق الجديد إكمال المغامرة مع أنّنا أغرينـــاه بزيـــادة حصّته. كان متديّنًا، يخاف ربّه، ويأبى قبول المال الحرام.

هذا الوضع المستجدّ قلّل مدخولي، فقرّرت من قبيل التعويض، زيادة عدد الزيارات إلى جارور الراهبة.

مكتبة الفكر الجديد

36

إنّها المجازفة السابعة.

كان نصف العاملين في الطوارىء في الغداء، والباقون مشغولين بمعالجة المرضى.

في هذا الوقت من اليوم، تكون الغلّـة في الجـارور جيّـدة. وأخذُ القليل منها لا يثير الريبة. وهو أيضًا وقت اجتماع الراهبـات إلى طاولة الغداء. وبعد مراقبة، لاحظـت أنّ الأخـت كريسـتين لم تتخلّف عنه إلاّ نادرًا. لكنّها تعود سريعًا إلى القسم، كأنّ العمـل فيه لا يسير إلاّ في حضورها. ولا تتعدّى مـدّة غيابهـا العشـرين دقيقة.

عندما تأكّد لي أنّ الفرصة مؤاتية، صـمّمت علـى المغـامرة. اتّجهت نحو الجارور، وقبل وصولي إليه، صاح بـي صوتٌ من عتمة ظنوني أن أتراجع. فتراجعت.

فيما كنت أغادر الغرفة دخلت الراهبة على عجل. لم أعرف ما الذي دفعها إلى العودة، في هذا الوقت، على غير عادتها.

حين التقت عيناي عينيها لـدى البـاب، انتـابني شـعوران متناقضان. الأوّل خفتُ أنّ تكون رأت في نظراتي ما أخفيه. والثـاني فرحتُ بأن صوت القدر أنقذني في اللحظة الأخيرة.

مكتبة الفكر الجديد

وقفتُ أحادث أحد الزملاء في غرفة مجاورة، لعلّي أكتشف سبب مجيئها المباغت. خرجتْ بعد نحو دقيقة، وهي تُدخِل إحدى يديها بالقفّاز استعدادًا لبدء العمل.

فلو أنّها رأتني، وأنا أفتح الجارور لطردتني. أو في أقلّ تقدير، وبّختني ثم سامحتني لأنّها هي التي وظّفتني وتأبى أن يُقال إنّها وظّفت سارقًا. فهذا يخدش سمعتها الإداريّة ويقلّل حظوتها لدى الأمّ الرئيسة. وكانت أبقت الأمر بيني وبينها على أمل ألاّ أكرّره.

اخترتُ الظهر توقيتًا للمغامرة لأنّه، عدا ذهاب الراهبة إلى الغداء، أفضل من الصباح والمساء.

في الصباح، لا يحتوي الجارور إلاّ على كومة من النقود المعدنيّة وبعض الأوراق النقديّة من الفئة الصغيرة. وأخذ أيّ شيء منه عُرضة للخطر، ولا يستحقّ المجازفة.

بعد الظهر، يأتي فوج آخر من الممرّضين والممرّضات لملء الدوام الليليّ، فيجلس من جاء منهم مبكّرًا، في الغرفة حيث الجارور.

في المساء، كثيرًا ما رأيت الراهبة مكبّة على الجارور، تفرد الأوراق النقدية على حسب فئاتها. وبين حين وآخر، ترفع إصبعَيْها إلى فمها، تمرّرهما بلسانها كي تبتلا ببعض اللعاب الذي يسهّل لها التعداد. ثم تدوّن على الدفتر مقدار غلّة اليوم. وبعد إعادة الدفتر إلى مكانه، تطوي الغلّة رزمتين وتضعهما في جيبها، وتمضي.

لا أحد يعرف هل تحتفظ لنفسها بقسم من المال وتعطي الإدارة الباقي، أم تستفرد بالغلّة كلّها. أم ربّما الأمّ الرئيسة شريكتها المستورة.

مكتبة الفكر الجديد

قد تكون مُكرهة على فعل ذلك كي تساعد أهلها وإخوتها في الخفاء. فالأيّام أيّام حرب، وكثير من الناس فقدوا وظائفهم، وطردوا من أعمالهم، وهُجّروا من قراهم.

الآن أدركت المقصود من القول الذي طالما سمعته في ضيعتي. وهو أن فلانًا ليس في حاجة إلى العمل ما دامت أخته راهبة أو ما دام أخوه كاهنًا.

فالمال الذي يدخل القسمَ هو في تصرّفها وحدها. وما من إثبات خطّي يدلّ على مقداره. صحيح أنّ هنالك دفتر إيصالات. لكنّها لا تكتب إيصالاً إلاّ بناء على طلب المريض الذي يكون مرغمًا على تقديمه إلى ربّ عمله، أو لسبب خاصّ. وبإمكانها أن تدوّن في الإيصال الرقم الذي تريده. إنّها الآمرة والناهية، وليس من رقيب عليها سوى ضميرها.

مرّة عالجتُ أنا مريضًا في وقت الفراغ، وقبضتُ منه مبلغًا زهيدًا، وأبقيت المبلغ معي. غادر المريض ثم عاد ليطالبني بالإيصال. أحرجني وخفتُ أن تعرف الراهبة. فأرجعتُ المال إليه مدّعيًا أن لا دفتر للإيصالات متوافرٌ اليوم.

عدم اللجوء إلى الإيصالات هو لمصلحتي. فقد أخذت من الغلّة ثلاث مرّات، و لم يشكّ أحدٌ في نقصانها.

لم يكن متاحًا فتح الجارور إلاّ نادرًا. فالغرفة حيث هو قلّما تخلو. هي أشبه بممرّ بين غرفتين، واحدة للإسعافات الأوليّة، وأخرى لاستقبال الحالات الصعبة تمهيدًا لإدخال أصحابها المستشفى.

كانت المحاولة أسهل لو أنّ هنالك شخصًا يراقب أحد المدخلَين، ويحذّرني في اللحظات الحرجة بإشارة متفق عليها سلفًا.

مكتبة الفكر الجديد

فكّرت في إشراك روبير. هكذا أردّ له التحيّة بمثلها. هو فتح لي باب الإكراميّات وقارورات الغاز والأوكسجين. وأنا أشركه في الجارور. لقد وثق بي. فلِمَ لا أثق أنا به؟

لكنّي تريّثت. ثم عدلت عن الفكرة.

خشيتُ أن تقتضي هذه الشركة بسحب كميّة أكبر من الكميّة التي اعتدتُ سحبها. عندئذ ينهار كلّ شيء على رأسينا معًا. لا مانع لديّ من اقتسام ما أفوز به معه بشرط أن تظلّ الدفّة في يدي.

وخشيتُ أن يصرّ على أن أصبّ له مفتاحًا بعدما بات شريكي. فلماذا يجوز لي الاحتفاظ بمفتاح ولا يجوز له؟ أعرف أن هذا سيحصل آجلاً أم عاجلاً في حال المشاركة. وإذا صببتُ له مفتاحًا فمن الممكن أن ينفرد بفتح الجارور متى سنحت له المناسبة، من دون إعلامي. عندما تزور يدان، يده ويدي، الجارور في اليوم نفسه، وهذا محتمل حدوثه، قد يخلخل ذلك حساب الراهبة، فيدفعها إلى رسم علامة استفهام. ومتى راودها الشكّ، ازدادت يقظتها وزرعت العيون. إذّاك، تغدو المجازفة ضربًا من الغباوة، وتُقطع رزقتي.

وحدي أستطيع تدبّر الأمر بالتي هي أحسن وأبقيه تحت سيطرتي.

لن أسلّم رقبتي لروبير الذي قد يطمع، ويستدرجه الطمع إلى التهوّر، فيتورّط ويورّطني.

إلى الآن، نجحت محاولاتي كلّها. أكتفي بواحدة أو اثنتين في الأسبوع.

صحيح أنّ المبلغ الذي جنيته ليس كبيرًا. لكنّه مع مردود الإكراميات، يعادل ثلث راتبي.

مكتبة الفكر الجديد

قبل كلّ محاولة، كان الخوف الذي ينتابني يفوق الوصف. يبدأ لحظة اتخاذي القرار. ويتعاظم مع كلّ خطوة نحو الهدف. ويبلغ الذروة لدى فتح الجارور وأخْذِ ما تيسّر منه.

في تلك اللحظات، لا أشعر أن دقّات قلبي تتردّد في أرجاء المستشفى فقط بل كذلك يتصبّب عرقي كمن خرج للتوّ من قفص الصونا. حتّى يداي كانتا تتعرّقان، فأخاف أن ينزلق المفتاح من بين أصابعي في اللحظة الحاسمة، فيقع مُحدثًا رنينًا قد أسمعه، وأنا في ذلك الموقف، كانفجار قنبلة في الليل.

الخوف يدوم إلى ما بعد خروجي من الغرفة. لكنّه لا يتلاشى إلاّ بعد أن أخبّيء المال.

كثيرًا ما تسلّل الخوف إلى منامي، فأراني بين دركيّين يجرّانني إلى سيّارة الجيب العسكريّة ويرميانني في سجن وسخ مع سارقين وحشّاشين وناكحي أولاد.

وطالما أبصرت في المنام الأخت كريستين تقبض عليّ عند فتح الجارور وتطردني على مرأى من الجميع. وحلمتُ مرارًا بروبير وهو يهدّد بإفشاء سرّي إذا أصررتُ على استبعاده.

ومرارًا تخيّلتُ القبضَ عليّ في"الجرم المشهود"، وتعذّرَ اختلاق ادّعاءات التبرئة، وسقوطَ قاعدة كلّ متّهم بريء حتّى إثبات إدانته.

هذا التخيّل كاد يثنيني عن معاودة المجازفة، لكن الطمع كان يحثّني على العكس.

مكتبة الفكر الجديد

37

فوجئتْ الأخت كريستين عندما رأتني أحلق ذقن ميت.

سبب المفاجأة أنّي غيّرت موقفي الرافض مثلَ هذا العمل الذي سبق أن اقترحته عليّ. إنّه شغل إضافي مقابل بخشيش يدفعه لي أهـــل الفقيد.

قلت لها إنّي متأهّب لفعل كلّ شيء ما عدا الحلاقـــة، وقلـــتُ رجاءً لا ترغميني على القيام بأمر لا أطيقه.

لم تصرّ عندما وجدتني متشبّثًا برأيي. لكنّها اســـتغربتُ قبـــولي الحشو والتنظيف ورفضي عملاً سهلاً مقارنة بهما كالحلاقة.

رفضته لأنّه يقيني، وإن وقتًا قصيرًا، على صلة قريبة من وجـــه الميت. إذ لا يجوز إجراء الحلاقة من دون أن أنظر إلى المكان الـــذي أضع فيه الشفرة. فالجرح الذي قد تحدثه الشفرة، إنْ شردتُ، لن يمرّ على خير لأنّ أثره يشوّه هيئة الميت. ومن المحتمل أن يســـتنفزّ أهلـــه فيبّخوني أو يحتجّوا لدى الراهبة. على خلاف غلطة الحلاقـــة، تَعْـــبرُ الغلطات الأخرى بلا مشكلة ما دامت غير ظاهرة، كمثل كسر اليد أو الرِجل.

كثير من ذوي الموتى طلبوا إليّ أن أحلق ذقن فقيدهم، وتجاهلت الطلب متذرّعًا بأنّه لا يدخل في نطاق عملي.

مكتبة الفكر الجديد

بعدما زاد الطلب، أقنعت نفسي بأنّ هذا باب رزق فُتح لي، ومن الحماقة أن أغلقه.

كما هنالك أصول لسدّ منافذ الجسم وتنظيف الجثّة وحشوها، فكذلك للحلاقة.

أرشدتني الراهبة إلى أسهل طريقة ولم يستغرق الدرس سوى دقائق قليلة. قالت يجب أن تمسك الرأس باليد اليُسرى وتحلق باليد اليُمنى. وعلى الفور، طبّقت الشرح لعلّ ذلك يفيدني ويسهّل عملي. بلّت بالماء ذقن جثّة رجل أربعيني، وألقمت آلةَ الحلاقة شفرةً جديدة، ومضت تحلق. تحلق وتفسّر: اِحرصْ أن تُبقي يدك مستقيمة لأنّ أيّ انحراف قد يتسبب بجرح، والجرح يستحيل إخفاؤه، فيغضب الأهل وقد تذهب الوقاحة ببعضهم إلى مطالبة المستشفى بعطل وضرر. تقول ذلك ليس من باب السخرية والمزاح. إنما هو حصل فعلاً، ولا يزال ممرّضون وممرّضات يسترجعونه متى دار الحديث على الحكايات الطريفة التي جرت في المستشفى.

كانت تعزز التفسير بسيل من التنبيهات: استخدم الشفرة مرّة واحدة. بِلّ الموقع بالماء قبل ثوانٍ من حلقه. تجنّب الحلاقة بلا ماء. ركّز جيّدًا. لا تدنِ وجهك من وجه الميت إنْ كنت بدون كمامة. لا تشتغل من غير قفّازين.

لفتتني طريقة مسكها بالآلة ورشاقة حركتها والسرعة التي أنجزت بها المهمّة. كنت أقف قبالتها، مُعجبًا بمهارتها، مُتخيّلاً نفسي أقوم بما تقوم هي به.

وكلّما سمعتُ الصوت الذي تحدثه الشفرة لدى مرورها على الذقن قارنته بالصوت الذي أسمعه عندما أحلقُ ذقني في الصباح.

مكتبة الفكر الجديد

الصوت هو نفسه تقريبًا مع أنّي أستعين بمعجون أرغيه بعض الوقت كي أنـزع في يسر الشُعيرات القاسية.

لّما انتهت الراهبة من عملها، أعطتني آلة الحلاقة وعلبة الشفرات، وقالت أرني ماذا تعلّمت، ودلّتني على الجثّة التي سأطبّق عليها ما تعلّمته.

كان صاحب الجثّة رجلاً في الخمسين، شعر ذقنه أطول قليلاً من شعر ذقن الجثّة موضوع الدرس. ارتجفت يداي وأنا أضع الشفرة في مكانها وأركن فوقها الغطاء وأشدّ المقبض عليها.

لّما لاحظتْ ارتباكي ظنّتْ أنّ السبب مراقبتها المباشرة إيّاي، فغادرتْ. عادتْ بعد بضع دقائق، وكنت قد أنجزت الحلاقة، فاقتربتْ من ذقن الميت وتأمّلته جيّدًا. لم تعلّق لا سلبًا ولا إيجابًا. عدم التعليق يعني أنّها راضية، وأنّي قمتُ بعملي على أفضل ما يرام.

الآن صرتُ مُعلّمًا. الراهبة تقول ذلك. بتّ أسرع منها. لا تستغرق الحلاقة سوى دقيقتين. وأحيانًا أقلّ. أبدلتُ بالآلة القديمة التي لطالما رأيت جدّي وأبي يحلقان بها، شفرةً تُرمى بعد أن يستعملها الشخص بضع مرّات. واعتدت أنا استعمالها لدى حلاقة ذقني لثمنها الزهيد ولأنّها أفضل من الماكينة التقليدية.

بهذه الشفرة الجديدة، رحت أحلق الذقون.

مرّة، فيما كنت على وشك حلاقة ذقن إحدى الجثث، تفقّدت كيس الشفرات فوجدته فارغًا. لم يكن لديّ متسع من الوقت كي أعلم الراهبة بالأمر. خشيتُ أنّ تؤنّبني لإهمالي إذ كان عليّ إعلامها بنفاد الشفرات في حينه. صعدتُ إلى الغرفة، جلبتُ الشفرة التي استعملتها في الصباح، وحلقت بها ذقن الميت.

مكتبة الفكر الجديد

أعجزُ عن وصف الشعور الذي انتابني في تلــك اللحظــات. الشفرة التي مرّت بذقني قبل بضع ساعات، هي نفسها مرّت بــذقن جثّة. شُعيرات من ذقني عالقة في التحويــف بــين الشــفرة وآلــة البلاستيك اختلطت بشُعيرات ذقن الميت.

اضطربتُ عندما عكست الموقف: أحلق ذقني بشفرة ســبق أن حلقتُ بها ذقن ميت.

كان فعل الحلاقة، الذي يقتضي الدقّة والصــبر، يقــرّبني مــن الميت، فأحفظ ملامح وجهه وقسماته. ولطالما رأيت في المرآة، خلال الحلاقة، وجهًا غير وجهي. وجوه وأطياف وجوه تلتصق به. أحلــقُ وأستحضر، أو تحضر من تلقائها، ذقون بللتها ماءً وحلقتها. صــرتُ أحلق ذقني بالطريقة نفسها التي أحلق بها للميت. أشدّ بشرتي باليــد اليُسرى وأحلق باليد اليُمنى. لم تكن هذه طريقتي قبــل الــبرّاد. أو تحديدًا قبل حلاقة ذقون الموتى. كنت أحلق بيد واحدة. وأســتعين بإصبعين من الثانية بين وقت وآخر وليس كل الوقت مثلما صــرتُ أفعل.

كرهتُ الصباح لأنّي مرغم على حلاقة ذقني.

وكرهتُ الحلاقة أيضًا لأنّها تذكّرني بما ينغّص يــومي. لكنّــي مضطرّ إليها. المستشفى يفرض ذلك علــى جميــع العــاملين فيــه. والمخالفون يتلقّون إنذارًا تحــذيريًّا لــدى المخالفــة الأولى، وإذا لم يردعهم الإنذار، تستدعيهم الأمّ الرئيسة التي تــروح تعظهــم بــأنّ الحلاقة جزء من نظافة الرجل، وبأنّ الناس ليست مجبرةً على أن ترى شخصًا مُهمِلاً نفسه وهو قادر على تحسين شكله. ويأتي الطرد مــن العمل لدى تكرار المخالفة.

مكتبة
الفكر
الجديد

كرهتُ حلاقة ذقني لكنّي لم أكره حلاقة ذقون الموتى. باتت شبه حرفة، تدرّ عليّ مبلغًا جيّدًا من المال. لم أضع لها تعرفة معيّنة. حين أُسأل "شو بيتوجّب علينا؟"، أي ما هو بدل أتعابك؟ أردّ "اللي بيطلع من خاطرك"، أي ادفعْ مقدار ما تريد. بعضهم يدفع بدلاً لم أكن أتوقّعه. أفاجأ مثلاً برجل لا تشي ثيابه بأنّه قد يدفع عشر ليرات. وهو مبلغ يوازي أجر يوم. وكثيرًا ما قبضت ربعه من رجل لا ينزل السيجار من فمه، ولا يتخلّى عن النظارة الشمسيّة حتّى في الفيء. بعضهم كان يدير ظهره ويمشي لظنّه أنّ الحلاقة جزء من عملي. وكانت شتائمي تلاحقهم حتى منازلهم. وعندما تكرر هذا، صرتُ لا أقدم على الحلاقة إلاّ بناءً على الطلب.

بطريق المصادفة، اكتشفت عملاً جانبيًّا يمكن إدراجه في خانة الحلاقة. هو قصّ شعر المنخرين والأذنين. لهذه الغاية اقتنيت مقصًّا صغيرًا، أضعه في جيب المريول، أقصّ به بعد الفراغ من الحلاقة، الشعر الظاهر من فُتحتَيْ الأنف، وذاك الطالع في مدخلَيْ الأذنين. اكتشفتُ هذا العمل بعدما لفتني أحدهم، وقد جاء يتسلّم جثّة قريب له، إلى وجود شعر كثيف في فُتحتَي أذنَيْ المرحوم. وتمنّى عليّ أن أقصّه. فلم أخذله. استمهلته حتى أتيت بمقصّ من قسم الطوارىء، وقصصت الشعر. في المقابل، لم يخذلني هو، فدفع لي ليرتين علاوةً على الخمس ليرات بدل الحلاقة.

وطالما مننتُ أهل الفقيد بأنّي قصصتُ شعر أنفه وأذنيه. أقول لهم ذلك بعد إنجاز حلاقة ذقنه لعلّهم يخجلون فيزيدوا المكافأة. مرّات أسألهم قبل بدء الحلاقة هل أقصّ للفقيد شعر الأنف والأذنين لـئلاّ

مكتبة الفكر الجديد

أبلغهم مباشرةً أنّ هذا العمل منفصلٌ عن الحلاقة، وإذا قمت به فلكي يقدّروه لدى دفع أتعابـــي.

لكثرة ما نظّفت أنوفًا وآذانًا من الشعر الزائد، أصبحتُ أنظـــر لاشعوريًّا إلى فُتحتَي أنف محدّثي، وأحتال كي أتفقّد مدخلَي أذنيه.

حتّى زوّار المستشفى والمارّة في الشارع لم يسلموا من حشريّتي هذه.

مكتبة الفكر الجديد

38

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما رنّ هاتف الغرفة. استيقظتُ على صوت الأخت كريستين تطلب مني التوجّه إلى البرّاد.

لبستُ ثيابي وغادرت.

طلبت إليّ أن أنتظر مجيء أهل الفقيد ليأخذوا الجثة المجهّزة للتسليم منذ أوّل المساء.

وكي أستفيد من الوقت الضائع، رحت أتسلّى بقراءة رواية لأغاتا كريستي.

طول الانتظار والقراءة أتعباني.

جرّرتُ العربة الكرّاجة التي ينقلون بها المرضى، وألصقتها بالحائط، قرب باب البرّاد.

ثم اعتليتُها بثيابي وتمدّدت. فغفوت مستلقيًا على ظهري ويداي على بطني الواحدة فوق الأخرى.

غفوت من شدّة حاجتي إلى الراحة بعد يوم مُرهق.

لم أتوقّع أن يتبع هذه الإغفاءة المفاجئة ذعرٌ رهيب. ذعرٌ لم يسبق أن شعرتُ بمثله إذ صحوتُ على صوت رجل غريب يشتمني وهو ممسك بي، محاولاً الإفلات من بين أيدي شابين يمنعانه من ضربي.

مكتبة الفكر الجديد

صُعقتُ حين رأيتُني منتصبًا داخل التابوت. ثم تلاطمت الأسئلة في عقلي. كيف أصبحت داخل هذا النعش؟ من فعل بـــي هـــذا المقلب؟ هل هو مزحة أم فخّ للإيقاع بيني وبين الراهبة، أو بيني وبين إدارة المستشفى؟ ما الغاية منه؟ ما الصلة التي تجمعني هؤلاء الثلاثـــة، ولا سيّما بالرجل الذي لو أتيح له أن يقتلني لما تأخّر؟ عاملني الوغـــد كأنّي عدوّ أو كأنّي قتلت أباه، أو نكحتُ أمّه أو أخته.

لم أشكّ في أحد. استبعدتُ روبير لأنه لن يأتي في الليل من أجل دعابة كهذه. لكنّي لا أبرّئه لو حدث نهارًا ما حدث ليلاً.

عجزتُ عن فهم الموقف جيّدًا. كنت في عالم آخـــر. كنـــت أحلم. وما ألطف الحلم الذي أتيت منه. حلمتُ بـــأنّي في الضـــيعة، أسير في السهل، الجفتُ على أهبة الرمي، وكلب إلى جانبـــي، وأنـــا أرصد هبوب دجاجة أرض بين لحظة وأخرى. وقد هبّت وطـــارت. وفيما صوّبت نحوها، رفعتني يدٌ من رحاب السهل، ودهمـــني وجـــه غاضب يبخّ عليّ لعابًا وكلمات نابية.

للحظات، لم أدرِ ماذا أفعل. هل أدافـــع عـــن نفســـي، أو في الأقلّ، أُبدي بعض المقاومة لعلّها تلجم تمادي الرجل وتوقفـــه عنـــد حدّه.

آخر ما أذكره هو أنّي جررتُ العربة من القسم وركنتها بجانب حائط باب البرّاد ووضعت عليها الحمّالة التي بها تُنقل الجثّة من البرّاد إلى النعش. واستلقيت على الحمّالة.

ما تلا ذلك أعرفه. أنا في التابوت وحولي الراهبة وثلاثة رجال وجثّة تنتظر خروجي لتستقرّ مكاني.

أمّا ما حدث بين هذين الأمرين فأجهله تمامًا.

مكتبة الفكر الجديد

عدتُ إلى الواقع عندما نهرني الرجل طالبًا أن أخرج من التابوت.

بينما كنت على وشك الخروج، رفع عصاه (لاحقًا علمت أنّه يتوكّأ عليها لأنّ به عرجًا) موحيًا أنّه سينهال بها عليّ، فحنيتُ لاشعوريًا وحاولت الابتعاد. تدخّلت الأخت كريستين راجيةً أن يهدأ كي تعالج الموضوع.

استغربتُ صمتها الذي طال. ظننّني أمثّل دورًا. ظلّتْ واقفةً وهي تكتم غضبها منتظرةً أن أنهض وأنهي المزحة السمجة. لكنّها تعلم أنّي في الأمور المتصلة بالعمل، ولا سيّما بالجثامين، أتصرّف بمسؤولية كبيرة.

ربّما انتظرتْ ليبرد انفعال الرجل الذي بدا فاقدًا أعصابه.

قرأتُ في نظراتها السؤال الذي لم تشأ طرحه عليّ في حضورهم، وهو: ماذا يحدث؟

وهي كذلك قرأت جوابي في نظراتي الحائرة: لستُ أدري.

فعلاً لم أكن أدري. فحكايتي واضحة. استلقيت على العربة ثم استفقت في التابوت وفوق رأسي أربعة أشخاص وجثّة.

لا أعرف أكثر من ذلك. وعندي فضول شديد لأعرف من حملني من العربة إلى التابوت. ولماذا.

الأخت كريستين لم تصدقّني. أقسمتُ لها بغربتي وبأمّي وأبي أن ما أقوله هو الحقيقة. وبقيتْ على موقفها. لكنّها لم تكذّبني في الوقت نفسه.

قالت إن هنالك حلقة ناقصة، لا بدّ من البحث عنها لاكتشاف الحقيقة.

مكتبة الفكر الجديد

واتّفقنا أن نبقي تفاصيل ما جرى سرًّا بيننا نحن الاثنين.

لم يَستغرق العثور على الحلقة الناقصة وقتًا طويلاً. حصل ذلك بطريق المصادفة.

ذات ظهيرة، كنت في البرّاد، أجهّز جثّة للتسليم، عندما وقف شابّان لدى الباب، وسلّما عليّ. للحال تذكّرهما. وجهاهما ما زالا مرسومين أمامي كأنّني أمس رأيتهما وليس قبل نحو شهرين. إنّهما الشابّان اللذان شهدا خروجي من النعش في تلك الليلة المتعذّر نسيانها. فهل ينسى أحدهم نومه على عربة واستيقاظه في تابوت؟ حدثٌ لن يصدقه الاّ الذين يؤمنون بأن هنالك مفارقات غريبة لا تحدث في السينما فقط بل كذلك في الحياة.

جاءا الآن لنقل جثّة كنتُ هيّأها للتوّ إلى سيّارة متوقّفة عند المدخل. وبينما كان ينتظران الشخص الذي ذهب لينجز المعاملةَ الإدارية التي تتيح له تسلّم الجثمان، عرّفاني بنفسيهما: مصطفى وأحمد. وهما مصريّان يعملان في فبركة للنجارة، يستعين سائق سيّارة دفن الموتى بهما لحمل النعش من البرّاد إلى السيّارة، ومنها إلى بيت أهل الميت.

بعد أن اطمأنّا إلى أنّي في مزاج طيّب، ذكّراني بتلك الليلة المشؤومة. ومضيا يتناوبان على الكلام.

باح لي مصطفى بالسرّ الذي قادني إلى الحلقة الضائعة. قال إنّه وأحمد ظنّا أنّي الميت فأسرعا إلى نقلي من العربة إلى النعش. فقد كان الجميع، هما وشقيق الفقيد وسائق سيّارة دفن الموتى، على عجلة. فالطريق إلى الضيعة طويل، وينبغي لهم استباق العاصفة الثلجيّة التي من الممكن أن تقطعه.

وروى أنّه دُهش حين فتحت الراهبة باب البرّاد ودلّته على الجثّة المهيّأة للنقل إلى السيّارة، فاستنتج في تلك اللحظة أنّه ورفيقه ارتكبا خطأً. وتأكّد له هذا الاستنتاج حين بقي شقيق الفقيد هادئًا لدى رؤية الجثمان.

قال أحمد إنّه ومصطفى فوجئا عندما رأيا شخصًا حيًّا في النعش، واستغربا أنّهما لم يشعرا بأنّ الذي يحملانه حيّ وليس ميتًا. لاما نفسيهما كثيرًا، وأحسّا أنّهما غبيّان. لذا اختارا الصمت والحياد.

واعترفا أنّهما كلّما تذكّرا مشهد نهوضي مذعورًا من التابوت انتابتهما نوبة من الضحك.

قبل مغادرتهما، استوقفتهما بعض الوقت. ذهبتُ إلى الراهبة وقلت لها إنّي عثرت على الحلقة الضائعة ودعوتها إلى أن تسمع الحقيقة بنفسها.

جاءت واستمعت.

لدى انصرافها علّقت بأنّي أخللتُ في الاتّفاق. واتّفاقنا هو نسيان تلك الحادثة كليًّا.

مكتبة الفكر الجديد

39

"انتبه. الراهبة شكّت فيك".

عبارة مختصرة رماها روبير ومشى.

لم أفهم معنى هذه الإشارة الملغزة. لماذا قال "تشكّ فيك" وليس لا فيّ وفيه ما دمنا شريكين في قسمة الغلّة التي نجنيها من قوارير الأوكسجين، وفي الإكراميّات. فإذا تورّطتُ أنا فتحصيل حاصل افتضاح أمره هو أيضًا. والعكس صحيح كذلك.

رمى كلماته المحذِّرة وتوارى. لم أستطع اللحاق به للوقوف على الأسباب الكامنة وراءها إذ كنتُ أجهّز جثّة ينبغي تسليمها بالسرعة الممكنة.

عندما أنجزت عملي، تفاديت الخروج من البرّاد.

خفتُ أن ألتقي الراهبة وجهًا لوجه.

فيمَ تشكّ يا تُرى؟

في مفتاح الجارور؟

هذا وارد مع أنّي متيقّظ وحذر.

ولطالما أوقفت زيارة الجارور مدى أسبوعين، وأكثر أحيانًا لإبعاد أيّ شكّ قد يفيق لديها في حال الظنّ بنقصان المال. فعندما تجد أنّ الغلّة لم تنقص خلال أسبوعين تستبعد الشكّ وترد النقص

مكتبة الفكر الجديد

الحاصل في الأيام السابقة، إذا لاحظته، إلى خطأ في العدّ أو إلى أمر آخر.

هل من الممكن أن يكون شكّها ناتجًا من شكوك الآخرين؟ أو من وشاية أحد لربّما رآني من غير أن أنتبه؟

قرّرت أن أتصرّف على نحو طبيعيّ، كأنّي لم أسمع التحذير. تركت البرّاد وقصدت إلى الحمّام. غسلتُ وجهي وعدت. تعمّدت المرور قرب الأخت كريستين، وافتعال حديث عابر مع أحد المرضين على مرأى منها.

إذا افترضتُ أنّها تشكّ فيّ، فهذا يعني أن لا دليل لديها، وتاليًا أنّي بريء.

علّمتني روايات أغاتا كريستي أنّ المتهم بريء حتّى إثبات العكس. وعلّمتني أيضًا أن البصمات التي يخلّفها القاتل في موقع الجريمة قد تقود العدالة إليه. كنت ألجأ إلى القفّاز (أو الكفوف كما يسمّونه في المستشفى) من باب الحيطة. وإذا رآني أحدٌ خارجًا من الغرفة حيث الجارور، بعد أداء مهمّتي، فلن يسأل ما الداعي إلى لبسي القفّاز. ففي خلال الدوام قلّما أخلعه. فهو من مستلزمات العمل. ولطالما تنقّلت في القسم وهو في يديّ. ولمزيد من الحرص، كنت بعد زيارة الجارور أرميه في قعدة الحمّام، ولا أزيح نظري عنه إلاّ لدى تأكدي أنّ دورة المياه ابتلعته.

لو أنّ روبير شكّ في أمر الجارور لواجهني وطلب أن نصبح شريكين في غلّته تمامًا مثلما كنّا شريكين في غلّة قوارير الأوكسجين. وسيتذرّع بالعدل، وبشعاره المعروف "كول وطعمي" (كُل وأطعم). وليس من الحكمة أن أرفض.

مكتبة الفكر الجديد

وكان وجد وسيلة ما ليخبرني بأنّ في الأفق شيئًا مريبًا، ينبغي التنبّه. فما زلتُ أنا وهو نتظاهر بأننا غير متقاربين كي يحمي كلّ واحد منا ظهر الآخر.

رمى عبارته التي عكّرت نهاري وغاب. ليس من عادته أن يغيب غيبة كهذه إلاّ إذا احتاجت إليه أمّه المريضة.

لا أجرؤ على السؤال عنه. فإن فعلت فسيستغرب الجميع، وقد أفتح عيونهم فيروحون يستفسرون عن سرّ هذا التغيّر المفاجيء.

بقيت في قسم الطوارىء مع أنّ الدوام انتهى. أتمشّى في باحة المستشفى وأرقب الزوّار والمارّة لعلّي ألمح روبير. طول قامته يجعلني أستثني القصار. يليق به أن يكون لاعب كرة سلّة. فليس مضطرًا إلى القفز لرمي الطابّة في السلّة. يكفي أن يرفع يده كي يسجّل الهدف.

في السهرة، خبّأتُ مفتاحَي الجارور في مكان لن يصل إليه الذباب الأزرق. وسهرتُ مع بو موسى الذي كان دوره في الدوام تلك الليلة. شربنا كأسًا واستمعنا إلى جزء من أكبر مباراة زجليّة جرت العام 1972 في المدينة الرياضيّة ببيروت، واشترك فيها ستة عشر قوّالاً.

نمت أنا وبقي هو ساهرًا يكمل المحاورة الناريّة بين زين شعيب وجريس البستاني.

عندما نهضتُ صباحًا شعرت أن النهار سيكون طويلاً. حلقتُ ذقني واستحممت ورششتُ عطرًا طيّبًا. شئتُ الإيحاء أنّي في حال جيّدة.

كنت وحيدًا في البرّاد، عندما جاء روبير. قال إنّ عليّ أخذ العلم، فالراهبة تشكّ في أن يدًا غير يدها تفتح الجارور، وأنّي أنا على

مكتبة الفكر الجديد

رأس قائمة المتّهمين. وفاجأني لمّا استبعدني عن دائرة الشبهة، متـــهمًا المسؤولة عن الممرّضات والممرّضين في القسم. وسأل من أين لها المال لتقتني سيّارة جميلة كالتي اشترتها قبل مدّة. لم أعلّق. تعمّدت أن أبدو مستعجبًا. حمل ثقيل نـــزل عن كتفيّ. وفرحتُ كأنّي قبضتُ مئـــة ألف ليرة.

فرق كبير بين أن أكون المتّهم الوحيد، فهذا يعني أنّي الفاعـــل، وبين أن أكون واحدًا في عداد بضعة متّهمين. صمّمت على نســـيان حكاية الجارور نهائيًّا. الطمع ضرّ ما نفع. ما جنيته من الجارور مبلغ جيّد، وإن كنت أجهل مقداره. لم أكن أعدّ ما أحصل عليه. كنـــت أتشاءم بالعدّ. البركة تغيب إذا عددت مالك. كانت تقول جدّتي، أمّ أمّي. لطالما فكّرت أن المال الذي أدخره يجب ألاّ يخرج مـــن مخبـــإه. فمتى شمّت الليرة الهواء طارت.

كنت غارقًا في هذه الأفكار، عندما سمعتُ إحدى الـــزميلات تناديني. وقفتْ بعيدةً لأنّها منذ مقتل أخيها الوحيد باتـــت تتجنّـــب المرور قرب البرّاد ورؤية الجثث. قالت إن الأخت كريستين تريد أن تكلّمني، وأن أترك كلّ شيء وآتي.

فوجئتُ وارتبكتُ. وألف وسواس هوى عليّ.

لم تعتد استدعائي على هذا النحو. حصل ذلك مرّات نـــادرة. يمكن تعدادها على أصابع اليد الواحدة. عوّدتني أن تأتي هي وتحدّثني هنا في البرّاد، أو تدعوني إلى اللحاق بها إلى الغرفة، حيث الجـــارور، وتكلّمني. إرسال ممرضة كي تبلغني أنّها تريد أن أذهب إليها، أمر غير مطمئن. لكن لا مفرّ من المواجهة.

تركتُ كلّ شيء وذهبت.

مكتبة الفكر الجديد

كانت تجلس على مقعد الزوّار، دفتر الإيصالات على ركبتها والقلم البيك الأزرق بين أصابعها في حركة مستمرّة. ومعها سيلفي، أقدم ممرّضات القسم، تسند جانبًا من مؤخّرتها الكبيرة إلى الطاولة حيث الجارور، والجوكر إيزابيل. كنّ ثلاثتهن ينتظرنني. دخلتُ وألقيت التحيّة. جذبت الراهبة من دفتر الإيصالات عشر ليرات، ومدّت يدها بها نحوي وطلبت أن أذهب إلى السوق القريبة وأشتري قفلاً جديدًا للجارور بحجم القفل القديم. وأعطتني القفل. تعمّدتُ النظر إليه مليًّا نظرةَ من لم يسبق أن رآه.

أخذتُ العشر ليرات ومشيت.

إنّها رسالة ذكية. واتّهام لي غير مباشر. أو ظنّ لم يرتدِ لباس التهمة.

أرادت الراهبة أن تفهمني أنّني موضع شكّ، ولعلّي الوحيد الذي تشكّ فيه، لذا اختارتني أنا تحديدًا لشراء القفل. فإذا لاحظتْ بعد تركيبه أنّ المال نقص، أو شعرت بشيء يثير الريبة، تأكّدت أنّني الفاعل.

فمن غير الذي يجلب القفل يقدر على صبّ نُسخٍ من مفاتيحه، ثمّ سرقة الجارور؟

مكتبة الفكر الجديد

40

لم أبحث عن باب رزق جديد بعد تغيير قفل الجارور وخسارة مدخول قناني الغاز والأوكسجين. لكنّ الحظّ مرّة أخرى شاء أن يعوّض عليّ. فهو يأخذ بيد ويعطي بالثانية.

كنتُ أحلق ذقن جثّة رجل ستينيّ. وكان اثنان من ذويه ينتظران إنجاز الحلاقة لأخذ الجثّة.

لا أدري لماذا فتحتُ فمه الذي لم يكن قد تيبّس بعدُ، فوجدت فيه ثلاثة أضراسٍ ذهب. خطر لي أن أنزعها واحتفظ بها ثم أبيعها. حاولتُ نزع الضرس الأوّل ففشلت. لم يكن لديّ وقت كافٍ لجلب شيء من المعدن كي أستعين به. فالرجلان في الخارج يلحّان أن أسرع، وغيابي، وإنْ بضع دقائق، ليس في محلّه.

خلعتُ السّاعة من معصمي، وبطرف القناة المعدن التي تلتقط الجلدة، رحتُ أعالجُ الضرس حتى اقتلعته. وبالطريقة نفسها نزعت الضرسين المتبقّيين. خبّأت الأضراس كلّها في جيب المريول. وكي أضمن أنّ أحدًا لن يكتشف ما فعلت، ربطتُ رأس الجثّة عموديًا وأفقيًا برباط من الشّاش حتى بات فتحُ الفم غير ممكن إلاّ في حال الضرورة. هذه الطريقة طالما لجأنا إليها عندما يتعذّر إغلاق الفكّين باللاصق العادي.

مكتبة الفكر الجديد

بعد انتهاء الدوام، صعدتُ إلى الغرفة وحرّرت التلبيسات من الأضراس. حذبتُ جانبًا من البطانيّة، ولففتُها به، وبكعب الحذاء مضيتُ أضربها ضربًا ضعيفًا حتى تبدّل شكلها.

ثمّ قصدتُ صائغًا أرمنيًّا. حين رأى الصائغ قطع الذهب الثلاث، قال إنّها من النوع الممتاز الذي يُستعمل قوالبَ تُلبّس بها الأسنان والأضراس. فوجئتُ بقوله هذا. وكدت أستردّ القِطع وأغادر. ربّما عرف من أين جئته بها، فأراد إخافتي كي يشتريها بسعر بخس. تفاديتُ أن أطرح عليه الأسئلة التي أيقظها استنتاجه.

فيما هو يحلق فيها، ويقلّبها بين أصابعه، قال إنّه يشتريها بثلاثين ليرة، أي الضرس بعشر ليرات. قلت له أردتُ أخذَ فكرة عن ثمنها لا بيعها.

لم أبعها ليس لعدم اقتناعي بالسعر بل لأعرضها على صاغة آخرين لعلّ أحدهم يدفع مبلغًا أكبر.

جمعتُ التلبيسات بورقة. ثم أخفيتُ الورقة في كيس الجوارب. قرّرت بيعها حين يبلغ عددها العشر.

في الأيام اللاحقة، رحتُ أفتح فم كلّ جثّة خلال تجهيزها. اكتشفتُ أن الأشخاص الذين أعمارهم تخطّت الأربعين قد يلبّسون أسنانهم وأضراسهم ذهبًا حتى لا يخسروها.

لم أجد في فم أحد من الذين هم دون هذا العمر، ضرسًا ملبّسًا بالذهب. لذلك، اقتصر اهتمامي على المسنّين.

لكنّي بين حين وآخر، كنت أتفقّد فم جثّة شاب إسكاتًا لشكّ وسوس لي بإمكان العثور على ما أبحث عنه. وغير مرّة، توفّقت. هذا دفعني إلى عدم استثناء أي جثّة ما دامت المحاولة لا تكلّفني شيئًا.

مكتبة الفكر الجديد

ففيما أنظّف الجثّة، أفتح الفم، أنظر إلى الفكّ الأعلى فـإلى الفـكّ الأسفل، فإذا وجدتُ تلبيسة، شهرتُ آلة حادّة تشبه شفرة السكين غير المسنون، واقتلعتُها.

لم يكن الاقتلاع يدوم سوى ثوانٍ.

كنت بأصابع يدي اليسرى أمنع الفكّين من الانغلاق، وبيـدي اليمنى أعالج التلبيسة بالآلة.

مرّات، يستغرق القلع وقتًا إضافيًا متى كانت التلبيسة مغـروزة جيّدًا، فأضطرّ إلى إنـزال الشفرة حتى أسفل اللثّة كي يَسهُل جذب التلبيسة. لا خشية من حصول نـزف مهما يكن عمـق الجـرح. فالميت إذا جُرِح لا ينـزف دمًا بل القليل من الماء. الدم يتجمّـد في شرايينه بعد توقّف القلب عن الخفقان.

على مهل، كنت أكبّ على الحالة الصعبة لئلاّ يحـدث مثلمـا حدث في أحد الأيام.

في ذلك اليوم، كان الضرس في الفكّ العلويّ ساقطًا من مكانه بسبب ذوبان الفكّ السفليّ بداعي الإهمال والتقدّم في العمر. مـا إن قرصتُ التلبيسة بالشفرة حتى انهار الضرس. على الفور، أخفيتـه في جيب بنطلوني ثم اتّجهت إلى الحمّام حيث نـزعت التلبيسـة منـه ورميت به في قعدة المرحاض.

أنجزتُ ذلك بالسرعة الممكنة.

خفتُ أن يراني روبير فأفتح عينيه على باب رزقٍ ما زلتُ غـير مصدّق أنّه لم يهتدِ إليه حتى الآن.

لم يكد يمرّ يومٌ من دون أن أظفر بتلبيسة، وأحيانًا بأكثر. كلّما أصبح لديّ عدد منها يستحقّ المجازفة، ذهبـت إلى الصـائغ الـذي

مكتبة الفكر الجديد

آنستُ إليه واعتدتُ التعامل معه. وكي لا تمضي به الظنون بعيـدًا، استدركتُ الموقف، فلم أنكر أن مصدر هذه القطع الذهب هو أفواه الناس. طبعًا ليس أفواه الموتى بل الأحياء.

أخبرته أنّ خالي يعمل طبيبًا للأسنان، يحتفظ بتلبيسات الذهب التي ينتزعها من الأفواه في علبة مخصّصة لهذه الغاية. وعنـدما يكثـر عددها يتصل بـي، فأبيعها، ويتبرّع بثمنها إلى العـائلات الفقـيرة، أو إلى كنيسة في طور البناء. فهو يستحي أن يبيعهـا بنفسـه كـي لا يُشاع أنّه يتاجر بالذهب الذي يجده في أفواه مرضـاه، فتتشـوّه سمعته.

ومن باب التضليل والتمويه، شرحتُ للصائغ أن هنالك مـادّة يسمّونها بالإنكليزية "كومبوزيت"، تحلّ محلّ التلبيسة فتصون الضرس المريض وتطيل أيامه.

ولَمحتُ خلال الشرح إلى أن ما يقوم به خالي ليس سرقة ما دام الشخص المعني لا يسأل عن مصير التلبيسة بعد نـزعها. ولعلّ مـردّ عدم السؤال هو اقتناعه أنّه استفاد منها بضعة أعوام، وأنّ الأوان حان لخسارتها وإنْ كان الثمن الذي دفعه لدى تركيبها مرتفعًا. إنّه يفضّل أن يربح ضرسه ويخسر التلبيسة، وليس العكس.

صدّق الصائغ الحكاية وأثنى على تصرّف خالي، وبات ينتظرني مرّة في الشهر.

قال إنّه يسلّم إلى المشغل القطعَ التي يشتريها مني، ويستردّها بعد أيّام أقراطًا أو أساور أو قلادات أو خواتم أو أيقونات.

تخيّلتُ الموقف الوجداني الذي قد تتخذه سيّدة أو شابّة عنـدما تعرف أنّ القلادة التي تزيّن بها عنقها، أو الأيقونة التي تتـدلّى علـى

مكتبة الفكر الجديد

صدرها، مصدرها أفواه الموتى. موقفٌ عشته على طريقتي بعد اقتلاع كلّ تلبيسة.

كنتُ كلّما لمستُ التلبيسة أو تذكّرتها، وهي في جيبـــي، قبـــل ضمّها إلى أخواتها، تراءى لي وجه صاحبها. حتى إنّي كنت أسترجع منظر جوف فمه. ذلك الشعور كان يتلاشى عندما أعدّ التلبيســـات التي تصبح بعد ثني أطرافها متشابهة. فيتعذّر عليّ معرفة لمـــن هـــذه التلبيسة، ومن أيّ فكّ اقتُلعت تلك.

كان على حقّ ذاك الغريب الذي همس لي في أحد الأيّام: "البرّاد مزراب ذهب".

مكتبة الفكر الجديد

41

خطفني الملاعين.

عندما استعدتُ وعيي، عرفتُ أنّه حدث الذي لطالما خشيتُ حدوثه.

أذكر أنّي كنتُ أجهّز جثّة وقت نزول ضربة قويّة على رأسي.

لم أفقد الوعي فورًا.

رأيتُ، وأنا أهوي، الصليب المُحاط بلمبتين، صلبانًا كثيرة متلاصقة وعددًا هائلاً من اللمبات.

موقع الضربة يؤلمني. أشعر بالحاجة إلى حكّه، ولا أستطيع. يداي وراء ظهري مربوطتان بحبل، ورِجلاي كذلك. وعلى فمي لاصق بلاستيكي، وعيناي مقفلتان بخرقة من القماش، قد تكون مقصوصة من قميص خلعه للتوّ أحدهم. فهي لا تزال محتفظةً بالرائحة التي يخلّفها تعب الأبدان.

أخيرًا عثر عليّ قاتل عزيزي.

كنتُ ظننتُ أنّه نسيني في غمرة هموم الحرب.

لكن من دلّه عليّ؟

سؤال مستغرب ما دمتُ أشتغل في مستشفى يزوره المئات يوميًا.

مكتبة الفكر الجديد

لطالما توقّعت أن يراني أحدٌ من الرفاق القدامى ويشي بي. فغالبيتهم يعلمون صلتيَ العميقة بعزيزي، وربّما يعلمون أيضًا، وإن لم يعترفوا، الأسباب التيّ قضى من أجلها، والعقل الذي دبّر قتله، والشخص الذي نفّذ.

لا شيء يبقى مخفيًا، لكنّ الأسرار، وخصوصًا المتصلة بعمليات القتل، تلبث مستورة، وإنْ اكتُشَفت.

اكتشافها يضاعف سريّتها. وقد تفضي معرفتها إلى القبر.

علاقتيَ الوثقى بعزيزي لم تطمئن قاتله، فسعى إلى الخلاص منّي. انتظرَ بعض الوقت كي لا يُربط مقتلي بمقتل عزيزي. قتلُ اثنين تجمعهما صداقة معروفة في ظروف غامضة يترك علامات استفهام.

صحيح أن الدنيا حربٌ، وفي الحرب كلّ شيء مستباح، لكنّ هنالك أمورًا إذا لم تستوقف السلطة الشرعيّة المتهالكة، فالحزب لن يسكت عنها.

ليس عزيزي الوحيد الذي بموته أخذ أسراره معه. كثيرون غيره اختفوا في أحوال مبهمة، وعُثر على جثثهم تحت الجسور وقرب المزابل وعلى الشواطىء. ولم يجسر أحدٌ على الاستفسار عن سبب موتهم.

في أحيان كثيرة، كنّا نعرف السبب ونمسك عن البوح.

كان الخوف من أن نلقى المصير نفسه يجعلنا بكُمًا وصُمًّا.

نطمر الأسرار في قاع الذاكرة. ونمارس أقسى القمع على ذواتنا لئلاّ تفلت من أفواهنا كلمة قاتلة.

النسيان يعادل الحياة.

مكتبة الفكر الجديد

وعدم الإكثار من الأسئلة مزيّة الأذكياء. السؤال قد يقود إلى الموت، لأنّه إشارة إلى الشكّ. والشكّ لا يستكين إلاّ بعد بلوغ الحقيقة. والحقيقة مكلفة.

أنا لا أميل إلى طرح الأسئلة منذ أيّام المدرسة. لكن بعد الذي حدث، نخرت أسئلة كثيرة تفكيري.

من خطفني؟ ولماذا؟

كيف اختُطفت من المستشفى، وتحديدًا من داخل البرّاد؟

هل كانت الأخت كريستين حاضرة لدى ضربي واختطافي، وماذا كان ردّ فعلها؟

كم واحدًا كانوا، وكيف هي أشكالهم؟

لماذا رموا بي في هذا المكان ورحلوا؟

متى يعودون؟

وإذا عادوا فماذا يفعلون بي؟

هل المكان المحتجز فيه غرفة مسكونة أم مهجورة، وفي أيّ منطقة؟

هل يراقبني أحدٌ وهو يجلس في الغرفة صامتًا؟

أتعمّد عدم الإتيان بأيّ حركة، فلا أسمع ما يثبت لي أنّ هنالك شخصًا آخر.

عرفوا ماذا فعلوا عندما تركوني بلا رقيب. فكيف بإمكاني، وأنا مُكبّل، الهروب أو طلب النجدة.

لا صوت يتناهى إليّ من الخارج. كأنّي في مكان معلّقٍ في الفضاء أو تحت الأرض.

أستلقي على ظهري لأستكشف بيديَّ الأرض. إنّها مكسوة بطبقة من الغبار تدلّ على أنّها غير مأهولة، أو أنّ ساكنيها غير مبالين بالنظافة.

مكتبة الفكر الجديد

بعد جولة أتممتها زحفًا، تبيّن أنّ الغرفة خالية من الأثاث.

بصعوبة استطعت الوقوف.

برأسي وكتفي مضيت أتحسّس الجدران على سبيل الاكتشاف. غرفة بلا نوافذ تمامًا كالبرّاد.

ما أبشع البيوت التي لا تكثر فيها الشبابيك. تغدو شبيهة بالمقابر.

في مثل هذه الأيّام من السنة الماضية، عشتُ متشرّدًا، نمتُ على مداخل البنايات وفي السيّارات من دون عِلم أصحابها. وأمضيتُ النهار في الشوارع فَرِحًا بالمفاجآت التي يكتشفها الغريب عندما يزور مدينةً أوّل مرّة. كلّما تذكّرتُ تلك المرحلة تمنّيت لو لم أتخلَّ عنها وأذهب إلى الثكنة. برغم الجوع والعطش والفقر والوحدة، كنت سعيدًا. في الأقلّ، لم أكن أمشي وألتفت ورائي خائفًا من نظرات الناس مثلما رحتُ أفعل بعد مقتل عزيزي وتركي حياة العسكر. الندم لا ينفع. ما حدث قد حدث.

الوقت يمرّ بطيئًا. أشعر بغربة عن الزمان والمكان. بدأت أجوع. الجوع دليلي إلى معرفة الوقت. وهو الآن يشير إلى أنّ الساعة تعدّت الثانية ما بعد الظهر. في المستشفى تعوّدت أن أتغدّى قرابة الثانية عشرة. المرجّح أنّي اختُطفت قبل ساعتين من موعد الغداء.

يأخذني تعب الانتظار إلى إغفاءة عابرة برغم دوران الذبابة حول رأسي، واتّخاذها الجرح منبرًا تدعو منه أخواتها إلى الوليمة. أحلم أني في البرّاد. جثّة تنتصب أمامي. تطاردني. أهرب. عندما أصبح على مرمى يدها. أضاعف السرعة. أستدير، أرى الجثّة تتفكك. الجمجمة تتدحرج ورائي مُصدرةً قهقهة مخيفة. أستيقظ.

مكتبة الفكر الجديد

أتفاءل خيرًا، فالجثة لم تقبض عليّ. لو فعلت لكان ذلك علامة شؤم. كثيرًا ما سمعت أن الحيّ إنْ لبّى في المنام نداء ميت فسيكون عُرضةً لمكروه.

هل ينتظرني مكروه أشدّ من هذا المكروه؟

أكذب إذا قلت إنّي لستُ خائفًا. سلّمتُ أمري إلى الله ما دام لا شيء يحدث من غير علمه. فإذا شاء أن يستردّ وديعته، فليكن. لعلّ في ذلك عبرة أبعد من إدراكي. ترقُّبُ دنوّ تلك الساعة، ساعيّ، عقاب قاسٍ. وانتظار لحظة القتل تمرين صعب على تقبّل فكرة الموت.

ليتهم لم يخطفوني إذا كانوا ينوون قتلي.

كان يمكنهم القضاء عليّ برصاصة خارج المستشفى، وأنا أمشي كعادتي في الشوارع كي أتنشّق هواء خاليًا من روائح الجثث ومبيدات الميكروبات. يكمنون لي في أحد الزواريب، ويجهزون عليّ ويفرّون.

قد يقتلونني بعد استجوابي. ربّما يرجئون قتلي إذا ظنّوا أنّي أفشيت بالأسرار إلى آخرين لأنّي بذلك أحمي نفسي إذ يصبح قاتلي مكشوفًا لدى هؤلاء. الأسرار هي الأدلّة التي ستقودهم إليه. هذا الافتراض هو الذي يجعله متريّثًا. لعلّه يلوم نفسه على تركي طليقًا طوال هذه المدّة.

المشكلة أن لا أسرار لديّ.

إذا قلتُ لهم إنّي لا أعرف شيئًا، وإنّ عزيزي لم يطلعني على أيّ من أسراره، فلن يصدّقوني. عدم التصديق قد يدفعهم إلى تعذيبي حتى أخاف، فأقول كلّ ما عندي، وأذكر أسماء الذين أودعتهم الأسرار.

مكتبة الفكر الجديد

وإنْ لبثتُ على موقفي فمن الممكن أن يتفننوا في أساليب التعذيب كي تُفكّ عقدة لساني وأتكلّم. تلك الأساليب معروفة، وطالما سمعت عنها من رفاق مارسوها هم أنفسهم على أسرى ومخطوفين. أو مورست عليهم أو على أحد أقربائهم في معتقلات العدو.

من الغباوة أنّ أختلق أسرارًا لكي أتفادى الضرب والإهانة. فقد يكتشفون أنّي أكذب. إذ ذاك يجزمون أنّي أختلق الأكاذيب من أجل تضليلهم.

وهذا ليس في مصلحتي.

القول إنّي لا أعرف شيئًا (أو عدم الاعتراف بالنسبة إليهم) أفضل من الكذب. مستحسن أن أكون صادقًا، وأقنعهم بأنّ ما أقوله هو الصدق بعينه، وإنْ ضربوني وشتموني وأذلّوني.

مصيبة كبيرة أوقعني القدر فيها، وليس لي سواه كي ينقذني منها.

أترقّب مجيئهم متهيّبًا المصير المجهول الذي ينتظرني.

لا أتوقّع أن يستجوبني قاتل عزيزي بنفسه. يوكل المهمّة إلى أحد أتباعه. لن يكون هذا التابع من الذين أعرفهم ويعرفونني، لئلاّ تؤثّر في الاستجواب ذكريات الماضي ورفقة السلاح. ينتقيه من الجدد، ودومًا هنالك جدد، يزوّده الأسئلة التي سيطرحها عليّ، والطريقة التي ينبغي له اعتمادها في حالتَيْ الاعتراف والتمنّع عن الإفصاح.

هذا التابع المأمور لن يأتي منفردًا. سيرافقه في الأقلّ، شخصان. محتمل أن يكونوا هم ثلاثتهم نفّذوا عملية خطفي. فالأجدى في

مكتبة الفكر الجديد

مهمّات كهذه أن يُقتصر عدد المشاركين على اثنين أو ثلاثـــة. قلّـــة العدد تحصر السرّ، وترشد سريعًا إلى مَن يفشـــيه. هـــذا الأســـلوب يعتمده رجال الأمن والمخابرات.

هُيّىء لي أنّ هنالك حركة في الخارج. اســـتمرّت لحظـــات. لم تكن وقع أقدام. ربّما ناتجة من الهواء أو من مرور حيـــوان. ألصـــقُ رأسي بالباب لعلّي ألتقط مصدرها فلا أسمع سوى الصـــوت الـــذي تحدثه السكينة العميقة.

قد تكون تلك الحركة انطلقت من داخل رأسي الذي تستبدّ به التخيّلات.

بقيتُ قرب الباب قاطعًا تنفّسي حتّى لا يفوتني سماع الحركـــة لدى حدوثها مجدّدًا.

فيما أنا على هذه الحال، خطر لي احتمال أن لا يكون مقتـــل عزيزي وراء اختطافي. ربّما نابليون شاء أن يتخلّص منّي كي لا يترك شاهدًا على سرقة حقيبة الصائغ. قَتَلَ نانو شريكنا الثالث في العمليّة، وجاء اليوم دوري. إنّه مستعدّ لتصفية كلّ من قد يشـــمّ صـــورته. يخاف ألاّ أحتفظ بالسرّ، فيتسبب إفصاحي عنه بقتله. فالأسرار تُباع. والاتّجار بها مشروع. وهو يعرف ذلك.

لماذا انتظرَ نابليون طوال هذه المدّة حتّى يقرر تصفيتي؟

لا أذكر متى حدثت السرقة تحديدًا. ربّما قبل عشرة شهور. مع أنّ فصولها ماثلة في ذهني كأنّها تجري الآن.

من الممكن أن لا تكون الحقيبة سببًا لاختطافي. فلو أردتُ فضح عملية السرقة لفعلت ذلك. وَعَدْتُ نابليون عندما التحقتُ بوحدتـــه بأنّ كلّ ما أراه وأسمعه لن يعرفه أحدٌ. والتزمـــت الوعـــد. رأيـــتُ

مكتبة الفكر الجديد

تجاوزات كثيرة وسمعت أخبارًا عن تجاوزات تُعدّ سرقة الصائغ مقارنةً بها عملية صغيرة.

كل ما عرفت به ورأيته وشاركت فيه تركته في الثكنة حالما خرجت من بابها.

استبعاد السرقة قادني إلى احتمال جديد. فالصائغ أصيب خلالها. رأيتُه يضع يده على بطنه ويرتمي على مقدّم سيّارته بعدما أطلق نانو النار عليه. إنْ لم يمتْ في اللحظة نفسها، فهو حتمًا نُقل إلى المستشفى. وقد يكون علاجه دام أشهرًا ثم تُوفّي. ولكي لا يُبقي نابليون شاهدًا واحدًا على جريمته، خطفني تمهيدًا لقتلي.

صحيح أنّ نانو أطلق النار على الصائغ لكنّ نابليون هو مدبّر العمليّة والمنتفع الوحيد منها. مصلحته تقتضي أن يقتل نانو ويقتلني. يخشى أن يفشي أحدنا، أو نحن الاثنين، السرّ ما دمنا غير مستفيدين بشيء. قتلُنا يبعد عنه التهمة أو يجعل الوصول إليه صعبًا. فلا شهود على السرقة سوانا. رقم السيّارة التي استخدمناها في العمليّة (ربّما دوّنه أحد العابرين وسلّمه إلى الجهات المختصّة) لن يفيد المحققين ما دامت السيّارة مسروقة.

وممكن أيضًا أن الصائغ قضى متأثرًا بجروحه، فشاء أهله الثأر لعلمهم أن اللجوء إلى القضاء في الحرب، ليس مجديًا. وبعد بحث وتدقيق طويلين، عرفوا أسماء الجناة وأمكنة إقامتهم. وأرادوا التخلّص منهم. واستدعوا مرتزقة للقيام بالمهمّة، إذا كانوا هم ليسوا أهلاً لها، أو لا يرغبون في تلويث أيديهم بالدم. نجح هؤلاء المرتزقة بالإجهاز على نابليون ونانو لسهولة معرفة مكان وجودهما ورصد تحرّكاتهما. وبقيت أنا حرًّا لكوني مجهول الإقامة. لكنّهم في الأخير عثروا عليّ.

مكتبة الفكر الجديد

لا أدري من أرشدهم إليّ. ولا كيف عرفوا أنّي أشتغل في المستشفى، وتحديدًا في البرّاد، المكان الذي اختطفوني منــه. المنطقـــة صــغيرة. والمخبرون والواشون يمرحون فيها. بإمكانك أن تتوارى عن الأنظار بعض الوقت وليس كل الوقت.

لو أن لديهم أمرًا بقتلي لقتلوني. أرجــأوا قتلــي مــن أجــل استجوابـــي. يريدون معرفة أسماء شركائي بعدما وجدوا في القبض عليّ رأسَ الخيط الذي سيرشدهم إليهم.

أمّا إذا كانوا قتلوا شريكيَّ فمن الممكن أنّهــم يبحثــون عــن معلومات لم يحصلوا عليها منهما، مثلاً مكان الحقيبة. لعلّها تتضــمّن وثائق سريّة ومستندات خطرة، وحده نابليون يعرف بها. ظننـــتُ أن الحقيبة تحوي مجوهرات ما دام حاملها صائغًا. يأخــذون المعلومــات التي يحتاجون إليها ثم يقتلونني ويتركونني جثّة. ومتوقّــع أن يتــولّى الاستجواب بضعة أشخاص، كلّهم مقرّبون من المغــدور. بعضـــهم يشارك في طرح الأسئلة، وبعضهم قد يجيء لرؤية وجه المجرم الـــذي هو أنا.

مفاجأة المفاجآت أن يكون المستجوِب هو الصائغ نفسه. ممكن أنّه نجا. وأراد استرداد الحقيبة والاقتصاص ممن أذوه وكادوا يقتلونه.

لا أتخيّلني في مشهد كهذا.

الرجل الذي حاولنا قتله يحقق معي.

بماذا أردّ عندما يسألني لماذا أردت قتله؟

لن يصدّقني إذا رويت الحقيقة ولا شيء غيرها.

والحقيقة أنّي وجدت نفسي في المقعد الخلفي لســيّارة ترصــد خروجه من المحلّ فحلوسه وراء مقود سيّارته. ثم تتعقّبــه الســيّارة.

مكتبة الفكر الجديد

يترجّل سائقها، يهدّده، يضربه بعقب المسدس على رأسه، ويعود بحقيبة سوداء وهو مُصاب في زنده.

لا ألومه إنْ لم يصدّقني. أفعل مثله لو أنّي مكانه.

أحكي ما حصل بكلّ صراحة، وله أن يأخذ الموقف الذي يمليه عليه ضميره.

هذه الافتراضات أعادتني بالزمن إلى الوراء، إلى حوادث كنت شاهدًا عليها، أو مشتركًا فيها، أو عالمًا بها. وأحدها هو سبب وجودي هنا، في هذه الغرفة، مكبّلاً، جائعًا، خائفًا.

أسترجع عينيّ دومينو، وهما تلمعان بالتهديد المبطّن عندما ودّعته أنا وغيفارا وحنكليس في الكباريه، ليلة راح يدبّ على الأربع، والصبايا يتناوبن على امتطائه. قد يكون شاء ردّ الاعتبار إلى رجولته المهدورة ليلتذاك، بقتل الشهود. مَن مثله لا يتورّع عن إيذاء الناس لسبب كهذا. يُشاع أنّه أطلق النار على سيّدة لأنّ قميصه ابتلّ بماء نزل عليه من الثياب المنشورة على شرفة بيتها. وقالوا إنّه حجز حريّة مدرّسة اللغة الفرنسيّة في مكان مجهول لأنّها لم تضع علامة عالية لابنة أخته. وقالوا إنّه رمى قنبلة يدويّة إلى داخل غرفة نوم جاره لأنّ الأخير رفع صوت الراديو خلال قيلولته.

من يتصرّف هكذا لا يردعه عقله عن فعل أيّ شيء.

لا يهمّه من شهود تلك السهرة، النُدل ولا صاحب الكباريه، ولا الفتيات اللواتي ركبنه، ولا زميلاتهن اللواتي كنّ من أمكنتهن يتابعن المشهد. هؤلاء جميعًا لا يعرفون من هو، ولا ماذا يفعل. يعرفون أنّه أزعر شرس، ينفّذ التهديد إذا هدّد، ويمكنه أن يقفل الكباريه عندما يريد.

مكتبة الفكر الجديد

مَن يهمّونه هم نحن الثلاثة، لأننا على صلة بأزلامه. نشرنا الفضيحة بينهم قد يقضي عليه ويحوّل مجده نكتةً يتناقلها كارهوه بكثير من الشماتة. ويتندّر بها محبّوه غير مصدّقين أن فتيات الكباريه امتطينه، وأن إحداهن راحت تصفعه على قفاه مُقلّدة الكابوي عندما يضرب بالكرباج قفا حصانه كي يحثّه على مزيد من السرعة. حين يفقد هالته يخسر احترام أتباعه له. فما من مرؤوس يحترم رئيسه بعد أن يتخيّل فتاة تمتطيه على المسرح، وهو يدبّ على الأربع. واقع يرفضه دومينو الذي اعتاد أن تخافه الناس، وأن يحنوا الرؤوس لدى مروره، وأن يقبّلوا يده كي يرضى عنهم.

واردٌ أن يكون هذا ما حصل. سُرّبَ الخبرُ بطريقة ما وذاع. خبر كخبر الكباريه لا يموت، وإن مضى عليه وقت طويل. نسيتُ تاريخ سهرتنا في الكباريه مع أنّه تاريخ متعذّر نسيانه، لأنّه يقع يوم سقوط واحدة من أهم المناطق التي كانت تحت سيطرة أعدائنا.

أتخيّل دومينو، لحظة سماعه الخبر، يضرب بيده الطاولة، مقسمًا بشرفه أنّه سيقتل كلّ من أسهم في تلويث صيته. وللحال يجنّد أزلامه للردّ على الحملة التي يشنّها عليه المتضررون من وجوده في الحزب مُطلقين شائعات تسيء إلى سمعته، على غرار شائعة الكباريه. أول الذين سيشكّ فيهم هم أنا وغيفارا وحنكليس. ممكن أنّه خطفهما، كلّ على حدة، واستجوبهما. فبقي أن يحقق معي أنا. لا بدّ من أنّه بذل جهدًا حتّى عرف مكان عملي. غيفارا وحنكليس لم يتركا الحزب. ومن السهل العثور عليهما، في الثكنة أو في محل الفليبيرز قبالتها، أو في أحد المتاريس. إنْ لم يجدهما في هذه الأمكنة، يجدهما في الكباريه حيث تحوّل حصانًا ركبته أربع فارسات. وممكن أن يكون

مكتبة الفكر الجديد

أحدهما الفاعل، فنفى، واتّهمني أنا ورفيقنا الآخر، بفضح السرّ. وهذا دفع دومينو إلى القبض عليّ ليسمع أقوالي، ثم يقرر إمّا تخلية سبيلي أو لا أدري ماذا يفعل بـي. وممكن أن غيفارا وحنكليس اتفقا على إلباسي التهمة ربما ليس من أجل التضحية بـي، بل لظنّهما أنّي غادرت إلى الضيعة، وأن الوصول إليّ بالغ الصعوبة. وممكن أن دومينو في ساعة جنون صمّم على التخلّص منّا، ثلاثتنا، لكن بطريقة منفردة وبخطّة مدبّرة.

هكذا يدفن الفضيحة معنا.

قضى على غيفارا وحنكليس، ولم يبقَ سواي.

يردّني إلى الواقع دويّ قذائف مفاجيء. لا أسمع صوت انطلاق القذيفة بل صوت انفجارها. تمنّيت أن تسقط قذيفة على مقربة من مكان احتجازي، فيخلع عصفُها الباب. إذا حدث ذلك، أهرب زحفًا، ألتقي أيّ عابر سبيل يساعدني على تحرير يديّ فقط. وأتولّى أنا تحرير رِجليّ ونزع اللاصق عن فمي والخرقة عن عينيّ.

ثم أتوارى.

أتجنّب العودة إلى المستشفى إلاّ لجلب دفتر التوفير المخبّأ أسفل الخزانة.

أعود مرّة واحدة وأختفي في قرية جبليّة، تحت اسم مستعار، استأجر بيتًا صغيرًا، وأختبيء إلى أن يفرجها الله.

كُتب عليّ العيش قَلِقًا منذ حادثة الأستاذ. وقررت المواجهة. لم يكن في اليد حيلة.

كانت أصداء انفجار القذائف لا تزال تتردّد، عندما سمعتُ حركة غير اعتيادية. حركة لا تشبه الحركة التي سمعتها قبل قليل.

مكتبة الفكر الجديد

سمعتُ خبط أقدام وأصواتًا متقاطعة.

جاؤوا.

حتمًا إنّهم هم.

تغيّرت دقّات قلبـــي منذ راح المفتاح يدور في قفل الباب. وبدأ العرق البارد ينساب من جسمي.

فُتح الباب. دخل أشخاص لم أستطع معرفة عددهم.

رفعني أحدهم عن الأرض حتّى اتّخـــذتُ وضـــع الراكـــع. ثم نـــزع اللاصق عن فمي كي يصبح في مقدوري الكـــلام. شـــعرت بالحاجة إلى حكّ مكان اللاصق، فطلبت أن يفكّ الحبل المربوطة بـــه يداي. فلم يستجب.

لم تبدر منهم كلمة.

حتّى خطواهم كانت معدودة، تكاد تكون بلا وقع.

أسمع أنفاسهم لفرط الهدوء.

ماذا يفعلون؟

لَم هم ساكتون؟

لماذا لا يستجوبونني؟

ماذا ينتظرون؟

تخيّلتهم ينظرون إليّ، في أيديهم عِصي أو جنازير مـــن الحديـــد يتأهّبون لضربـــي بها قبل بدء الاستجواب. الضرب أفضل الطـــرق لجعل المتهم يعترف بالجرم الذي اقترفه. وأحيانًا قد يعترف بجـــرم لم يرتكبه كي يضع حدًّا للتعذيب.

وددتُ أن يشتموني حتّى أسمع أصـــواهم. إنْ فعلـــوا تنـــزل الشتيمة عليّ أغنيةً عذبة. لكنّهم لبثوا هادئين كأنّهم ابتلعوا ألسنتهم.

مكتبة الفكر الجديد

سألتهم لماذا خطفوني، وماذا يريدون مني.

كنت كأنّي أسأل نفسي.

ظلّوا صامتين.

أجهل السبب الذي جعلهم ينـــزعون اللاصق عن فمي. قرّرت الاستفادة من الفرصة، فأحكي عن علاقتي بعزيـــزي، عـــن ســـرقة الصائغ، وعن ليلة الكباريه...

لكنّي فضّلت التريّث. لربّما نصبوا لي فخًا. أزالوا اللاصق كي أستطيع الكلام. وراهنوا على أنّي سأتكلّم ما داموا هـــم صـــامتين. وهكذا قد تفلت مني كلمة تكون هي الكلمة التي ينتظرون سماعهـــا، فيطبقون عليّ أسنان الفخّ.

صمتت أنا أيضًا. ليتهم يردّون اللاصق إلى فمي.

لا أعرف لماذا في هذه اللحظات فكّـــرت في امـــرأة الهونـــدا البيضاء، وما جرى في الليلة ما قبل الأخيرة في معسكر التدريب.

لعلّ مدبّر عمليّة خطفي، رفيقها الذي توسّل إلينا في تلك الليلة، أن نأخذ ما نريد حتّى السيّارة، ونتركه ونترك صديقته يغـــادران في سلام.

إن لم يكن هو وراء العمليّة فليس هنالك سوى أخيها أو أبيها على استعداد للثأر ممن لوّث شرف العائلة. وربما زوجها إذا كانت متزوّجة.

وممكن أن تكون هي نفسها شاءت الانتقام. لعلّهـــا تصـــاحب واحدًا من المتنفّذين في الحزب، أو من قبضايات الحـــرب، وأخبرتـــه بحادثة اغتصابها. فانبرى هذا لمهمّة الثأر كي يكسب رضاها، ويثبت لها أنّه يحبّها. حصل على أسمائنا، وراح يبحث عنّا. عثر على الزرزور وشكسبير وقتلهما. واليوم حان دَوْري.

مكتبة الفكر الجديد

وربّما هي المُخططة للعمليّة برمّتها. استعانت بقتلة مأجورين كي تأخذ حقّها بيدها.

همتُ أن أحكي تفاصيل تلك الليلة المشؤومة. لكنّي لم أفعل.

تراجعتُ لأنّهم لن يصدّقوني إذا كشفت أن لا صلة لي بالقصّة كلّها، وأنّي كنت موجودًا لكنّي لم أؤذِ الرجل. ولم ألمس المرأة. سيقولون مَن يعفو عن مضاجعة امرأة جميلة، وهي مُتاحة له، ليس رجلاً بل هو لوطيّ.

ويعدّونني دجّالاً إذا قلتُ إنّي حاولتُ منع الزرزور وشكسبير عمّا كانا ينويان فعله، لكنّهما لم يصغيا إليّ.

الكذب يثبت التهمة عليّ. فما من أدلّة تؤكّد أنّي صادق. لو أن القَسَم دليل كافٍ لأقسمت على الكتاب المقدّس أنّي ما أقوله هو الحقيقة بدون زيادة ولا نقصان.

الصمت المستمرّ ألحّ عليّ أن ألجم اندفاعة مثل هذه الأفكار.

لولا أصوات تنفّسهم وتكّات القدّاحات لدى إشعال السجائر ورائحة السلاح الذي يحملونه، لظننتُ أنّهم أشباح.

بعد تفكير، قررت أن أحكي لعلّي أفكّ عِقد ألسنتهم.

بدأت بسرد ليلة الاغتصاب. لا أعرف لماذا اخترت هذه الحادثة تحديدًا.

حكيت ما جرى من لحظة مغادرتنا المعسكر إلى لحظة العودة إليه. كنت أسترجع المشاهد وأصفها وصفًا دقيقًا. إذا كانوا أذكياء يطلبون مني إعادة الرواية كي يكتشفوا هل صادق أنا أم لا. فإنْ كنتُ أكذب فمن السهل معرفة ذلك. شبه مستحيل أن يعيد الكاذبُ الروايةَ نفسها مرّتين من دون إضافة وحذف، وتقديم وتأخير.

مكتبة الفكر الجديد

وددتُ أن يقاطعوني لأعرف مدى تأثير كلامي فيهم.

مرارًا، تعمّدت قطع السرد كي أثير فضول أحدهم فيأمرني باستئناف الرواية. ولم تمرّ حيلتي عليهم.

طلبتُ ماء. طلبتُ طعامًا. طلبتُ سيجارة، مع أنّي غير قادر لا على الشرب ولا على الأكل ولا على التدخين.

لم يردّوا عليّ.

مضيت أحكي عن أمور شخصيّة متفرّقة. أحكي كي أطرد الخوف الذي يخلّفه الصمت فيّ.

كان صوتي يؤنسني. وأتسلّى بالحكايات التي أسردها.

يبدو أنّهم اكتشفوا ذلك فأسكتوني حتّى أظلّ سجين الوحشة.

بلا مقدّمة، دنت مني يدان وأغلقتا فمي مجدّدًا بالشريط اللاصق. شممتُ رائحة الشريط مختلطةً برائحة التبغ، التي يتركها احتراق السيجارة على الأصابع.

بمقدار ما أزعجني حرماني الأنس الناجم عن صوتي، أفرحني.

شعرتُ أنّ حرّاسي ينصتون إليّ وليسوا غير مبالين.

تلا ذلك أمرٌ كنت أتوقّع حصوله آجلاً أم عاجلاً. بل رحت أنتظره لأعرف مصيري.

أربع نقرات على الباب هزّت سكينة المكان، اثنتان متلاحقتان ثم فاصلٌ قصيّر فنقرتان أخريان. كأنّها علامة متفق عليها سلفًا.

لم يسبق النقراتِ وقعُ أقدام أو حركةٌ تدلّ على أن أحدًا في الخارج.

لعلّ الزائر ينتعل حذاءً رياضيًّا لا يُصدر لدى المشي صوتًا كالصوت الذي يُصدره حذاءٌ ذو نعل. أو لعلّه تعمّدَ بلوغ الباب

مكتبة الفكر الجديد

على مهل كي يُتاح له التنصّت علينا، نحن الذين في الغرفة، لغايـــة في نفسه.

هبّ حارسٌ وفتح الباب، وأحدث الآخرون جلبة ضعيفة تأهّبًا لاستقبال الزائر الذي لا بدّ أنّهم كانوا ينتظرونه.

ربّما هو من لديه سلطة الحلّ والربط وتقرير مصيري.

أُغلق الباب.

لم أعلمِ هل بقي معهم أم رحل. ربّما حادثَ الحرّاس بالإشارة وغادر بهدوء تمامًا مثلما أتى.

تمنّيت أن يكون هو رفيق المرأة المُغتصبة، لأنّه يعرف أنّي بريء. فيعفو عنّي. بل يعتذر إليّ. وإذا كان راغبًا في تصفية جميع الشـــهود لطمس الفضيحة، فحتمًا سيأمر بقتلي.

هذا الافتراض يفضي أيضًا إلى أنّ مصير حرّاسي لـــن يكـــون أفضل من مصيري ما داموا عارفين بالفضيحة.

أمّا إذا كان الزائر شخصًا آخر غيره، فحظوظي في النجاة ضئيلة.

قد أنجو إذا كان امرأةً هذا الزائر الذي لم تأتِ منه أي علامـــة تدلّ على جنسه. هذه المرأة لن تكون سوى امرأة الهونـــدا. فهـــي تعرف من ضربها ونالها بالقوّة.

لكنّ ماذا لو أنّها ما رأت وجوهنا جيّدًا في الليل. إذ ذاك لـــن تعرفني. ولن تعرف أنّي أنا الذي كان جالسًا على رزمة الأغصـــان اليابسة، يراقب ما يجري.

جاءت لتراني.

جاءت لترى الشخص الثالث الذي قد يكون أحد مغتصـــبيها، أو الشاهد على اغتصابها.

مكتبة الفكر الجديد

وبعدما رأتني أمرت بقتلي وغادرت، أو بقيت صامتةً لترى الميتة التي سأموها.

تخيّلت الزائر قاتل عزيزي.

تخيّلته الصائغ.

تخيّلته نابليون.

تخيّلته دومينو.

حاولتُ أن أتكلم. لكنّ الكلمات كانت تصطدم باللاصق فتتحوّل همهمات وأصواتًا مكتومة.

كان الصمت سائدًا عندما دوّت رصاصة.

ظننتُ أنّها أطلقت خطأً.

لكنّ شعلة النار التي هبّت في معدتي، دحضتْ هذا الظنّ. فالرّصاصة استقرّت في أحشائي.

حسبتُ ذلك مجرّد تهديدٍ ممهّدٍ لاستجواب صارم. لو أنّهم يريدون قتلي لأطلقوا النار على رأسي وليس على بطني.

ثم دوّت الرّصاصة الثانية.

فالرّصاصة الثالثة.

استفقتُ على ضفّة النهر الذي يمرّ في منطقة صناعيّة.

كان أسفل جسمي في الماء ورأسي على الحصى. ومطر بطيء يغسل وجهي، وعصفوران دوريّان قربي فرّا طائرين حالما تحرّكت.

كنتُ لم أزل موثوق اليدين والرِجلين، واللاصق على فمي. أمّا عيناي فتحرّرتا من خرقة القماش. لم أدرِ هل نزعها أحد الحرّاس قبل إخراجي من الغرفة، أم نُزعت وحدها.

مكتبة الفكر الجديد

رموني تحت الجسر.

وهو أحد الأمكنة المفضّلة لرمي الجثث التي يذهب أصحابُها ضحايا السرقات وتهريب المخدّرات وتصفية الحسابات الشخصيّة.

بين الحياة والموت، رحتُ أنادي بعينَيَّ المرتجفتين ظلال العابرين على الجسر.

مكتبة الفكر الجديد

حارس الموتى

جورج يرق

• كاتب من لبنان لـه رواية «ليل» (2013).

ما جعلنـــي أقبل الاستمرار في العمــل بالبرّاد هو الحبّ. لولاه لما صمدت طوال هذه المدّة. فأنا الوحيد من جميع الذين سبقوني لم يدر ظهره ويرحل بعد شهر أو شهرين.

أوّل مـرّة أختبـر مثل هذا الشعور الجميـل والمُعذِّب في الوقت نفسه.

مـرّات، كان يمضـي التوهّم بي إلى مـكان لا أجرؤ على بلوغه في حال الوعي التامّ.

مثــلًا، كتبتُ لها رسالة، قلت فيها إنّي أحبّها، ولولاها لما بقيتُ في البرّاد لحظة واحدة.

احتفظــتُ بالرسالـــة أيّامًا. ثم برأس سيجـــارة مشتعلة أحدثت فيها ثقوبًا، ومزّقتها.

شممتُ رائحة الكلمات مع كلّ ثقب.

كان قلبي هو الذي يحترق وليس الرسالة.

مرّةً، قرّرتُ أنَ أفصح لها عن إعجابي، وجهًا لوجه، ونحن نهيّىء جثّة، أو أغتنـم فرصة مؤاتية تصلح لبوح كهذا. هيّأنا معًـا جثثًا كثيرة، وتسنّت لي فرص كثيـرة ولم أفصح، فبقي القرار معلّقًا.

ظننتُ أنّ اعترافي يمهّد لاعترافها أيضًا.

ليست امرأة عادية لتأخذ هي المبادرة وتفتح قلبها. إنّها راهبة نذرت العفّة والطاعة والفقر.

ISBN: 978-614-02-1189-6
9 786140 211896

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميـع كتبنـا متوفـرة في موقـع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

لوحة الغلاف: رينه ماغريت، الخطوط: سمير الح

مكتبة الفكر الجديد